مُقَدِّمَة

تعد الأورام السرطانية من أخطر الأمراض التي تهاجم جسد الإنسان بشراسة، وتعتبر من أهم أسباب هلاك البشر ليس فقط لقسوتها وسرعة انتشارها في الجسم، ولكن لسبب آخر مهم يُرجع إليه البعض وصف تلك الأورام بالخبث، مع التحفظ الشرعي على تلك التسمية.

إن مناط الخطورة ها هنا يكمن في دهاء هذا المرض العضال، وتخفّيه لفترة كافية دون أن يشعر به المريض المسكين الذي ربما لا ينتبه لوجوده إلا بعد أن يكون الأوان قد فات، وتمكن المرض من الجسم وصعب استئصاله أو القضاء عليه.

إنه مرض يجيد التخفي بشكل مدهش، وإنّ البداية الحقيقية لعلاج هذا المرض تكمن في التعرف على وجوده والانتباه إلى مكانه ومدى انتشاره داخل الجسم، لكن تخيل لو أن مريضا قرر ألا يعترف بوجود المرض.

تخيل لو أن مريضا هاجم الطبيب الذي نبهه للمشكلة واعتبره طرفا فيها وحمّله مسؤولية تنغيص حياته بتحذيره من احتمالية وجود المرض وتعكير صفوه بذلك التنبيه والتحذير!

تخيل لو أنه رفض الانتباه، وقرر أن يدس رأسه في الرمال، وأبى أن

يسعى لاكتشاف حقيقة إصابته بهذا المرض العضال، وبالتالي فقَدَ فرصة علاجه أو استئصاله.

البعض للأسف يعيش هكذا، ويتعامل بهذا المنطلق مع من ينصحه وينبهه لوجود خلل ما، بل ويعتبر أن النصح العام من خلال بيان مواطن الخلل والتحذير من الأنماط السلبية، والأمراض الخفية التي تجتاح جسد الأمة من حيث لا تشعر انشغالا بعيوب الناس، أو نظرة سوداوية تبرز فيها فقط النماذج المؤسفة والآفات المتوطنة في ثنايا النفس وجنبات الشخصية.

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق!

إن كان في النصح التحذيري تنغيص لحياة البعض وإظهار لشيء من مواطن الخلل فإن إبرازها بشكل صريح ودقيق وبشيء من التفصيل ربما يساعد بشكل أو بآخر على اجتنابها، وينبه من ينطبق عليهم شيء من تلك الخصال والأنماط المؤسفة، ويلفت نظرهم إلى أن ثمة مشكلة ربما لا يلحظونها في خضم الصخب المحيط بهم، لكن عند النظر إليها بمنظور عين الطائر؛ ومن خلال الرؤية النقدية المتسعة فإن ذلك أدعى لوقفة مع النفس ومراجعتها وتصحيح مسارها، وهذا أول طريق التغيير والعلاج.

وإن ذلك منهج قرآني متقرر ومتكرر لو أننا تدبرنا آيات سورة التوبة كمثال لوجدنا لفظ (ومنهم) قد تكرر كثيرًا في تلك السورة، والناظر بعين التدبر لما بعد هذا اللفظ سيجد في كل مرة صفةً من صفات المنافقين، ونمطًا متكررًا من أنماطهم الحياتية وسلوكياتهم التي تُتبين منها حقيقتهم.

كل صفات المنافقين تقريبًا ذكرت في هذه السورة ولم يكن متبقيًا إلا أن تُذكر أسماؤهم وكناهم.

وسورة التوبة هي السورة الفاضحة الكاشفة التي يستطيع كل منا أن يكتشف حقيقته من خلال آياتها بعرض هذه الآفات على نفسه، وتلمس حالها والمسارعة إلى التوبة التي هي الحل المطروح في السورة في مواجهة تلك الفضائح والخلاص من أسر تلك الأنماط بدلا من تركها والتستر عليها حتى تنمو وتستفحل ويصعب اجتثاثها بعد حين.

وكلما مر المرء بالكلمة المتكررة في السورة «ومنهم» «ومنهم» «ومنهم» عليه فقط أن يسأل نفسه ثم يجيب بصراحة: ترى هل أنا منهم؟!

قد يقول قائل: هؤلاء منافقون، فما شأننا نحن بذلك وما علاقة هذا بأمراض النفس وآفات السلوك!؟

إجابة ذلك التساؤل تظهر جلية من تعامل الصحابة رضوان الله عليهم مع تلك الآفة التي نضرب بها هذا المثال التوضيحي.

- **آفة النفاق:**

لم يتعامل الصحابة مع هذا المرض العضال والنمط البغيض على أنه مخصوص بطائفة معينة عليهم الحذر منها وحسب، لكنهم تفاعلوا مع تلك النصوص وأدركوا أنهم -على مكانتهم- ليسوا بمعزل عن تلك الخصال التي لخص مجامعها رسول الله ﷺ حين بين أن المنافق إذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ثم أوضح أنه من كانت فيه خصلة منهم كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها، ومن اجتمعت فيه فهو منافق خالص عياذًا بالله!

ها هنا بيان واضح أن الخطاب تحذيري من الآفة نفسها وليس فقط من المصابين بها، والرسالة الضمنية مفادها: راجعوا أنفسكم، فلربما تلبستم

بشيء من تلك الخصال من حيث لا تشعرون.

ولقد تلقى الصحابة تلك الرسالة وتفاعلوا معها تفاعلا واضحًا، فلم يتغافلوا أو يدسوا رؤوسهم في الرمال، بل انتبهوا وخشوا على أنفسهم جدا تلك الخصال.

يقول ابن أبي مليكة رحمه الله: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشى على نفسه النفاق!

ولقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حريصًا على تبين حاله، وكان يسأل حذيفة رضي الله عنه -وهو من ائتمنه الرسول ﷺ على أسماء المنافقين- فكان يتحرى أن يتبين منه قائلا: أوسماني لك رسول الله؟

عمر الفاروق وزير رسول الله وصاحبه، وصاحب تلك المنزلة الرفيعة يسأل خائفًا على نفسه من النفاق، بينما يأمن كثير من الناس اليوم تمام الأمن من تلك الآفة، ويظنون أنهم بمعزل عنها وكأن بينهم وبينها حجرًا محجورًا وحجابًا مستورًا.

هكذا كانوا، وهكذا تعاملوا مع النصوص الشرعية بهذا القدر من الحيوية والتفاعل ..

عندما نتأمل تلك الآيات التي تتحدث عن آفة من الآفات أو سلوك من السلوكيات المرفوضة أو المستقبحة؛ فلا ينبغي أن نتعامل معها من منطلق المعلومات العامة أو الشأن الغابر لطائفة خيالية أو افتراضية ليس لها أدنى علاقة بنا أو بواقعنا، ومن ثم نتغافل عن إسقاطها وقياس حالنا عليها والاستفادة من توجيهاتها وتحذيراتها في واقع نفوسنا وأفعالنا.

الصواب أن نتعامل مع تفصيل تلك الأمراض القلبية والسلوكيات

العملية بمنطق المنتبه المحاذر الذي يسعى بصدق للوقاية منها، أو للعلاج إذا كان ممن أصيبوا بشيء منها، وأن يتعامل كذلك مع من ينبهونه لتلك الآفات سواء بشكل عام مطلق أو خاص مقيد، على أنه طبيب حريص وناصح أمين وليس عدوًا مريبًا يريد أن يستعلي عليه ويزكي نفسه من خلال انتقاصه.

إن ذكر النماذج السلوكية المرفوضة والتدقيق في أنماطها وأشكالها المتكررة، والذي نعنى به في هذا الكتاب، لا نقصد به أيَّ استعلاء أو تزكية للنفس بل ربما يكون الكاتب نفسه أسيرًا لبعض تلك الأنماط واقعًا في شيء من تلك الأخطاء.

لكنه النصح والبيان المفصل، والله يقول ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ولقد حرصت في هذا الكتاب على عدم إسقاط تلك الأنماط على شخص معين أو فئة بعينها، وقصرها وحصرها عليه أو عليهم، ولو أردت التسمية لسميت، ولنال ذلك على الأغلب استحسانًا، وأثار ضجة نظرًا لكون كثير من الخلق يهوون التعيين والتراشق.

لكنِّي آثرت الإطلاق في جل مواضع الكتاب، إلا ما وجدت فيه ضرورة للتعيين في موضع أو موضعين على الأكثر، ورغم قلة محبي الإطلاق إلا أنني وجدته أكثر نفعًا، وأنضج ثمرة، وأدعى أن ينتفع به الجميع، بدلا من المسارعة للدفاع عن المعين من فئته، أو النهش فيه من عدوه، فتهدر الأوقات في جدل عقيم، وتُنسى الفائدة الأصلية وهي اتقاء الخلل، وإصلاح النمط، وتصحيح المسار.

إن المعركة الرئيسية للمصلحين هي مع الخلل نفسه، والمبتغى الرئيسي هو بيان زيفه وبطلانه، ثم محاولة إصلاحه بشكل عام وشامل يناسب الحاضر والمستقبل قبل الانشغال بتفاصيل آنية، وأعيان ستفنى بعد حين، وأشخاص ربما كان غاية ما يريدونه بإفكهم أن تنشغل بهم وتنصرف لذكرهم وإشهارهم، واللبيب بالإشارة يفهم.

وهذا الإطلاق والتنميط العام أيضا منهج مستمد من القرآن، فكم مرة ذُكر في القرآن كافر باسمه، وكم مرة عُين منافق بلقبه، وكم مرة أُخبر عن فاسق أو فاجر بنسبه، وما نسبة ذلك لذكرهم بصفاتهم وأفعالهم وقبيح أعمالهم، إجابتك على هذه الأسئلة تبين لك طريقة القرآن ومنهجه في التعامل مع الخلل ومقترفيه، إنه التنميط العام!

ليس كل من نعق بباطل أو تشدق بزيف وبهتان ننصرف ونسارع لذكره

إبليس .. فرعون .. هامان .. قارون .. أبو لهب

هؤلاء تقريبًا هم كل من ذُكروا بأعيانهم، وبعض الآيات وردت روايات بأنها نزلت في شأن أناس بعينهم كعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، وبرصيصا العابد المنتكس، وبلعام بن باعوراء، لكن هؤلاء لم يذكروا بأسمائهم لتظل الآيات على إطلاقها، وتبقى صالحةً لتطبيقها وقياسها على كل من سار على ذات النهج، وتنمط بنفس النمط السلوكي.

هذا طبعا بخلاف الآيات التي تحدثت عن أقوام بمجملهم كقوم عاد وثمود.

لكن حتى هذه النماذج المعدودة التي ذُكرت بأسمائها يعد أصحابها رؤوسًا ونماذج مثالية لأنماط بشرية معروفة، فقارون على سبيل المثل يعد

نموذجًا لنمط المستكبر بماله، المغتر بعلمه وثرائه، وفرعون يعد نموذجًا لنمط المستبد المتسلط والطاغية المتجبر، وهامان نموذجًا لحاشية السلطان الجائر التي تطيعه في كل باطل وتمهد له كل منكر، وهكذا . .

تجد الأصل في النماذج المذكورة أنها تصلح بشدة لجعلها معيارًا لقياس الأنماط السلوكية الشبيهة في كل زمان ومكان.

لماذا اكتفينا في هذا المصنف بالأنماط السيئة والنماذج ذات الخلل؟

الحقيقة أن كثيرًا من الأفاضل كان من رأيهم أن يتم تقسيم الكتاب إلى قسمين رئيسين، يحوي أحدهما الأنماط الحسنة، ويحوي الآخر الأنماط ذات الخلل، وذلك حتى لا يتسم الكتاب بالسوداوية والكآبة.

ولقد كدت أن أرضخ لتلك الرؤية لولا أن انتبهت لأصل المراد من هذا الكتاب، والذي قدمت له بمثال مرض السرطان في مطلع هذه المقدمة . .

هل يلزم الطبيب الذي يبين خصائص مرض ما أن يذكر في ذات السياق خصائص الشخص الطبيعي أو السليم؟

هل من أراد أن يعالج آفة معينة مضطر دائما أن يذكر المريض أن هناك أصحاء ينعمون بعافيتهم وعليه أن يكون مثلهم؟

الحقيقة أنني وجدت في ذلك الإلزام نوعًا من السذاجة، إذ إنّ تقييم المرض وتشخيصه لا يستلزم ذكر صفات من ليس لديه هذا المرض في ذات السياق، وكأنه مضطر أن يبرر نفسه، لأنه ينبه أو يحذر من الخلل، وعليه أن يدرأ عن قلمه تهمة السوداوية أو التشاؤم.

لقد كان* سيدنا حذيفة رضي الله عنه -وهو أيضا أهم رواة أحاديث الفتن وملاحم آخر الزمان- كان يقول: كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير

وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.

هذا رجل حصيف يدرك قيمة الانتباه للشر واتخاذ التدابير الواقية منه.

وكما يقال: صديقي من أهدى لي عيوبي.

ربما بعد هذا الكتاب الذي حوى هذه الأنماط المؤسفة ييسر الله كتابًا آخر نفرد فيه ذكر الأنماط المشرفة، وذلك لنتم الاقتداء بعد الاتقاء.

لكن كما قلت ليس هناك ارتباط إلزامي بين الأمرين، والمقصد الأهم من هذا الكتاب هو أن نخطو أول خطوة من خطوات العلاج، وهي التشخيص، ومعرفة محل الداء وطبيعة الخلل، وقبل ذلك إدراك أن هناك أصلا خللًا.

وكثيرًا ما يكون العلاج فقط أن يقلع المريض عن ذلك السلوك، وأن ينتزع نفسه من تلك النمطية التي وقع أسيرًا لها دون أن يشعر، بعد أن حاولت في هذا الكتاب تنبيهه ليشعر ويدرك أنه كان أسيرًا لها.

بالطبع لم أحص كل الأنماط البشرية، ولم تزل هناك أنماط كثيرة وسلوكيات متعددة وددت أن أذكر خصائصها لكنني -على الأقل من وجهة نظري- بدأت بالأهم والأخطر والأكثر انتشارًا وتأثيرًا في واقعنا المعاصر، ولعلنا في طبعات أو أجزاء أخرى قادمة نزيد أنماطا جديدة وسلوكيات لم يتسع لها المقام في هذا المصنف.

ستجد بين دفتي هذا الكتاب أنماطا فكرية وسلوكية وأخلاقية وقلبية وعقلية، وربما تجد بعض الأنماط نادرة في نظرك، وربما ترى أنك لم تلتق بها، لكن ثق أنها موجودة ولعلك تلاقيها يوما ما فتحسن التعامل معها.

بقي أن أوضح حقيقة مهمة، وهي عدم لزوم المطابقة الكاملة بين

توصيفي الذي سطرته في هذا الكتاب وبين هذه الأنماط في الواقع، فلربما كان تلبّس الشخص بالنمط المذكور جزئيًا، وقد يجتمع في الشخص أكثر من نمط بشكل معقد، وتلك هي طبيعة النفس البشرية التي لا ينبغي لأحد أن يزعم إحاطته بجميع خصائصها.

لذا أكرر أن الغرض من هذا التنميط ليس صناعة قوالب جامدة يسعى القاريء إلى قولبة الناس فيها، ولكنه بيان وتنبيه ونصح في المقام الأول، ثم توصيف يساعد شيئًا ما في إدراك طبيعة تصرفات البعض وأصولها ومآلاتها، مما يعين على فهم الواقع، وإحسان التعامل معه، وضبط درجة التوقع عند الانغماس في غمار التعامل مع الناس.

أتمنى أن يكون هذا الكتاب حجرًا في الماء الراكد، وعونًا للقاريء على التشخيص والانتباه والتنبيه، وأرجو من الله أن يغفر لي ما كان فيه من زلل، وأن يتقبل ما فيه من نصح للمؤمنين، وهو من وراء القصد ويهدي السبيل.



ما فيش فايدة
(السوداوي المستريح باليأس)

من أخطر الأنماط وأوسعها انتشارًا بين الناس نمط السوداوي اليائس أو يمكنك تسميته بالمستريح باليأس.

فأحيانا يكون خيار الإحساس باليأس خيارًا مريحًا، خصوصًا اليأس من التغيير، وفقد الأمل في الإصلاح.

قد يكون نوعًا من الهروب أو الاستسهال أو الركون للخمول والكسل المستتر خلف قناع اليأس، وقد تكون حيلة نفسية دفاعية يلقي من خلالها المرء تباعات تقصيره أو أخطائه أو ضعفه على شماعة العجز القانطة.

قد يلجأ بعضنا لهذا الخيار دون شعور منه، وربما دون تصريح، لكن لسان حاله وربما بعض مقاله يصرخ بتلك المحصلة التي وصل إليها قبله سعد باشا زغلول في تلك الكلمة المشهورة المنسوبة إليه، والتي لا أدري هل صحت نسبتها أم لا، لكن ما يعنيني هو مسارعة كل يائس إلى ترديدها سابقا إياها بقوله سعد باشا كان عنده حق . .

كلمة: «ما فيش فايدة »

لا أمل

ضاعت البلاد والعباد

انتهى الأمر

بايظة يايظة

فليقلها بأي صياغة أو أسلوب لكن النتيجة النهائية لمذهبه هي اليأس

نعم . . .

ربما توجد الآلام

وتتزايد . .

وتتضافر الإحباطات

وتتكاثر . .

ويرحل الأحبة تباعًا،

ويغدو الكوكب مكانًا موحشًا وتزداد وحشته يوما بعد يوم،

نعم . . . يدعوك جل ما حولك ومن حولك لليأس، ويدفعك بيد غليظة للقنوط،

يدعوك جلد الفاجر وبأس المنافق، ويدفعك عجز الثقة وأحيانا حماقته،

دمعات حزينة تجد طريقها أحيانا من قلب مكلوم إلى عين دامية، سرعان ما تتحول إلى غصة خانقة تنمو تدريجيًا لتكتم أنفاس الأمل في حلقك الجاف كلما تصاعد من حولك عبق الخسة المقزز، وعصفت بك رياح الكذب المنتنة التي تفوح من أفواه الأوغاد اللزجة كلما فتحوها لينبسوا ببنات سفاح من بين شفاههم الشامتة الحاقدة، وليزينوا بباطلهم السخيف نواصيهم الكاذبة الخاطئة.

نعم مهما تجلد المرء فإنه يجد كل ذلك أحيانا

لكنه يعود ليفكر مليًّا

هل يملك هذا الترف؟!

هل يملك ترف أن ييأس؟!

هل لديه خيار الإحباط؟!

وهل آن أوان الركون والاستسلام؟

هنا تسارع حروف عثمانية مشكلة حُفرت يومًا على القلب قبل أن يحفظها الصدر، تسارع تلك الحروف لتمثُل أمام عينيه منبهة لنفسه، ومذكرة إياها، وناهية لها، ومبددة لسحائب تلك الخواطر السوداء:

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

الكافرون!!

اليأس إذًن ليس مجرد خيانة كما يحلو للبعض أن يردد

اليأس قرين الكفر

هؤلاء فقط هم من يملكون هذا الخيار الكئيب

وأنت لست منهم

وما ينبغي لك

بل لك رب قريب سميع مجيب

لك رب قدير مقتدر يقول للشيء كن فيكون

لك رب فتاح نصير وليٌّ عزيز

إن يكلك إلى نفسك هلكت في غيابات جب اليأس المظلم

وإن يتول أمرك نجوت بإذنه

وهو يتولى الصالحين

هنالك يشرق القلب بالأمل من جديد، وتنسكب على ثنايا الفؤاد عطور الفأل الحسن المفعمة بعبير حسن الظن ممزوجًا برحيق العمل

هنالك تزول الغصة تدريجيًّا، وتتلاشى الغشاوة، ويستطيع المرء أن يكمل بينما يحدو طريقه نداء . . .

يا رب

لو فعل لانشرح صدره، ولاستيقظ الأمل في قلبه، ولتعلق ذلك القلب بربه الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

لو فعل لقال بلسان حاله ومقاله عكس ما يردده موافقو سعد باشا

لقال: إن كان سعد باشا قد قالها فالحقيقة إنه ما كانش عنده حق

وبإذن الله . . . .

فيه فايدة



المتلصم (احترس قابل للكسر)

ثلاث كلمات توضع دومًا على غلاف تلك البضائع التي يُخشى كسرها أثناء نقلها . .

عادةً ما تكون تلك البضائع ضعيفة المكونات، هشة الخامات، تحتاج إلى معاملة خاصة وحذر شديد أثناء تداولها، وإن من النفوس البشرية ما تصلح تلك العبارة القصيرة أن تكون عنوانًا لها،

نفوس يمكنك أن تقول عنها أنها: (متلصمة)

ومتلصمة كلمة عامية، مفادها أن هذا الشيء الموصوم بالتلصيم أقل شيء يكسره، وكذلك تلك الأنفس أقل شيء يكسرها، وأهون ابتلاء يزلزل أركانها، وأي معصية أو غلطة تدمرها، ويكأنها تتأرجح على حافة السقوط، تنتظر دفعة يسيرة لتقع بعدها وتتهشم، ثم تتردى مهزومة أمام تلك المؤثرات بضعف منقطع النظير، يليه تبرير شهير مفاده الشيطان شاطر وشريرّ!

والحقيقة أن هذا غير صحيح بهذا الإطلاق، الشيطان ليس بهذه الشطارة المزعومة، ويفترض بمسلم يقرأ القرآن أن يتلاشى ذلك التعظيم الخفي تمامًا من قلبه، خصوصًا حين يتلو قول ربه ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

تلك هي الحقيقة التي يعلنها الشيطان نفسه في خطبته بجهنم، إذ يقول فيها مبينا مدى ما يستطيعه ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

مجرد دعوة وسوسة لا تجاوز الصدور، ولكن كما أن كيد الشيطان كان ضعيفًا فإن الله قد بين أيضا في نفس السورة -النساء- أن الإنسان خُلق ضعيفا، كما يظهر في قوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾.

وضعف الإنسان الجبلي في مواجهة كيد الشيطان -الضعيف أيضا- قد يورث تسلط الأخير، وتمكنه من نفسه، ليصير في النهاية من ذلك النمط من الناس المتلصم والقابل للكسر، ولمثل هذا النمط أقول: اجمد شوية يا صديقي

المبادىء والقيم والثوابت لا يمكن أن تعامل بهذه الطريقة، وليس دين الله بالعزومة ولا بالتلاصيم.

عند التعامل مع الصدمات في أشخاص، أو مع تمكن هوى النفس وتسلط شيطانك حال المعصية، لا ينبغي أن تكون مهتزًّا ضعيف الشخصية، لسان حالك ألا فائدة منك تُرتجى، وألا صلاح منك يُنتظر، المرء لا ينبغي أن يكون مهتزًّا، ضعيف الشخصية، ينتظر أقلَّ سبب ليبرر لنفسه ترك الطريق، ويركن إلى اليأس والقنوط بحجة إنه مصدوم أو حزين، أو إن ما فيش فايدة فيه!

بل ينبغي في تلك اللحظة ألا يكون انكساره إلا بين يدي مولاه، وألا يظهر ضعفه إلا إليه، بينما عليه في ذلك الحين أن يظهر لنفسه ولشيطانه قوة وبأسًا وعنادًا، ولسان حاله: نعم عصيت وقصرت، ولكن ذلك ليس نهاية المطاف، ولم تزل روحي بعد بين جنبي لم أغرغر، وها هي الشمس بعد لم تخرج إلا من المشرق، بل ينبغي في تلك اللحظة ألا يكون انكسارك إلا بين

يدي مولاك عند مناجاته بالتوبة.

عليك في تلك اللحظة أن تظهر لنفسك ولشيطانك قوة وبأسًا وعنادًا، ولسان حالك: نعم عصيت وقصرت لكنني لم أمت بعد، وشاء ربي أن يمد أجلي لأوجع شيطاني، وأصقل نفسًا بالسوء تأمرني، نعم عصيت وقصرت لكنني لم أستسلم وبإذنه لن أفعل . .

نعم عصيت وقصرت لكنني عائد وإن أبيتم ونخرتم ووسوستم، عائد لربٍّ يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويعفو عن كثير!

اقطع على شيطانك طريقَ تقنيطك وتيئيسك، وتقوَّ بالله، والجأ إلى حماه تنجو بإذنه، وتنال البأس والصلابة التي تعينك على اتقاء كيد عدوك (الضعيف)، وكن في مواجهته عنيدًا صلب المراس وتجلد، ولا تكن أبدا من هذا النوع الذي يحيا تلك الحياة البائسة فيكون دائما مهدد النفس، على صدره تلك اللافتة المظهرة لضعفه وهوانه.

لافتة: احترس قابل للكسر



آيل للسقوط (على حرف)

وهناك نمط مهم للغاية ينبغي تأمله والحذر منه، وهو نمط الماكث على حرفٍ، الآيل للسقوط

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

وبالفعل هناك أيضا من يحيا على حرف، ويبني مواقفه ومبادئه وأحكامه على هذا الحرف الكائن على شفا جرف هار يوشك أن يخر به ويهوي إلى أعماق سحيقة!

هناك من لا يستطيع أن يبتعد عن حافة الهاوية الذى أَلِف التأرجح عليها، وصارت نفسه تأنف المكث على الأرض الصلبة البعيدة عن ذاك الحرف

إنه نمط من الناس تذهب بهم كلمة، وتأتى بهم أخرى، وترتفع بهم الأهواء، ثم تخفضهم الفتن والبلاءات، وما إن يُصدموا في أنفسهم أو في غيرهم حتى تبدأ (الولولة) والتباكي على الصدمة التي تلقوها، وكيف أنها أثرت في أنفسهم المرهفة الهشة القابعة على الحرف الآيلة للسقوط، أهل هذا النمط يشهدون موقفا فيرتفعون بصاحبه إلى سامقات المعالي، فإن أتبعه

بموقف آخر لا يرضيهم كادوا أن يخسفوا به الأرض إن استطاعوا . .

أصحاب منطق معيب، ونفسية متأرجحة لا تستقر على مبدأ، ولا تبقى على رأي، ولا تصمد في وجه ابتلاء أو فتنة، ولا تثبت أمام اختبار أو أزمة.

ما أسرع أن تُكَوِّن حكمًا، وما أعجل أن تنقضه، وما أسهل أن تتبنى معتقدًا، وما أهون أن تتركه، لتظل هكذا متقلبة متأرجحة بين المبادىء والقيم والأهواء والظنون، ولتبقى على تلك الحالة الآيلة للسقوط من ذاك الحرف!



أنا كدة كويس

ومن الأنماط المنتشرة أيضا نمط (أنا كدة كويس)

إنه النموذج الراضي عن نفسه المقتنع تمام الاقتناع بعلاقته بربه، والحقيقة المؤسفة أن هذا النمط من أصعب الأنماط في التعامل، وغالبًا يكون مدخل الشيطان له أنه فعلا نسبيًّا إلى حد ما . . . (كويس)!!

بمعنى أنه بشكل عام لا يقع في كبائر عظيمة، ولا فواحش ظاهرة، ولكنه يظل في حالة رتيبة، يحرص الشيطان ألا تصطدم بشكل عاجل بمعصية كبرى تدفعه للندم والتوبة، بل يعتمد معه أسلوب الغفلة والتدرج البطيء، حتى يظل الشعور المسيطر عليه للنهاية أنه . . . (كويس)

طبعا ليس شرطا أن يكون فعلا (كويس)، بل كثيرًا ما يتمكن الشيطان من نفوس مجرمة، لا تترك شيئًا من الفساد إلا اقترفته، ومع ذلك تصر أنها (كويسة) وممتازة، وهذه حالة متأخرةٌ، ونمط مريعٌ للغاية لعلنا نتطرق إليه إن شاء الله.

أما بالنسبة لأخينا الغافل صاحبِ شعار (أنا كدة كويس) فمشكلته الأساسية في أمرين:

الأمر الأول هو تزكيته لنفسهِ، وأمنه من سوء العاقبة، وتلك آفة عظيمة تنزه عنها من هم خير منه ومنا ألا وهم أنبياء الله عليهم السلام الذين كان منهم مَن

دعى ربه لتجنيبه عبادة الأصنام كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ومنهم من دعا بالوفاة مسلمًا كما فعل يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ومنهم من دعى ربه بالثبات كنبينا محمد ﷺ: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

الأمر الثاني في إشكاليات هذا النمط يتمثل في تباطئه الشديد أو عجزه عن إصلاح نفسه لعدم رؤيته لأخطائه وكل ابن آدم خطاء . . .

تأمل . .

خطّاء بصيغة المبالغة التي تفيد هنا كثرة أو تكرار الخطأ، وليس فقط مخطىء.

ليس معنى كلامي أن يتحول لنمطٍ آخر فيكون نمطًا يائسًا أو فزعًا هلوعًا جالدًا لنفسه، وتلك أيضا أنماط مرفوضة، سنتكلم عنها إن شاء الله في الفصول المقبلة.

لكن مقصدي أن ينتبه مثل هذا النموذج المتراخي إلى أن اللهَ وحدَه أعلم بمن اتّقى، فلا يزكي نفسه، وأن يعلم أن النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وأن من لم يعرف أخطاءه فلن يتمكن من إصلاحها.

وأخيرا أن يدرك أن التؤدة خير في كل شيء إلا في عمل الآخرة كما ثبت عن النبي ﷺ



الجلاد

ومن أشق الأنماط في التعامل ومن أخطرهم على نفسه وغيره نمط الجلاد، إنه ذلك الشخص الغليظ الذي لا يكاد يضع سوطه أو يريح (كرباجه)، فتارة يجلد هذا، وتارة أخرى يضرب ذاك، فإن لم يجد من يجلده استدار سوطه إلى ظهره فجلد نفسه.

وسياط هذا النمط ليست تدمي البدن، لكنها تدمي الروح والنفس، وتقطع وتين الأمل، وتدمر أواصر الرجاء وحسن الظن.

وشتان الفارق بين النفسيات النبيلة والعقليات العملية التي تتجاوز أسوار المزايدة وقضبان الجلد الدائم والمستمر للمخطىء لتنطلق إلى الهدف، وتصل إلى المراد، وهو التغيير للأفضل وبين تلك النفوس السادية المريضة والأخلاقيات الناقصة البغيضة التي تصر على جلد المخطىء بسياط اللوم اللاذع ودفنه حيًّا في غيابات الندم وتعذيب النفس.

أما أن يحبس الإنسان نفسه إذا أخطأ في سجن الخطأ، أو أن يصر لائمه على حبسه خلف قضبان الإذلال بهذا الخطأ، وتحميله مسؤولية كل كارثة حدثت وتحدث؛ فتلك مسالك الضعفاء الذين لا يستطيعون المضي قدمًا ولا التفكير بشكل عملي.

كثيرًا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ، والاستعداد

لدفع ثمنه، وتحمل مسؤوليته، والسعي لإصلاحه، ثم الانتقال إلى الأهم والأنفع بدلا من تضييع الأوقات والأعمار في الجلد والتحطيم أو التبرير والتزيين.

إن المخطىء إذا ندم، وعرف موطن الخلل والزلل، وتحمل نتائج أخطائه؛ فعليه ألا يظل بعد ذلك حبيس هذه الأخطاء وإلا تحول الخطأ إلى حالة من الماسوشية (حب تعذيب النفس، واستمراء جلد الذات) مما يؤدي إلى بقائه في مكانه سجين (بطحته) التي على رأسه.

وأما المعاتب أو الناقد فعليه أن يكون خير آخذ، وألا تنحصر علاقته بالمخطىء في تعذيبه بالخطأ وتعليق كل مصيبة على شماعة زلته أو خطئه، فينتقل الناقد من حيث لا يشعر إلى حالة من السادية (حب تعذيب الآخرين)، ويظل في ذلك القصور القيمي والأخلاقي والنظرة اللاعملية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فليدفع المخطىء ثمن خطأه بالعدل، وليقتصر النقد والتلاوم على التعريف بمحل الخطأ وبيانه لعدم العودة إليه، ثم ليتجاوز المخطىء والناقد تلك القضبان، ولينطلقوا إلى رحابة العمل وسعة التغيير والإصلاح بدلا من أن يحبسوا أنفسهم خلف أسوار الخطأ، ويظلوا أسرى لتلك السياط، سياط جلد النفس والغير ..



الملقاط

وهناك أيضًا نمط الملقاط، أو يمكنك تسميته بنمط العدسة المكبرة . .

ذلك الشخص الذي يلتقط العيوب ويبحث عنها بملقاط دقيق ومسبار حساس، لا تفوته هفوة ولا تفلت منه حركة أو سكنة، فلا يقع إلا على الزلات، ولا يلاحظ إلا الأخطاء؛ ليستعمل عدسته بعد ذلك في تضخيمها وتعظيمها

الإنسان بالنسبة له عبارة عن علامة (X) كبيرة، ينتظر اللحظة المناسبة ليضعها، ويلخص كل تاريخ الشخص ومواقفه فيها، الخطأ عنده جريمة، والزلة مصيبة، والصغيرة فاحشة كبيرة، ومتى اقترفها من أمامه تجد الملقاط يلتقطها، ثم العدسة تعظمها، حتى تلتهم تلك الزلة حياة ذلك المخطىء، وتتحول إلى ممحاة (أستيكة) عملاقة تمحو له كل فضل وتزيل عنه كل خير.

هذا النمط لا يقيل ذوي الهيئات عثراتهم، ولا يذكر لأهل الفضل فضلهم، وهو بالطبع يُبصِرُ القَذاةَ في عينِ أخيه بينما ينسى الجِذْعَ في عينه هو!

نمط في تعامله مع أخطاء الناس يظن نفسه إلهًا يحاسب الخلق على النقير والقطمير، ويغفل أن الحساب عند الله وحده، وأنه حساب تراكمي

جمعي مكتوب ومُحصى في كتاب وليس يختزل في خطأ أو يلخص في موقف واحد، وأن له قبل كل ذلك إلهًا رحيمًا كريمًا حكمًا عدلًا، وأنه أرحم بهذا المخطيء من والديه أنفسهما وليس منك فقط أيها الملقاط.



المتعالم

هذا الشخص تجده يدلي بدلوه في كل مسألة سواء له فيها أو ليس له . .

تراه كما يقولون بالعامية: (راشق) في كل شيء

في الطب علَّامة

وفي الفن فهَّامة

وفي الرياضة مدير فني

وفي الدين شيخ المشايخ وإمام الأئمة، أما في السياسة فهو المحلل الاستراتيجي والنخبوي العقر العليم ببواطن الأمور.

هذا الشخص في الحقيقة مسكين للغاية، إذ إنه ربما يعلم شيئًا عن كل شيء، لكنه لا يدرك أنه يستحيل أن يعلم كل شيء عن كل شيء، والمشكلة الأكبر أنه لا يدرك أن من حوله يدركون ذلك، وأنهم إن لم يكونوا مخدوعين في طنطنته وشنشنته وتقعره وتحذلقه وتفيقهه فإنهم ببساطة يأخذونه على (قد عقله).

وهذا النمط يحتاج إلى بعض التهدئة النفسية والثقافية قبل أن يصطدم رأسه يوما بصخرة الحرج الذي سيصيبه حين تفتضح حقيقة ضحالته وتظهر سطحيته، هذا إن كان فعلا كسائر البشر . . . يشعر بالحرج!!

الأحـول

من أعجب الأنماط البشرية التي يمكن أن يلاقيها الإنسان في حياته نمط أصحاب الحول الفكري . .

طبعا لست أعني بالحول تلك الحالة التي تصيب حدقة العين بشكل وراثيٍّ أو كسبيٍّ فتجعله ينظر أو يبدو كأنه ينظر لنقطة أخرى بخلاف ما ينبغي أن ينظر إليه، فذلك لا يعيب شخص المرء أو ينقصه، ولكن عن الحول في الفهم والاستيعاب أتحدث . .

إنه نوع من الحول يجعل الشخص ينحرف بفهمه لمعاني الكلام ومناطاته ومآلاته إلى جهات أخرى بعيدة ومختلفة تمامًا عن المراد الأصلي منه، وبالتالي يُقَوِّلُك ما لم تقله، ويلزمك بما ليس بلازمٍ، ويفترض افتراضاتٍ وهميةً وبعيدة كل البعدِ عن حقيقة الكلام.

هذا النمط إذا وعظته أو ذكّرته بالله وعبادته وتقواه تجده يسارع فورًا إلى اتهامك بالدروشة، ورميك بالرغبة في الهروب من أمور الواقع المضطربة والمتقلبة، وكأنك بتذكيرك هذا تريد أن تترك الدنيا (تضرب تقلب)، دون اعتناء ولا اهتمام، ومَن لم يُعن بأمر المسلمين فليس منه.

وإذا فعلت العكس فتكلمت عن هموم الأمة وضرورة الصدع بكلمة الحق، أو علقت على خلل ملاحظ، أو رفضت خطئًا حادثًا تجد نظيره

الأحول الآخر يقول لك بورع وخشوع: يا أخي لقد قسيّتم قلوبنا بالحديث عن الواقع وهمومه، والأحداث وتسارعها، أين أنتم من الدعوة والوعظ والتغيير الذي يبدأ من النفس؟!

وهكذا دواليك . .

كلِّمه عن العلم وفضله وستجده يرد: وأين العمل يا أخي . . علم بلا عمل كشجر بلا ثمر . . .

فلتكلمه إذًا عن العمل والبذل والإيجابية والتغيير والنجاح، ثم استعد لرد فعل نظيره الأحول حين يفهم الكلام على أنه احتقار للعلم وأهله والعبادة والعُبَّاد.

حدثه عن العبادة وأهمية الصلاح الشخصي، واستمع بعدها إلى استنكاره لفهمك الأناني (المتدروش) المنصرف عن هموم الأمة، فإذا كلمته عن تلك الهموم ستجد بانتظارك استدلالات التغيير الذي ينبغي أن يبدأ من أنفسنا.

وكذلك دومًا صاحب الحول الفكري

لا ينفك عن النظر إلى معانٍ أخرى غير التي تشير إليها، والتعلق بإلزامات لا يُشترط وجودُها، وارتباطات غير موجودة إلا في خياله، وقِس عْلى ذلك الحول جلَّ نواحي الحياة.

فكما ستجد الأحول في ميادين الفكر والثقافة ستجده أيضا في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع

ستجد ارتباطات عجيبة في ذهنه وكذلك تناقضات مذهلة في فهمه

إذا حدثته عن لقمة العيش والغلاء والأزمات الاقتصادية ستجد وجهًا

مكفهرًّا يظن صاحبه أنك تقول ذلك لتبرر قمعًا، أو تدافع عن ظلم وكبت للحريات فإذا تكلمت عن الحقوق والحريات، وطالبت بالعدل والإنصاف، برزت فزاعات المشكلات الاقتصادية والأزمات الأمنية، وكأن هناك تعارضًا دائما بين الأمن والغذاء، أو بين الحرية والشبع، وعلى المواطن دائمًا أن يختار شيئا واحدًا فقط، وليس من حقه أبدًا أن يطمع في اجتماع خيرين أو التقاء فضلين بل حقين!

إن الإصرار على فرضيات وهمية بتعارض أشياء، أو استحالة الجمع بين أشياء، أو تخيل إلزامات وارتباطات وتلميحات ومآلات للكلام، كثيرًا ما يكون بسبب ذلك الحول وتلك الشخصية الحولاء التي لا تتكلف ذلك الوهم والتخيل.

لكنها أحيانا لا تخلو من تكلف وافتعال مقصود لأغراض في نفس أصحابه!

وسواء كان الأمر مفتعلا أو نابعا عن سوء فهم فالتعامل مع هذا النمط يحتاج إلى بعض التنزل، ومحاولة الأخذ بناظريه بهدوء، ولفت انتباهه إلى تلك النقطة التي تشير إليها بسبابتك قائلا: بتبسط: بص ..

أيوة في هذا الاتجاه

ها هي النقطة التي عنها نتحدث، ها هي هناك واضحة، وفي النهاية هي مجرد نقطة، نقطة واحدة وحسب، نقطة من ضمن نقاط أخرى كثيرة، ليس معنى أنها مهمة أن النقاط الأخرى ليست كذلك أو أن هناك ضرورة تلازم أو حتى تعارض ..

ها هي هناك وليس حيث تنظر ..

فإما أن يستقيم البصر، ويدرك المراد والمقصد، وإما أن يظل الحول وانحراف النظر كما هو، وفي تلك الحالة فعليهِ أن يبحث عن علاجٍ لحوَل العقول



الأولتراس

ولست أعني هنا الأولتراس الحقيقي، أو أن يكون النمط المقصود عضوًا في رابطة مشجعين لنادٍ معين

حديثي عن فكرة الأولتراس ليس مقصودًا به ذلك الاصطلاح الدارج الذي يصف رابطات مشجعي الأندية الرياضية وفرق كرة القدم، لكنني أتحدث ها هنا عن ظاهرةٍ فكرية ونمط سلوكي صار حاضرا بقوة على الساحة في الآونة الأخيرة

هو نمط يمارس كل ما يمارسه أعضاء الأولتراس الرياضي تجاه من يحبون أو يتبعون ويتعصبون له في مختلف مناحي الحياة، وهذا النمط عادة يكون شخصية انبهارية (مأفورة)

تجده إذا أعجب بشيء فإنه يغلو فيه جدا وينبهر به كأشد ما يكون الانبهار، ويعتبره أهم ما في حياته، حتى إذا حدث خلاف أو وقعت مشكلة بين أحد من الناس وبين من ينبهر به -أو بهم- تجده يتحول في لحظات إلى وحش مفترس يكاد يفتك بمن أمامه، محولا ذلك الخلاف إلى عداوة تاريخية عظيمة، رغم أن أصل الخلاف والمختلفين ربما لا يكون لهذه الدرجة بل ربما تظل أواصر الود بين رؤوس الخلاف أنفسهم تماما كما يحدث في الأوساط الكروية حيث تجد الصراع المتعصب بين جماهير الفرق المتنافسة

والذي يصل أحيانا إلى الاقتتال والتعارك، بينما تجد اللاعبين (سمن على عسل) وربما يكونون رغم تنافسهم داخل الملعب أصدقاء أعزاء خارجه

لكن بالنسبة لأخينا الأولتراس الفكري أو السياسي أو الديني ما فيش وسط.

الحياة بالنسبة له مباراة ساخنة ربما لا يشاهد أغلبها، حيث يكون ظهره للملعب وحواسه منشغلة ببذل أقصى ما يستطيع في التشجيع حتى يُبح صوته، وتكل أنامله في التهليل المستمر لمن ينبهر به -أو بهم- بالتوازي مع هجومه الكاسح على الأعداء من أبناء وأولتراس الفريق الآخر!

والحقيقة أن جزءا كبيرا من الخلافات الفكرية والواقعية المعاصرة يزداد تعقيدها، وتتعمق هاويتها بسبب هذا النمط من المشجعين و(الهتيفة) الذين لا يدخرون وسعًا ولا يألون جهدًا في تسخين المباراة، و(شعللة) الطرفين، وربما ينضم إليهم (المسخناتية) الذين يقتاتون على المشاكل والانقسامات والصراعات، فيتطوعون بالمزيد من إشعال الموقف بين رؤوس المنافسة وقادة الفصائل المتناحرة، وربما تأخذ أحد الرؤوس أو كلاهما العزة بالإثم فيبغي على الآخر، مما يؤدي إلى جلب المزيد من المشجعين، وتعالي صياح المهللين والمهاجمين، ومن ثم تضيع الحقيقة، ويتلاشى المنطق، ويغيب الإنصاف والوعي بين آهات التشجيع، وتتوارى أصوات العقلاء والمصلحين خلف هتافات المتعصبين.

هنا يسيطر هذا النمط الصاخب على المشهد العشوائي، ويصبح الإصلاح في غاية الصعوبة في خضم ضوضاء الهتاف والتشجيع والهتاف والتشجيع المضاد، والسبب هو تلك الثقافة، وشيوع ذلك النمط في كل

محك، نمط الأولتراس الفكري أو الديني أو السياسي أو الثقافي.

المشكلة الكبرى لدى أصحاب هذا النمط أنهم لا يدركون حقيقة بسيطة للغاية، حقيقة أن الحياة ليست هكذا، ليست مباراة بين فريقين متنافسين تتابعهما مدرجات مشتعلة، ليست تقوم بالصراخ والصخب وإشعال المدرجات . .

الحياة ليست بتلك البساطة التي تغلب على تلك المنافسات الرياضية الواضحة ذات الفِرَق المتباينة التي يسهل تمييز كل منها من خلال شعار أو لون (فانلة)، وتنتهي بفوز واضح وقاطع لأحد الفرق.

هذا النمط الأولتراسي ينبغي أن يفهم خصوصًا من خلال من ينبهرون بهم، ويتعصبون لهم، ويتبعون قولهم أن الحياة أعقد كثيرًا من هذا.

ينبغي أن يدرك أهل هذا النمط أن المرء لا يحتاج إلى كل هذه الحماسة عند كل محك من محكات الحياة، وينبغي على أصحاب الرأي والمتبوعين ألا يسمحوا بتحول محبيهم ومؤيديهم والمقتدين بهم إلى مجموعات أولتراس تشجعهم على طول الخط، وتنهش خصومهم ومخالفيهم بهذا الشكل المحموم، ينبغي أن يفهم الجميع أن الحياة ليست مباراة كرة قدم!

وأن الخلق ليسوا مجرد أولتراس!



المحتكرون

من المشهور في ديننا ذلك النهي عن احتكار السلع الضرورية التي يحتاجها الناس ومنعها عنهم بغية زيادة سعرها، والتكسب من وراء ذلك الاحتكار.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا على المسلمينَ؛ فهوَ خَاطِئٌ**» حسنه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة.

لكن على ما يبدو أن ذلك الاحتكار لم يعد اليوم قاصرًا على احتكار السلع أو أقوات الناس، ولكنه صار يمتد ليصلَ إلى احتكار الفكر والرأي والحقيقة، ثم احتكار الدين نفسه للأسف.

إنه نمط من أبشع الأنماط، ونموذج من أخطر النماذج، نمط المحتكرين للديانة، ونموذج المتسلطين على الملة الذين يظنون أن الإسلام وحقيقته سلعة يمكنهم احتكارها والاستحواذ عليها.

نعم هذا هو الواقع المحزن . .

بيننا اليوم محتكرون للدين، متسلطون على الملة، وليس مجرد متاجرين به، مقتاتين عليه . .

إنهم أناس نصبوا أنفسهم، أو نصبهم غيرهم، أوصياء على ديننا،

محتكرين لحقيقته، جاعلين من أنفسهم بوابات لا يحق لأحد أن يلج إلى الدين إلا من خلالها!

يستوي في أصل ذلك التسلط والاحتكار أولئك الأضداد ممن عينتهم السلطة، أو من معارضيهم مع اختلافٍ في درجات وآليات التسلط وفرض الرأي والتوجه.

بل حتى عوام الناس من البسطاء وجمهور المساجد في خطب الجمعة صار لهم أيضا نصيب من احتكار فهم الدين والتسلط على المخالف، فلا تكاد تجد خطبة يتجرأ الخطيب فيتكلم في أمر لا يعجب المستمعين إلا ويناله من أذاهم اللفظي، وأحيانا البدني، وربما لا يستطيع أن يكمل خطبته ويظل على منبره لمجرد أنّ بعض المستمعين المحتكرين قد قرروا أنَّ ما قاله ليس هو الدين الذي يعرفون.

وهل هناك ضوابط معينة أو معايير علمية محددة لذلك القرار المتبوع بتطاول لفظي أو بدني؟!

الجواب: لا

عليك فقط أن تأتي على جرح للمؤيد لفكرة أو رأي، أو للمعارض لهذه الفكرة والرأي على سواء، ولو بمجرد تلميح ربما لا يكون مقصودًا - بل غالبًا في إطار هذا الإرهاب الفكري لا يكون مقصودًا- لكن يكفيك جرمًا أن السادة المحتكرين قرروا فهمه كما يحلو لهم!

أتذكر يوما عنفني فيه أحد المصلين بعد نزولي من على المنبر لأنني لم أتحدث عن الحجاب على المنبر، بينما يرى سيادته أن هذا واجب الوقت الذي ينبغي على كل الخطباء أن يتحدثوا عنه،

تصور يا مؤمن!

لم يعترض على موضوع الخطبة -التي كانت بالمناسبة عن الله جل وعلا وعن معرفته والتقرب منه- ولم يقل كما جرت العادة لماذا قلت كذا ولماذا ألمحت عن كذا ولكن هذه المرة كان الاعتراض لماذا لم تتكلم عن كذا!

ويكأن الخطيب عليه أن يتحول إلى برنامج ما يطلبه المستمعون، ليس ليعجبهم ولكن فقط ليسلم من إهانتهم وتطاولهم، لكن يكفيك جرمًا أن السادة المحتكرين قرروا فهمه كما يحلو لهم وإلا نصبت المحكمة!

لماذا تكلمت عن كذا؟!

وهل كنت تقصد بإشارتك كذا؟!

ولماذا لم تتكلم عن كذا وكذا؟!

هذا المثال غيض من فيض، ونموذج بسيط على ما يحدث اليوم في بلادنا من احتكار تسلطي للدين على مستوى عوام الناس، فما بالك بخواصهم ونخبتهم

أولئك الذين يتحملون النصيب الأكبر من المسؤولية عن تلك الحالة، والتي ترسخ فيها أن من يختلف معهم ليس من الإسلام، وأن الإسلام بريء من تشدده أو تفريطه.

يستوي في أصل هذا الخطاب الإقصائي، مع اختلاف في آليات تنزيله على الواقع، أولئك الذين هم موالون للسلطة، ومَن هم في خندق معارضتها، ولا يتورعون عن تضييق مفهوم الدين وقصره في مناهضة الحاكم وحسب، حتى إن تعليم الناس الخير أو دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة

والرغبة في توبتهم وأوبتهم وتغييرهم للأفضل صار في عرف هؤلاء هروبًا أو ضعفًا وتخاذلًا.

بل حتى لو كان ذلك الداعي ممن لم يسكتوا عن حق، أو يتخاذلوا عن مبادئهم وقيمهم والصدع بما يدينون به في مواطنه.

مجرد أنه لم يتكلم أربعًا وعشرين ساعة فيما يريدون ويجيدون فإن ذلك يكفي لنبذه ولفظه واحتقار جهده وبذله واعتباره هروبي منبطح!

خطاب إقصائي متكبر، استحل متبنوه أن يعيِّنوا أنفسهم قضاة، يحاكمون الناس على فهمهم هم للدين، وبدلا من أن يتواضعوا كما تواضع من هم أفضل منهم فقالوا رأيُنا صوابٌ يحتمل الخطأ ورأيُ غيرنا خطأٌ يحتمل الصواب؛ حكموا على رأيهم بأنه الصواب المطلق، ورأي غيرهم هو الخطأ المبين الذي ينبغي أن يقمع، خصوصا لو كانت السلطة في أيديهم.

حينئذ فليمنع هذا الخطيب، ولتوقف هذه المجلة، وليكتم هذا الصوت لا بنقاشٍ أو معايير علمية تقبل الأخذ والرد والتحسين، لكن بتلك العبارة المطلقة الواسعة: هذا ينافي الفكر الوسطي، وهذا ينافي صحيح الدين ووسطيته.

والسؤال هو: من الذي عينكم لتحددوا الفكر الوسطي؟!

من جعلكم كهنة وأوصياء على ديننا، وأعطاكم الحق لتحدِّدوا بدون دليل أو نقاش أن هذا ينافي صحيح الدين وهذا يوافقه؟!

من منحكم سلطة توزيع الصكوك التي تقررُ أنه هذا ليس هو الإسلام؟!

ودائما تصدر حينئذ عبارة أخرى في وجهك يصيح بها أولئك

المحتكرون المتسلطون فحواها : لسنا ضد الإسلام ولكننا ضدكم فأنتم لستم الإسلام!

ولا أنتم كذلك الإسلام

ولا أحد من المخلوقين يمثل الإسلام

الإسلام هو القرآن والسنة الصحيحة

الإسلام هو سعة وتنوع ورحمة وجدال بالحسنى بل بالتي هي أحسن

أين في ديننا هذا التسلط والوصاية من هؤلاء وأولئك؟!

الإسلام أرحب وأرحم بكثير من ذلك التضييق الرسمي وغير الرسمي

الإسلام دينٌ بلا حق إلهيٍّ لأحد من البشر بعد الأنبياء

دين بلا كهنوت يجتبى إليه أشخاصًا بأعيانهم

دين لا وصاية فيه لمخلوق على مخلوق، وليس فيه صكوك، ولا احتكار، فارفعوا أيديكم عنه، وانسوا أن تجعلوه يومًا ما سلعة يتاجر بها أحد، أو أن يحتكرها أحدٌ خصوصًا أولئك المحتكرون للإسلام.



الشماعة

وهذا النمط مغرم بالشماعات التي يهوى تعليق فشله أو تقصيره أو انتكاسه عليها،أكثر هذه الشماعات التواكلية، وتكون عن البيئة والظروف المحيطة والعوائق التي تقف بينه وبين الصواب والحق،ويا ليته تدبر في شأن امرأة نوح وامرأة فرعون!

أما الأولى فقد عاشت في بيت من أطهر البيوت وأنقاها، بيت مليء بالتقوى يقوده واحد من أفضل البشر وأعظمهم على الإطلاق، بيت نبيٍّ رسول من أولي العزم من الرسل، عاشت في بيت نوح عليه السلام، بينما عاشت الأخرى في بيت طاغية من أظلم وأفسد الطغاة الذين عرفتهم البشرية

عاشت في بيت فرعون، ذلك الظلوم مدعي الربوبية، ومنتحل الألوهية، والمجترىء على كل قيمة توحيدية تخالف شرعته الأرضية الوضعية، ورغم أن الظروف والأحوال المحيطة بكل منهما كان من المفترض أن توجهها إلى طريق يناسب ظروفها المحيطة ومآل يشابه بيئتها التي عاشت فيها إلا أن العكس هو ما حدث، لقد كفرت الأولى وضلت، بينما آمنت الثانية وأحسنت.

لم تنفع الأولى بيئتها الصالحة، ولم تقف البيئة الفاسدة حائلا بين الثانية وبين بشاشة الإيمان التي خالطت قلبها، فصارت الأولى مع أختها وشبيهتها

-امرأة لوط- مثالا قرآنيًا يضرب للذين كفروا، وأضحت الثانية قدوة ومثلا للذين آمنوا.

يقول ربنا في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

ويقول أيضا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذان المثالان القرآنيان من أوضح الأمثلة على تلك الحقيقة التي يتجاهلها كثير من الناس،

حقيقة أن الشماعات التي يعلق عليها البعض فشلَهم أو انتكاسَ فطرتهم ليست كافية أبدًا،

شماعات الظروف والبيئة المحيطة والعوائق الصادة والصعوبات التي تفصل بينه وبين الهداية

حقيقة أن المرء مكلف أن يبذل وسعَه للوصول إلى الحق، وأن يثابرَ ويصابر مهما كانت الظروف المحيطة قاسية ومانعة.

لا شك أن البيئة المحيطة عاملٌ لا يستهان به، وعنصر ينبغي اعتباره، لكنها وأكرر ليست العامل الوحيد.

لم تشفع البيئة الصالحة والبيت الطاهر لامرأة نوح ولا لامرأة لوط، ولم تقف حائلا بينهما وبين الكفر، بينما صمدت امرأة فرعون في ظروف صعبة وبيئة بشعة قاسية.

وهل من بيئة أسوأ من تلك التي عاشت فيها؟

هل من ظروف أقسى من تلك التي عانت منها هذه المرأة المؤمنة وهي تواجه طاغية لا يستنكف أن يذبح أطفالا رضّعَ ويستحيي نساء ويستعبد أمة بأسرها؟

لو كانت البيئة والظروف هي العامل الوحيد الذي يحلو للبعض أن يركنوا إليه عند تبرير تقصيرهم لكانت تلك المرأة الصالحة أولى الناس بالتعذر به، والركون إليه، وقد ورد في بعض الآثار أنها قد ذاقت الأمرَّين متجرعة عذاب فرعون حتى قتلها، لكنها لم تفعل، بل صمدت وصبرت ونالت ما طلبت ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وهكذا الصادق في طلب الحق والاستهداء بنوره، لا يلفته عنه شيء، ولا يثنيه عائق، أو تؤخره ظروف، أو تعطله علائق.

لا يعلق تقصيره على شماعات ومبررات واهية، بل يسعى ويجتهد، ويعلم علم اليقين أن نور الحق نافذ ولو غلظت سحائب الباطل وكثرت غيومه.

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن تعيها، أنت صاحب القرار، والخطوة الأولى منك أنت، فلا تعلق مآلات أحوالك واختياراتك على البيئة والظروف، فأنت من تختار لنفسك وتحدد طريقك، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وإنْ يعلم الله في قلبك خيرًا يؤتِكَ خيرًا، فدع عنك المبررات واكسر تلك الشماعات.



مغسل وضامن جنة

?

قالوا قديما فى المثل: غسله واعمل له عمة .. قال يعنى أنا مغسل وضامن جنة ..

إنها كلمات بسيطة وذكية كعادة الأمثال المصرية، تلخص رسالةً يفترض أنها كانت مستقرة فى الوجدان المصرى -بل فى الوجدان المسلم بشكل عام- رسالة مفادها أنه ما من أحدٍ يضمن مصيره فضلًا عن مصير غيره، لا أحدَ يمتلك القدرة على الحكم لفلان بالجنة، والجزم لفلان بالنار

معنى بدهيٌّ ومنطقيٌّ، وأصل إسلامى يفترض أن يعلمه الجَميع، أجملته تلك الكلمات البسيطة التى عبر المصريون من خلالها عن معتقد هام يظهر فى العديد من الآيات والأحاديث الصحيحة، معتقد: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ومسلّمة أن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

لقد لخص النبى ذلك المعنى فى جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون، وجاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «واللهِ ما أدرى -وأنا رسولُ الله- ما يُفعَلُ بى ولا بِكم»، ورغم ما له من مبشرات ومنزلة عند ربه، إلا أنه على ما يبدو أراد التعميم لترك الأمر كله لله، وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق فى أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبى يفاجئهم بأنه ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التى من المفترض كما قلت وكما بدا من المثل أنها بديهية ومنطقية.

لكن للأسف الشديد، أصحاب هذا النمط قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة، وظهر من خلال لسان حالهم ومقالهم أنه قد تسربت إليهم دون أن يشعروا خصلة من خصال من قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. صحيح أنهم لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكنهم أكدوا معناها من خلال نفيهم المستمر لإمكانية فتنتهم أو فتنة من يحلو لهم تزكيتهم من سادتهم وكبرائهم، ويصرون على إضفاء العصمة والقداسة على دينهم وعقيدتهم، ويكأنهم اطلعوا على ما في قلوبهم أو كأنهم اتخذوا عند الله عهدا، فيه ذلكم الجزم المزعوم أنهم أو سادتهم وكبراؤهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الضلال إلى يوم الدين!.

العجيب أن الصحابة أنفسهم كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة، بل وحتى الأنبياء كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات، واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عليهما السلام بالشيء الذى يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثانى الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا لمقلب القلوب كى يثبته على دينه. فمن أين يأتى

أصحاب ذلك النمط العجيب بكل هذا الأمن والاطمئنان والجزم الراسخ أنهم بمنأى عن الفتن؟

وناهيك عما فى تلك الأقوال من كبر وافتئات على علم الله بمآلات ومصائر العباد، فإن تلك المقولات والأفكار تنافي الواقع والتاريخ، فهل هناك شخص أو مجموعة أو حتى أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن التغير والتحول والتبدل؟

الجواب لا.

كم من أناس كانوا على أعلى درجات التزكية، ثم نكسوا على رؤوسهم، وضلوا وأضلوا وفُتِنوا وفَتنوا غيرهم، وما «بلعام» الذي آتاه الله آياته لكنه أخلد إلى الأرض وانتكس، وبرصيصا الذي كان منقطعًا للعبادة ثم زنى وارتكس، وغيرهما مما ليس عن الأذهان ببعيد.

الجماعات البشرية والأمم نفسها تغيرت عقائدها وأفكارها مرارًا وليس مرة واحدة، خصوصًا بعد الأحداث الجسام والمنحنيات الحادة والمحاور المفصلية.

وهل كانت روسيا شيوعية قبل الثورة البلشفية؟ وهل كانت فرنسا علمانية تعلن شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس قبل الثورة الفرنسية؟

وهل كانت إيران دولة ثيوقراطية رافضية تُحكم من عتبات قُم والنجف قبل الثورة الخمينية؟

وهل مصر الخمسينيات والستينيات تشبه مصر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

بل هل مصر قبل الحقبة الفاطمية وحكم العبيديين الرافضة مثل مصر

بعدَها حتى بعد تطهيرها منهم على يد صلاح الدين؟

وهل كانت بدايات التصوف مثلا تحتوي ذلك الذي تشهده الموالد والحضرات اليوم؟

بل هل بداية أي فرقة أو جماعة كانت تحتوي على ما آل إليه حالها بعد مرور السنين والعقود؟

الجواب على كل ذلك معروف، والقاعدة معلومة ومطردة . .

الحي لا تؤمَن عليهِ الفتنة، والمآل والمصير ومكنون الصدور وما تحويه القلوب؛ كل ذلك غيب لا يعلمه إلا الله.

فلا أدري صدقًا من أين يأتي أخونا المغسل وضامن الجنة بهذه الأطنان من التزكية للنفس وللغير والتي يوزعها يمنة ويسرة ويكأنه يوزع من إرثٍ تركه له السيد الوالد.

أيها المزكي لنفسك ولغيرك هوِّنْ عليك، واعرف قدرك، فما نحن إلا عباد لله، لا نملك لأنفسنا شيئًا، ولولا أن يثبتنا الله ويتغمدنا برحمته ويكلؤنا بفضله ما زكى منا أحد أبدا، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.



امض ولا تلتفت

تلك الجملة التي قالها رسول الله ﷺ لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حينَ وجَّهَهُ إلى خَيبر لقتال اليهود قائلا: «امض ولا تلتفت»

للأسف عمَّمَ البعض تلك الجملة على حياتهم بشكل شبهِ كاملٍ حتى صارت شعارًا لهم في الحياة ونمطًا لشخصياتهم.

شخصيات بلغت درجة من الثقة بالنفس تشعرك كأنما يوحى إليها، أو أن ذلك الخيار الذي اختارت المضي فيه هو دائمًا الحق المبين المطلق الذي يستحيل أن يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه.

إنه نمط يصر دوما أن يوحي لمن حوله بأنه مشغول للغاية، فلا يمتلك أيَّ وقت للمراجعة أو النقاش، بحجة أنه لا ينبغي أن يلتفت، وأن الالتفات دائما تضييع للوقت.

لا بد أن يمضي ولا يلتفت، ويكأنه جعل نفسه مكان سيدنا علي بن أبي طالب حينما قال له النبي ﷺ هذه الكلمة، ونسي أو تناسى أن مساره الذي اختاره هو في النهاية مجرد رأيٍ، وليس وحيًا معصومًا كالذي يتكلم به النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليمات.

إن كنت من أهل ذلك النمط ونصحك إنسان أو حتى انتقدك؛ فلديك عدة خيارات للتعامل مع ذلك النقد وتلك النصيحة ..

أول هذه الخيارات هو (خيار لا تلتفت) العتيد . . .

خيار يتلخص في ألا تعبأ به، وتمضي في طريقك بحجة: «لا تلتفت» على أساس أنك (مش فاضي) لهذه الأمور المعطلة لمسيرتك التي هي (عندك) مقدسة!

الخيار الثاني هو (خيار كلهم كلاب)

وفي هذا الخيار لا بد أن تنظر إلى ناقدك أو ناصحك على أنه مجرد كلب يعوي، وبالتالي تنطبق في تلك الحالة أمثال من نوعية: «القافلة تسير والكلاب تعوي»، و«لا يضير السحاب نبح الكلاب»، و« لو أن كل كلب عوى ألقمته حجرًا لصار الصخر مثقالا بدينار»

إنه خيار سوء الظن بالناصح والناقد، فلا شك عند صاحب هذا الخيار أن ناقده حاقدٌ عليه، كارهٌ له، متربصٌ بأخطائه أو ربما هو منافق لا يريد له الخير، ولا يفكر إلا في فضحه وتعطيل مسيرته المباركة.

ببساطة، لتكون من أصحاب هذا النمط، اقنع نفسك أن مخالفك أو ناصحك كلبٌ ثم دعه ينبح!

الخيار الثالث هو (خيار مين ده أصلا؟!!)

إنه خيار الاحتقار والتسفيه المسبق والتجهيل الأصيل، وفي هذا الخيار عليك أن تعتبر ناقدك يقينًا مخطئًا، لا يمكن أبدًا أن يصيب نقده، فما هو إلا جاهل أو منحرف المنهج، لا يفقه تلك الرؤية الثاقبة التي لا يدركها إلا أمثالك من العباقرة . .

وهل يعقل أن يكون رأيك صوابًا يحتمل الخطأ؟!

هل يعقل أن تكون أنت المخطىء مثلا؟!!

حاشا وكلا . .

مش معقول طبعا . .

لا بد من تجهيز حملة تبريرات سريعة، ولا مانعَ من تشويه الناصح، والتقليب في تاريخ حياته، وتجهيز (باكدج) التهم المعلبة، ولا مانع من بيان ضمني لعصمة رأيِك ورأي من تتبع في مواجهة ضلالات أولئك المشككين الجهلة، الذين لم يهتدوا إلى الاقتناع بهذا الرأي الذي لا يأتيه الباطل أبدًا، والذي سيدركون عظمته بعد أن تثبت لهم الأيام صحتَهُ ورَوعتَه.

أما الخيار الرابع فهو نقيض كل ما سبق، خيار النظر إلى النقد بعين الجد، أن تنزل النصح والناصح منزلة معتبرة، وأن تجعل ولو احتمالا يسيرًا أنَّ ناصحَك ومنتقدك قد يكون على حق، ولعله يريد لك الخير ويتمنى لك الأفضل ويحب لك ما يحبه لنفسه، وأنه ربما لا يكون منافقًا متربصًا، ولا حاقدًا حاسدًا، ولا كلبًا نابحًا أو مشككا جاهلا.

أن تحاول أن تستفيد من نقده، أو على الأقل تحمله على أفضل وجوهه وهو النصح لله والرغبة في الإصلاح والدين النصيحة.

وأن تفترض أنك أحيانا تخطئ وتزل، ولا مانع أن تقف أحيانا مع نفسك لتراجعها، وتصحح مسارها ومسيرتها، تلك المسيرة التي هي ليست في الحقيقة معصومة ولا مقدسة، أن تعلم حقيقة أنه عليك أحيانا أن تلتفت!



المتزهد

وهذا النمط يفهم الزهد على أنه تكلف الفقر، وشظف العيش، ولزوم الخشن من الثياب، وتناول الرديءِ من الطعام، وترك التمتع بما أحل الله من الطيبات!

وهذا الظن يناقض حالَ سيد الزاهدين رسول الله صلى الله عليه وسلم،فهو لم يطلب الفقر أبدا ولم يسع إليه قط،بل الصحيح أنه كان يتعوذ منه مقرنًا ذلك بتعوذه من الكفر،فهل يتصور عاقل أن يتعوذ النبى صلى الله عليه وسلم من شيءٍ يتقرب به إلى الله؟!!

الجواب: لا

رسول الله ما طلب الفقر، ولكنه رضي وصبر حين ابتليَ به،ما سخط على نقص طعام وما ضايقته خشونة ثوب،وحين فتحت الدنيا وجاء المال أنفق نفقة الزاهد الذى لم تتسرب الدنيا إلى قلبه لحظة، حتى صاح من رأى عين الزهد فى تلك النفقة إن محمدًا ينفق نفقةَ مَن لا يخشى الفقر أبدا!

هذه هى حقيقة الزهد،تقبل الدنيا أو تدبر،يُعطى المرء أو يُمنع، كل ذلك عنده سواء، لا تتسرب الدنيا إلى صدره فيفرح بإقبالها، ولا تتمكن من نفسه فيحزن لإدبارها، فإرادتها لم تسكن روحه، ولا لامست شغاف قلبه،

وبهذا المعيار قد تجده أكثر الناس مالًا وولدًا بينما قلبه مفعم بالزهد، مستعد للبذل، مائل للعطاء.

وعلى النقيض قد تراهُ أقلَّ الناس مالا وأشدهم فقرًا وأغلظهم عيشًا ومع ذلك يمزق الطمع نياط قلبه، وتمزق الشهوات نفسه، فهو على فقرة وشظف عيشه أبعد ما يكون عن الزهد!

فالقضية يا صديقي المتزهد ليست في ما معك أو ليس معك، القضية ها هنا بمرادك وسعيك ومبتغاك ومنتهى أملك،فتلَمَّسْ حال قلبك،وتذكر أن المذموم من أمر الدنيا في كتاب الله هو إرادتها ورجاؤها والرضا بها.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

تأمل ..

يريد الحياة الدنيا، يريد العاجلة، رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها

تأمل تلك الأفعال جيدًا، وسل نفسك، أين أصلها ومحلها، تعرف ما هو الزهد حقا!

المتمسكن

ومن الأنماط العجيبة نمط أولئك المتمسكنين، منكوسي الرؤوس، متهدلي المناكب .

هذا النمط يظن أن من علاماتِ الالتزام والتدين أن ينكِّس المرء رأسه ويهدل كتفيه ويسير كسيرًا بين الناس، يقبل الإهانة، ويرضى بالمذلة، ويألف الضيم، ويظن أنه بذلك مخبت متواضع، وأن هذه هي علامات الخشوع لله، وما هذا بالتزام ولا علاقة له بتدين!

إن هذا الدين مصدر عزة وشرف فى غير مخيلة ولا كبرٍ، وهو لا يأمر أتباعه بهوان أو مسكنة وانكسار لغيره

أما الذلة على المؤمنين وخفض الجناح لهم فذلك يعني التواضع ولين الجانب وليس المهانة والامتهان!

ولقد رأى الفاروق عمر رضي الله عنه رجلا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

ولقد ذكر الإمام بن القيم أن أحد السلف رأى رجلا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع ها هنا، وأشار إلى صدره، لا ها هنا، وأشار إلى منكبيه .

ورأت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها شبابًا يمشون ويتمارون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقا.

إن المسلم الحق لا ينحني إلا لمولاه، ولا ينكسر إلا بين يديه، ولا يتمسكن إلا إليه

لا يرضى الدنية فى دينه ولا يقبل أن تهان كرامته التى كرمه بها ربه

فهو شريف كريم النفس، عزيز مستغن عن الناس يكون بينهم كأنه شامة كما أوصاه قدوته وإمامه صلى الله عليه وسلم.

لكنه فى الوقت نفسه مفتقر ذليل كسير مخبت خاشع بين يدي مولاه وسيده جل وعلا وهو هيِّنٌ ليِّنٌ في يد إخوانه غير مستعل ولا مستكبر عليهم،ذلك هو التوازن الصحيح وليس تكلف الخشوع والمسكنة في غير مواضعها.

فارفع رأسك يا أخي، ولا تحنِ جبهتك إلا لمولاك، واعلم أن الخشوع في القلوب وليس في الرقاب ودع عنك التكلف، فقدوتك وإمامك هو صاحب شعار وقيمة ومبدأ ﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.



العبوس المكفهر

حالة من الكآبة والتجهم صارت ملحوظة في مجتمعاتنا بشكل واضح، كمية من النكد و(التكشير) صارت تطفو على المشهد، وبدأ كثير من الناس يركنون إليها، وتصير نمطًا ظاهرًا في حياتهم بدعوى تثاقل الهموم وتعقد المشاكل التي نمر بها على مختلف الأصعدة سواء كانت شخصية أو عامة.

والحقيقة أن الأمور معقدةٌ بالفعل، والمشاكل لا يمكن إنكارها، وأعباء الحياة فعلا قاسية، لكن هل هذا مبرر كافٍ لدوام التجهم والعبوس والإغراق في النكد والهموم؟

هل الحل هو التلبس بنمط الشخصية (المكشرة) مكفهرة الوجه عابسة المحيا مقطبة الجبين؟

وهل الاستسلام لتلك المشاعر وإظهارها بشكل دائم سيؤدي إلى تغيير أو إصلاح؟

أعتقد أن تلك الأسئلة يحتاج كثير من (المكشرين) إلى طرحها على أنفسهم

على صعيد آخر يظن البعض أن المهابةَ تكمنُ في العُبوس، ويعتقدون أن الوقارَ يظهر في كمِّ التجاعيد التي ستظهرُ على جبينه كلما قطبه أكثر وأكثر، ويتصورون أن الحشمةَ والمكانة إنما تنال بكآبة السمت وصرامة الوجه التي

تبعث برسالة حازمة إلى من يتعاملون معهم مفادها: خد بالك واعمل حسابك، نحن أناس مهمومون ومنشغلون بعظائم الأمور، والويل الويل لمن تجرأ على المزاح معنا، أو فكر مجرد تفكير أن يخفف من توتر سمتنا وعبوس وجوهنا.

وهم واهمون في ظنهم هذا، فلا المكانة تُنال بالعبوس، ولا التكشير دليل الجدية والوقار

ولا التجهم يفرج الهموم أو يحل المشكلات، لقد كان النبي محمد ﷺ أكثر الناس وقارا وأعظمهم مهابة، وكان من شدة مهابته لا يستطيع أصحابه أن يُحدُّوا النظر إليه طويلًا.

لكنه رغم تلك المهابة والوقار كان بشوشًا، طلِقَ الوجه، وكان يأمر بذلك ويستحبه، وكان ينهى عن احتقار المعروف، ولو كان هذا المعروف طلاقة وجهك حين يقابل المرء أخاه، وكان يحض على التبسم ويبينُ مثوبتَه، وأن البسمةَ في دينِ الإسلام تُعدُّ صدقة وطاعة وقربى.

لقد كان يتبسم، كان يتبسم كما تبسم مَن قَبله مِن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم حتى أن القرآن ذكر شيئًا من تبسمهم كما في قوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

تبسم نبي الله سليمان عليه السلام، وتبسم نبينا عليه الصلاة والسلام، رغم الهموم والآلام والأحزان تبسم.. رغم الانشغالات والمسؤوليات والمهام

الجسام تبسم . . رغم التعقيدات والمؤامرات والصراعات التي كان يواجهها فإنه ظل حتى النهاية يتبسم!

إنه من أوذي في الله حين لم يؤذَ أحد، وأُخيف في الله حين لم يخف أحد، وهو مَن في حياته مات جُلُّ أبنائه وبناته، ورحلت عن الدنيا أحب زوجاته، وكان يمر به البلاءُ تلو البلاءِ والمسؤوليات الجسام ورغم كل ذلك كان يتبسم!

وكان يمزح ولا يحدِّثُ إلا صدقا، وكان يلاعب أطفاله وأطفال غيره، وكان يسابق زوجه ويلاطفها،

وكان يمازح الفقراء والبسطاء من أصحابه ويتبسط إليهم، وكانوا يتضاحكون بعد صلاة الصبح وهو جالس بينهم يتبسم، بل وقد رويت عنه حديث (متسلسل بالابتسام) من تمام روايته أن تبتسم لأن النبي ﷺ حين قاله . . تبسم

كل ذلك وغيره مما لا يتسع المقال لذكره من مواطن تلطفه ومزاحه وتبسمه لم ينل من هيبته ﷺ، ولم يسبب تقصيرا في مسؤولياته أو واجباته، ولم يضاعف مشكلاته أو يعقد من همومه وابتلاءاته.

فقل لي بربك أيها العبوس (المكشر) هل أنت أفضل منه أو أعظم هيبة؟

هل همومك أكثر؟

هل مسؤولياتك أضخم؟

هل آلامك وبلاؤك أشد من بلائه؟

وهل تظن أنك بعبوسك تنال وقارًا لم ينله؟

أم أنك يا عزيزي تخشى على وجهك إن تبسمت أن يتشقق؟

صدقني لن يتشقق

بل سيشرق ويضيء ولن ينفر غيرك بل سيبشر ويستبشر به من حولك

فيا صديقي تبسم

فمن هو خير مني ومنك

تبسم . .



ضِبَاع

ذلك المخلوق الذي لا يجرؤ على مواجهة القوي، ولا ينهش إلا فريسة ضعيفة أو جثة هامدة،

حيوان جبان يتقزز من رؤيته كثير من الناس، رغم أن من البشر من هم أدنى طباعًا وأشد خسة وحقارة.

لم أجد تشبيهًا أخف من هذا لأصف به هذا النمط الإجرامي الذي لا يأتي إلا الضعيف العاجز، ولا ينهش إلا المظلوم المُبتلى، ويستغل كل فرصة للشماتة وإظهار التشفي في مخالفيه أو من يراهم مخطئين لمجرد أن يثبت أنه كان على حق

و حتى إن كان يوقن أن خطأهم لا يوازي أبدا ذلك البغي الذي يصيبهم ولا يبرر ذلك الظلم الفاحش والبطش المبين الذي يسلط عليهم فإن كل ذلك لا يمثل له شيئا إلى جوار ما يراه تقصيرا أو خللا يوما ما كان قد اعتراهم

ولست أعني بهذا النمط أولئك الحريصين على النصح الصادق والنقد البناء الذي هو حتى وإن كانت له ضوابط ومحددات وأساليب إلا أن صدقه يظهر ورغبته الإصلاحية تستبان وما أبعد ذلك عن تلك الطباع الخسيسة التي تتساقط بحقارة من أفواه وأقلام أصحاب ذلك النمط الذي أقصده والذي لا يعنيه إلا التشفي والرغبة في الانتقام الأيديولوجي ولا يخفي تلك الشهوة

المقززة التي يهمه قضاء وطرها بأي وسيلة وتحت أي ظروف وملابسات وبأي يد أو سوط حتى لو كان سوط البغي ويد الطغيان

ما أشبه هؤلاء بتلك الضباع التي لا تقرب إلا الكسير لتنقض عليه وتفترسه، ولا تأتي إلا الميتة فتنهشها، بينما تراها أجبن الخلق في مواجهة صاحب البأس الذي ما إن يحمِّر لها العينين ويزمجر لها بالوعيد حتى تخنس وتنزوي مرمقة إياه من بعيد

ليس عن الخوف أتحدث ولكن عن الخسة عافانا الله منها ومن أهلها

ومثل هذا النمط مشكلته أعمق بكثير من أن تحلها مقالة، فهي في حقيقتها مشكلة تربية ونشأة وبيئة فاسدة ترعرع فيها، وجعلت أخلاقه بهذا التدني المذهل، وهو بحاجة إلى إعادة تربية من جديد ومن الجذور، وذلك بعد الدعاء أن يرفع الله عن قلبه وأخلاقه ذلكم السواد المعتم إن شاء، أو أن يكف شره وتدني سعيه عن عباده ويخلص منه العباد والبلاد



مناضلون تحت الأضواء

إنها صفة تتكرر كثيرًا ويُراد بها تلميع أو تزيين أشخاص تعود الناس على توزيع الألقاب عليهم مجانا وببساطة وجرأة منقطعة النظير، يعطي بها من لا يملك ما لا يملك لمن لا يستحق!

النضال والمناضلون

كلمات هانت ورخصت كثيرًا بعد أن صار الاستسهال في منحها لكل من هبّ ودب على أشده، بينما يظل المناضلون الحقيقيون في الظلِّ، لا يعرفهم الناس ولا يعلمون عنهم شيئًا، وهذا في الحقيقة لا يضيرهم، فيكفيهم أن يعرفهم ربهم.

والحقيقة أن النضال قيمةٌ أسمى بمراحل، ومعنىً أعمق بكثير مما يروجه البعض، ويوزعون صكوكه كأنما يوزعون من مال آبائهم.

إن المناضل الحقيقيَّ هو ذلك البطل الذي لم يرهبْهُ القمع، ولم يخوفه الظلمُ، ولم يثنِهِ التلفيق والبغي عن الصدعِ بكلمة الحق في كل وقت وتحت أيِّ ظروف ومهما كانت التضحيات!

المناضل الحق هو ذاك المجهول الصامد في دياجير البطش، الثابت على مواقفه المشرفة ومبادئه الراسخة، لم يغير ولم يبدل في زمان التلون والخداع والتراقص على جثث الثوابت والقيم.

المناضل الحق هو ذلك المنصف في زمان التعصب، الحريص على حقوق الناس حتى وإن خالفوه، المنتصر للضعيف والمضطهد ولو كان على غير توجهه، فهو باحثٌ عن الحق والعدل يدور معهما حَيثما دارا.

المناضل الحق هو ذاك الصنديد الأبيُّ الذي رفض الركوعَ إلا لله، وبصق الذل الذي يصرُّ البعض على سقياه، وأنِفَت نفسُه من تجرع مرارة الهوان وانحناء الجباه.

المناضل الحق هو ذلك المتولي إلى الظل حين المغنم، المتقدم تحت حمأة القيظ حين المغرم، تراه حيث انتهى به المجلس حين يتطاول الناس بأعناقهم ابتغاء التهليل والثناء والمثوبة، بينما تجده في الصفوف الأولى رافعًا رأسًا كريمًا وسط رؤوس أخضعها دويُّ البطش وعموم القمع وقرع العصا.

المناضل هو أحد صقور الخلق عزيزي النفس، مستقلّي الرأي ممن لا يطيقهم المستبدون، وفي وجودهم لا يستريحون، ومع إيجابيتهم لا يتعايشون، حتى لو كانوا على الفكر والنهج نفسه، فإما أن يهمشوهم ويقصوهم، وإما أن يشوِّهوهم وبكل بهتان يرموهم، أو حتى ينفوهم ويفنوهم، فلا يبقى حولهم إلا دنيء نفسٍ من أراذل الخلق أو حمائم الناس سهلي المعشر والانقياد ممن قد تسبق أسماءهم الألقاب العريضة، وتملأ سيرهم الذاتية الشهادات والدرجات الفخيمة، لكنهم يشتركون جميعا في صفات الذلة والانقياد، والانبهار الدائم بسيدهم، والتعايش مع كونهم مجرد صدى لأفكاره أو امتدادًا لرغباته وطموحاته.

المناضل الحق هو ذلك الواعي المدرك لقضايا أمته المعني بشئونها، والذي لا تدفعه المشاعر والعواطف فحسب، ولكنه يعقل ويعلم ويفهم ويزن

الأمور بميزان دقيق، غايته الحق ووسيلته كذلك لا بد أن تكون بالحق.

المناضل هو ذلك التقيُّ الخفيُّ الذي ربما لا ترى سمته، أو تميز صوته، ولكنك تعرف أثره وتشعر ببذله وتلمح ثمار نضاله في كرامة وعزة ترفرف حوله، ما كانت لتنطلق في الآفاق لولا أن حررها وأمثاله من قيود الخوف وآصار الذلة والانبطاح.

المناضل الحق هو ذلك الذي زهد فيما عند الناس، واختار ما عند الله، فاستوى عنده نعيم الدنيا ببلائها، ولم يخش في الله لومة لائم، أو قيد سجَّان، أو بطش مستبد وطغيان.

هذا هو النضال الحق والفارق بين مَن يتخذون النضال مهنة لا يريدون منها إلا المغانم وليسوا على استعداد لتحمُّل التكاليف والمغارم، وبين أصحاب الرسالة والقضية ممن يخاطرون بالغالي والنفيس، والذين هم على استعداد للتضحية بكل ما يملكون في سبيل ما هم به يؤمنون.

هذا هو المناضل الذي أعرفه، والذي لا أريد أن أعرف غيره من مناضلي المكاتب الفاخرة والأضواء الباهرة والأرائك الوثيرة والميكروفونات اللامعة، من الذين يهوى سلاطين الجور وضعهم على يسار عروشهم الزائلة لإكمال المنظر وتزيين الصورة الزائفة بهؤلاء المناضلين المنعمين الآكلين فتات موائد المستبدين بالشوكة والسكين، والاسم في النهاية .. مناضلين!



مبرراتي

وصديقنا المبرراتى موجود دائمًا داخل كل جماعة بشرية وحزب سياسي وتيار اجتماعي، بل حتى يوجد خارجه كل ذلك فيما يعرف بالمستقلين.

وهو نمط ما إن يصبح على انتقاد وُجِّهَ إلى حزبه أو جماعته أو أحد أحبابه وأشباهه أو يمسي على سقطة صدرت عنهم، أو عن أحد قياداتهم، أو أتباعهم، حتى يقدح فورًا زناد فكره، ويعتصر ذهنه ليخرج المبررات المنطقية واللامنطقية التى تبرر لهذا الفعل أو لتلك السقطة، ثم لا يلبث إلا وينبري مسرعا ليدافع عن متبوعه أو زميله أو تياره فى استماتة عجيبة.

إنه نمط صار التبرير سبيله، ومنهجه؛ والمعاذير طريقه ومذهبه؛ فاستحق عن جدارة لقب «المبرراتي».

وكثيرًا ما يتحول صاحبنا إلي نمط آخر، يعتبر فى تقديرى التطور الطبيعي للنمط الأول، إنه يتحول دون أن يشعر إلى مطبلاتي مهمته المقدسة أن ينزِّهَ متبوعيه عن كل نقص، أو عيب؛ ويجعل لهم كل منقبة وفضل، ويكأنهم عن كل عيب منزهون، ومن كل نقص مبرؤون، بل كأنهم فى نظره أنبياء مَعصومون!

وأحيانا تكون المبررات مقنعة، بل كثيرًا ما تدخل في حيز الأعذار التي أمرنا ديننا الحنيف أن نبذل الجهد في التماسها لإخواننا، لكن ما يدعو إلى

الضيق أن أخانا «المبرراتي» لا يعدل في ذلك، ولا يبذل وسعه في التماس الأعذار إلا لمتبوعيه، بل المدهش فى الأمر أنه غالبا ما يغير نمطه فورًا حينما يتعلق الأمر بمنافس، أو خصم؛ فيتحول مباشرة إلى متربصاتي، ينتظر الشاردة والواردة تصدر من خصمه، ليملأ الدنيا بنقده اللاذع له رافضًا كل تبرير أو عذرٍ من الخصم.

والحقيقة التى ينبغى أن تترسخ فى أذهان الجميع أنه ليس لكل شيء تبريرٌ، ومن ظن ذلك فإنه سيقع لا محالة في فخ التكلف، ويكون مثله كمثل الذين تخلفوا يوم تبوك، وجاءوا إلى النبى بأعذار واهية لم تنجهم من ذلك اللقب الذي لقبهم به رب العالمين، وأراه الاصطلاح الشرعى المعبر عن حال المبررين . .

لقب «المعذِّرين» فى قوله تعالى ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

أولئك الذين امتلأت سورة التوبة بذكر حججهم المتكلفة ووعيد الله لهم، لم ينج من كل ذلك إلا الثلاثة الذين لم يبرروا، ولم يسوقوا المعاذير الواهية رغم أن منهم اللسن والشاعر وصاحب الحجة القادر على نحت المعاذير المقنعة، وكاد بالفعل يستدرج إليها لولا أن تدارك الأمر، وفهم أنه لا يشترط أن يكون لكل شيء مبرر، أو عذر؛ وأن الأخطاء لا تبرر؛ فقط يُعترف بها، ويُعتذر عنها

ففعلوا . .

لقد اعترفوا بالخطأ ولم يبرروا، فكان صدقهم واعترافهم سببًا في توبة الله عليهم.

لذلك فأنا أُوجه كلماتي إلى صديقي «المبرراتي».

وأقول له: ثقتك في متبوعك، وحبك له، وتوقيرك إياه لا يعنى أبدًا أن كل ما يفعله مُبَرر، وأن واجبَك المقدس أن تبحث له عن تلك المبررات.

من حقك أن تلتمس العذر كما ورد عن النبى لكن أحيانا يكون العذر أنه فقط ... بشر.

وأن البشر يخطئون، ويزلون، ويتأولون، بل ويعصون.

وتلك يا عزيزى أمور لا تستوجب تبريرًا، إنما هى ببساطة أمور تستوجب اعترافا وتوبة واعتذارًا

وحسب ...



مزايداتي

هل جربت يوما أن تُتهم بما لم تفعل، أو تدفع عن نفسك أخطاءً ارتكبها غيرك؟!

هل خُضت من قبل حوارًا حوَّلَه محاورُك إلى تحقيقٍ نازى، تقمص فيه ببراعةٍ شخصيةَ وكيل النيابة؟

إن كنت قد فعلت فأنت ممن التقوا بصاحبنا الـ «مزايداتى».

و«المزايداتى» شخص لا يتردد لحظة فى اتهام مخالفه اتهامًا مباشرًا وسريعًا، بكل نقيصة!!

سواءً كان يعرف مخالفه، أو لم يسمع به من قبل، يكفيه أن يقيّمه من خلال سمته أو مظهره أو انتمائه الفكرى، ليتحمل كل ما اقترفه أشباهه منذ فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا!!

وهو شخص لا يهتم كثيرًا بأمور يعتبرها البعض موضوعية، فهى فى نظره مجرد خرافات؛ أمور كالإنصاف والتثبت والتبين وإنزال الخلق منازلهم، المهم فقط بالنسبة له أن يمارس هوايته، التى صارت فيما بعد حرفته . . .

المزايدة!

إن كان جديدًا فى الـ«كار» فسيغلف مزايداته بصيغة السؤال والاستفهام،

وسيتقمص دور المحقق عند أول خلاف فى الرأي بوضع قائمة أسئلته المملة من نوعية:

أين كنتم يوم كذا؟

وماذا فعلتم فى شأن كذا؟

ولماذا لم نسمع لكم صوتًا فى الموقف الفلانى؟

ولماذا لم تنتقدوا الواقعة الفلانية؟

وماذا قدمتم للقضية الترتانية؟

وهكذا دواليك . .

ثم لا يلبث أن يُتْبع قائمة السؤالات التى يحسبها عسيرة، بقائمة اتهامات جزافية يجيب بها تلك الأسئلة، أو يتطوع لإجابتها مزايداتى منافسٌ يتبرع بحسم التحقيق، وتعيين نفسه قاضيًا وربما جلادًا إن استطاع إلى ذلك سبيلًا.

غالبا ما تكون تلك الأسئلة أو الاتهامات بصيغة الجمع المريحة، فهيَ أسهلُ الصيغ، وتوفر على الأخ «المزايداتى» مجهودًا كبيرًا فى البحث والتحري عمَّن يُزايد عليه وتاريخه ومواقفه، يكفيه فقط أنك تشبه فلان الذى فعل، وعِلان الذى سوى، وبالتالى فأنت مسؤولٌ عن كل خياراتهم بحكم القرابة الأيديولوجية والشبه الظاهري.

الطريف أن الأخ «المزايداتى» ربما لا يعرف عنك إلا شكلك، وربما يفاجأ أن أغلبَ أسئلته إجابتُها تنجيك من سيفِ اتهاماته ومقصلة مزايداته، لكنَّ المشكلة تكمن فى المبدأ نفسه.

إن مجرد قبولك لفكرة المزايدة المستمرة على مواقفك، والمحاسبة الدائمة على تاريخ حياتك، تجعلك تَرضى من حيث لا تدري بالوقوفِ فى قفص الاتهام، وفى موضع الدفاع عن النفس، وهو مكان لم يكلِّفك شرعٌ ولا منطق أن تقف فيه، فلست متهمًا أصلًا، وإن افترضنا -جدلا- أنك كذلك فالبينة على من ادَّعى، والمتهم بريء حتى تثبتَ إدانتُه، لكن هذا طبعًا فى عرف البشر الطبيعيين فقط.

أما «المزايداتى» فهو رجل يزر الوازرة وزر الأخرى، ولا يرتاح إلا بإدانتك، وإن استطعت مرةً تبرأة نفسك أمام مزايد، فسيسارع عشرات الزملاء من أبناء «الكار» نفسه ليدينوك بمواقِفَ لم تفعلها، ولا يُتصور أنك ستسير يوما حاملًا سيرتك الذاتية على صدرِك.

فإن قبلتَ أن تقف فى ذلك الموقف، فإن ذلك غالبًا سيؤدي للأسف الشديد إلى أن تعمل ألف حساب دائما لأهل تلك الهواية أو المهنة، ومن ثم ستضعهم فى اعتبارك قبل اتخاذ أيِّ موقف مفترض أنك تدين به لربك، فإما أن تتردَّدَ فى اتخاذ موقفٍ أو رأيٍ، وربما لا تتخذه أصلا، وإما أن تحرصَ على إرضائهم بموافقتِهم على طول الخط درءًا لشرِّهم، وإما أن تغلق فمَك تماما، وحينئذ تكون من حيث لا تدري حقَّقتَ مبتغاهم، وباركتَ مسعاهم فكبَتَّ رأيَك، وكمَّمْتَ فمَك، وأخرَسْتَ لسانك، وقصفت قلمَك بنفسك.

الحل يا صديقى ألا تشغل نفسك بأصحاب تلك الهواية، وألا تلتفت لمزايداتهم، وألا تستسلم لتحقيقاتهم، فإن كنت يوما ما قد صدعت برأي، أو اتخذت موقفًا على أساسٍ من الموضوعية والصدق مع النفس، فلا يضيرك من خالفك، ولا ينفعك من وافقك، أما هؤلاء فلا تعرهم اهتمامًا، فإن

إرضاءهم ليس غاية ولا هو يدرك، وهم إنما يخفون ضعفهم بالنيلِ من صاحب الفكرة بدلًا من مناقشتها، ولو كانوا أقوياء حقًا لانشغلوا بالكلمة عن المتكلم، وبالحجة عن المحاجج، فدعك منهم، وانشغل فقط بمن إرضاؤه غاية وتدرك.

إن الحقَّ حقٌ بذاته وليس تبعا لحامله، ولن يغير كونه حقا تشويه مصدره، أو تعميم أفعال غيره عليه.

الكل يعلم ذلك ويدركه ما عدا أصحابنا هؤلاء، فإن المزايدة هوايتهم، والتعميم سبيلهم، والتشويه حرفتهم، وتحطيم نفوس المخالفين أسمى أمانيهم، لذلك استحقَّ أفرادُهم هذا اللقب الذى أهديهم إياه . .

لقب المزايداتي



مسخناتي

وسلوك هذا النمط يشبه جدًّا سلوكَ المعلق الكروي الذي تعد مهمته الرئيسيَّة التقاط كلِّ شاردة وواردةٍ في مباراة كرة القدم ليعلق عليها ويصنع من حبتها قبة.

باختصار يسخن المباراة ويجعلها مثيرة، حتى لو لم تكن كذلك!

وكلما ازدادت درجة استِثارة المعلق الكرويّ وحِدّة حماسَته التي تحول تمريرةً عاديةً أو فرصة ضائعةً إلى صراخٍ يملأ الشاشات ويلهب مشاعر الجماهير؛ كلما علا ثمنُه وتقدم موقعُه بين معشر المعلّقين وتعالى الطلبُ عليه، ذلك لأن الجميع يعلمون في قرارة أنفسهم أن الجزءَ الأكبرَ من الاستمتاع بالمباراة إنما هو من خلال حماسةِ المعلق، وفي خلفيتها صيحات تتعالى من المدرجات، وأنه إذا خُفض صوتُ التلفاز وتابع المباراةَ صامتةً فإن أثرها ولذتَها في نفسه ستتناقصُ جدا

الحقيقة أن جزءًا كبير من صخب المباراة وحماستها بسببِ حماسةِ المعلّق وإثارته لمشاعر المشاهدين جنبًا إلى جنبٍ مع صوت هتافاتِ الجماهير التي تشتعل بها المدرجات.

جرب أن تخفض صوت التلفاز وتشاهد المباراة بدون هذه الضوضاء المصاحبة، بدون حماسة معلق يصنع من كل حبة قبة ومن كل تمريرة بلهاء

فرصة ضائعة هائلة، بدون صياح وصراخ جماهير متحمسة أو غاضبة أو معجبة أو متعصبة، جرب أن تتأمل الصورة بدون مؤثرات . .

حينئذ -وبخلاف فقدان جزء كبير من متعة المشاهدة- فصدقني ستلحظُ أشياءَ مختلفة، وسترى حقيقةَ المباراة بشكل أوضح!

فقط امنح نفسَك الفرصة للتأمل، بدون صخب المؤثرات والمؤثرين، وفي النهاية ستنتهي المباراة، وستهدأ حماسة الجماهير، ولن يتبقى في الأذهان شيء من حماسة المعلق وثنائه على كل تسديدةٍ، أو صياحه الصاخب مع كل تمريرة . .

لن يتبقّى في الأذهان إلا هدفٌ جميل أحرزه لاعبٌ (حريف)، أو نتيجة حاسمة جاءت ببطولة كبرى إلى الفريق الفائز.

هذا في دنيا الكرة، وفي الواقع أيضا!

كم من مقالات كُتبت! وكم من تصريحات أطلقت! وكم من كلمات اشتُهرت وملأت الدنيا ضجيجًا وعراكا على إثرها، ثم هدأت الأمور ونسي الخلق ما حدث ومرّت العاصفة إلى حين تتفجر بعدها من جديد، ويقع الناس معها في نفس الصياح والصخب، وتتكرر الضوضاء التي كانت في العاصفة السابقة . .

الضّوضاء التي يتسبب في قدر كبير منها نمطان، نمطٌ تكلمْتُ عنه في فصل سابق هو نمط الأولتراس، ثم نمط هذا الفصل وهو الأخ المعلق أو المسخناتي . .

ولهذا الأخير أقول:

يا عزيزي-على فكرة- ليس فرضا عليك في كل قضية أو أزمة أن تدلي

بدلوِك المثير ورأيك المشتعل بالحماسة

ليس شرطا أن تكون علّامة الزمان، وفهامة المكان، اللي عارف إجابات كل الأسئلة وتملك الحل لكل المشاكل!

لست مكلفًا بأن يكون لك رأي في كل نازلة

وليس عيبًا أبدا أن تقول أحيانًا: لا أدري . . . ما أعرفش

وليس عيبًا أيضا أن تعترف أحيانا أن الموضوع أكبر منك

وليس عيبا كذلك أن تنأى بنفسك عن التردي لدركات صراعات لا تخلو من حظوظ نفسٍ وعُقد نفسية

العيب أن تتشبع بما لم تعطه، العيب أن تصر على الكلام فيما لا تحسن، العيب أن تتحمل مسؤولية شيء لست أهلا له وأن تتصدر في مكان ليس مكانك، والعيب الأشد أن تصر على فعل كل ما سبق بروح المعلق الكروي المتحمس لكل شاردة وواردة!

يا عزيزي أقول لك كما قلت لصاحبك الألتراس

الحياة ليست هكذا، الحياة ليست مباراة كرة قدم!



مطبلاتي

نمطٌ لا يخلو منه قصرٌ أو بلاط، ولا يفتقده إعلام أو جوقة سلطان . .

إنهم المنتفعون المهللون، والذين هم لكل قرار يطبلون، وبكل جائرٍ يفرحون، ولكل ظلم وبطش وامتهان وانتهاك هم مؤيدون مبررون.

ودائما سيجد الإعلام الموجه من يستضيفهم أو يتصل بهم من هذه الطائفة ليثنوا على الأحكام والقرارات الصائبة دائما، والتي هي عند تلك الطائفة قرارات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها

وستجد لكل عهد سدنة وحملة مباخر مهمتهم الأساسية تسويغ وشرعنة كل شيء وأي شيء، حتى لو فاحت ريحُه الخبيثة، وأبصر عواره كل ضعيف البصر

عند هذا النمط أحلام الساسة والقدة والزعماء . . أوامر، وتوجيهات حضراتهم . . نورٌ يضيءُ لهم الدربَ، ونزوات عظمتهم وفخامتهم قمةُ الحكمة والسداد والرشاد!

هذا الصنف دوما كان وسيظل موجودًا في كل عهد ومن كل فئة وبين كلِّ طائفة

ستجده أحيانا وقد ارتدى حلة نخبوية فاخرة، وأحيانا عمامة دينية وقورة، وستجد اللحية الكثة تزين وجهه تارة، بينما تختفي ملامحه خلف

دخان السيجار الكوبي أو تغيب (ملامحها) خلف أطنان الأصباغ تارة أخرى

تتعدد الأقنعة ويظل التزلف والنفاق والمداهنة والتهليل هو شعار تلك الفئة مهما اختلفت أشكالها وتنوعت ألقابها

وسيظل الوصف الذي يجمعهم، واللقب الذي يلتقون عليه ويعرفون به في كل زمان ومكان هو ببساطة لقب . . المطبلاتية

مطبلاتية السلاطين

كلّ السلاطين



أنا أشكُّ إذا فأنا ... شكاك

إنه نمطٌ من البشر يتبنى نظرية الشك ويعتقد أنه ما دام يشك إذن فهو موجو.

لست أتحدثُ هنا عن الشك العقدي، فلهذا مجال آخر وكتب أخرى، لكنني هنا أناقش فكرة التشكك في الواقع المحيط والتشكيك في معطياته ووقائعه وشواهده الظاهرة.

هذا النمط لا يثق بأيةِ معلومة مهما كانت درجة توثيقها وأمانة ناقلها، تخبره عن انتهاكات يقول لك (إيش عرفك إنها حصلت؟)، تحدثه عن وقائع يرد (وما أدراك أنها حقيقية؟)، تكلمه عن مواقف جليّة ظاهرة ومعلنة يجيبك بأنك لا تعلَمُ بواطنَ الأمور وملابسات تلك المواقف؟

حتى لو كان شيئا عاينْتَه بنفسك، وسمعَتْه أذناك، فسيريد ذلك النمط منك تكذيب سمعك وبصرك لأنهما أكيد قد اختلطا عليك!

المهم في النهاية أن تشك، لا مانع أبدًا من تمحيص كلِّ معلومة، والتثبت من كل خبر أو موقف،

لكن ثمة فارق بين الثبتِ والتشكُّك

والإيهامُ بوجودِ اختلاطٍ، أو التشكيك في الحقائق، وبث فكرة أن الأمر دائما محتمل ويقبل الأخذ والردّ، أحد أهم الحيل النفسية للهروب من ضغط

الواقع ولتبرير عدم اتخاذ مواقف واضحة تجاهه ولتوهين تلك المواقف في نفوس الناس مما يؤدي إلى إضعاف إحكام الحق وتوهين الفارق بينه وبين الباطل في أنظار الناس مما يحدث تمويها أو طمسًا للحدِّ الفاصلِ بين الصواب والخطأ

هنا يختفي التمايز، وتذوب الفوارقُ بين الخطأ والصواب، ويندثر النكير، وتهون المواقف، ويصير الحق باهتًا في نظر ذلك النمط المتشكك، وبالتالي يرتاح . .

نعم يرتاحُ من حمل اتخاذ موقف، أو مسؤولية الصدع بحق، فقد نجحَ في إقناع نفسه أنه لا حق ولا باطل، فقط . . . الشك والتشكك والتشكيك.

ولهذا النمط أقولُ ليسَ عيبًا أن تتثبت وتتبين أو تبحث عن الموثق من الكلام، وألا تقبل كل ما تسمع، لكن العيب أن تركنَ إلى الحل السهل، وأن تقنع نفسك أن الحق قد اختفى.

الحق يا عزيزي راسخ ماكثٌ في الأرض، وليس كالزبد الذي مهما ربا وانتفش فهو إلى جفاء، ومهمتك يا صديقي المتشكك أن تحاول إزاحة طبقات الزبد لتصل إلى الحق، واعلم أن الصادق في البحث سيصل ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾

تأمل . . حَتَّى يُبَيِّنَ، اُصدق الله في البحث وبإذنه ستُهدى إليه، ولا تركن لذلك الحل المريح، حل الشك!



محتمل

ونمط المحتمل يعد قريبًا من النمط السابق الشكّاك المتشكك، لكن هذا الشخص المحتمل لا يشكك، بل هو دائما يهوّن الأمور، ويتكلف الإيهام بوجود خلاف، أو تكلف تسويغه، وبث فكرة أن الأمر دائما محتمل وغير واضح أو محكم، وأن كل طرفٍ معه أدلة وحجج وبالتالي هم سواء في النهاية.

والحقيقة أن هذه الطريقة من أهم وسائل مروجي الباطل ومسوغيه والراضين به لتوهين ذلك الباطل في نفوس الناس، وإضعاف إحكام الحقِّ في صدور أهله، وتمويه أو طمس الحد الفاصل بين الصواب والخطأ، ولهم في ذلك حيل ومسالك، ولتعرفنهم في لحن القول.

ولا شك أنه ليس من باطل على الأرض إلا ولدعاته حجج وعلل بها يتبعُهم الخلق، ومن خلالها يقتنعون بأنهم على حق: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

فليست العبرة في مجرد وجود الحجج والأدلة التي يستشهد بها المبطلون على زيفهم ويخدعون بها الناس ولكن العبرة في حجيتها وصحة توظيفها وموافقتها لكليات ومقاصد الشرع المنزل وإن أخوف ما خافه النبي ﷺ على أمته قوما سمى لهم إمامة لكنها إمامة ضلال «أخوف ما أخاف

على أمتي الأئمة المضلون».

ولقد أقر لهم النبيُّ بعلم لسان وجدال بالقرآن، لكنه علم وجدال لم ينف نفاقهم وتدليسهم وتلبيسهم على عباد الله، فقال «**أخوَفُ ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادلُ بالقرآن**»

فإن تكررت الأخطاء وفاحت ريحها الخبيثة وجدتهم يبرزون في وجهك صكوك الثقة، ويسكتونك بطريقتهم المعتادة قائلين: يا أخي، الأمر واسع وفيه خلاف وما نحن إلا مقلدة.

هنا أيضا يهون الامتثال، ويختفي التمايز، وتذوب الفوارق بين الخطأ والصواب، ويندثر النكير، وتبهت معالم الحق، وتنزوي خلف ذلك التسويغ والتهوين المستمر من هؤلاء.

ولهذا النمط أيضا نقول ما أجمع الخلق على أنبيائهم، بل وما من مسألة في الغالب إلا وستجد فيها مخالفًا، ولو أن كل خلاف كان سائغًا كما تزعمون لما عرف معروف، ولا أنكر منكَر، ولما صدع بالحق صادع، لكن يأبى الله إلا أن يجعل للحق عدولًا عالمين، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، ويصدعون بحقيقته وإن نخر هؤلاء الـ . . . الاحتماليون



خليك مصدق

ونمط المصدق هو النمط المناقض لنمط المتشكك الذي ذكرناه في الفصل قبل الماضي، هذا النمط على عكس سابقه يفتح الباب على مصراعَيْه لأيِّ خبر أو معلومة أو تحليل.

وليس هذا فحسب، بل يصر أخونا المصدقُ أن يتحولَ هو أيضا إلى مصدر لما صدقَه، فيقسم بأغلظ الأيمان أنه متأكد من كذا، وأنه خلال أيام سيحدث كذا، وأن حقيقة هذا الأمر كذا وكذا . .

وهكذا . .

وفي دنيا التواصل المفتوح ما أسهل نشر الأكاذيب والترهات، وما أيسر تعميم الشائعات بمجرد ضغطة زر، انشر، شير في الخير، لا تجعلها تقف عندك، هذا هو منهج أخينا المصدق . .

النشر بكل سهولة وثقة لأيِّ شيءٍ ولكل شيء طالما على هواه، ويتناسى هذا النمط تمامًا حديث رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّثَ بكلِّ ما سمع**»، ويظن أنه بمنأى عن المسؤولية لمجردِ قوله سمعتُه من أخ ثقة، أو قرأته على صفحة موثوقة، وكم حدثت من مصائب وقطعت أواصر بسبب الأخ الثقة والصفحة الثقة، منهم لله!

وأحيانا تجد درجات عجيبة من تصديق أشياء لا يمكن تصديقها، ونشر

أنباء يستحيل صوابها، يحلو للبعض أن يعتبر هذا النمط (طيب) لأنه يصدق كلَّ ما يسمع، والحقيقة أن هذه ليست طيبة بل سذاجة، والمؤمن كيِّسٌ فطن، وليست طيبة القلب البلاهة، ثم تعميم تلك البلاهة بنشرها بين الخلق ومطالبتهم بتصديقها.

إن من أعظم خصال ديننا التبين والتثبت، وبهذه القيمة بعد فضل الله حُفِظ الدين، ودونت الأخبار، وتمايز الصحيح من المكذوب، ولو كان أسلافنا تعاملوا على أنَّ هذا البله نوع من الطيبة لما وجدنا تراثنا محفوظًا بهذه الدقة إلا أن يشاء الله سببًا آخر.

ولصديقي المصدق على طول الخط أقول: أفق ..

ركِّز أرجوك

ليس كل ما يقال يصدق، وليس كل ما يصدق يكرر وينشر، وإذا كنت ترى في تصديقك المستمر راحة لك فأنت حر، خليك مصدق كما يقولون ساخرين.

لكن أرجوك يا عزيزي لا تكن ترسًا في ماكينة نشر ما تصدقه دون تبين وتثبت،وأكرر عليك: كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع.



فزع هلوع

ومن الأنماط المؤسفة نمط الأخ الفزع الهلوع، وهذا النمط شديد الخطورة على نفسه وعلى غيره، كل خبر أو شائعة تهز قلبه وكل بغي أو جور يزعزع ثقته وكل صيحة يحسبها عليه.

لست أتحدث هنا عن الخوف الذي هو شعور إنساني معتبر منه ما هو جبلي طبيعيّ، ولقد خاف نبيُّ الله موسى، وخاف نبيُّ الله هارون، وخاف غيرهما من الصالحين لكن خوفهم لم يثنهم عن قولة حق وإقدام صدق، ولم يزعزع ثقتهم أو يهز يقينهم، فليس كل خوف جبنًا وليس كل خائف خوارًا،

فقط حين يكسر الخوفُ الهمة؛ ويخرس اللسان عن نطق الحق؛ ويقمع الصوت عن دعوة الصدق؛ يكون ذلك هو الجبن والخور

والأدهى أن يتعدى القلب فيخرج إلى ما حوله، ويصير مفزعًا لغيره مرجفًا لهم، وهذا هو النمط الذي أتحدث عنه

حين يسيطر الفزع على نفسه، ويتمكن الهلع من روحه، ثم ينقله لمن حوله، فيصير بؤرة تخذيل وتوهين وإضعاف للصف.

ولهذا النمط أقول: إن كنت ولا بد خائفًا فاقصر خوفَك على نفسك، ولا تنقله لغيرك، وإن كنت قد رضيت بضعفك فاكتفِ بذلك، ولا تضعف من دونك، وإن كان الأولى بك أن تتذكر كون ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما

أخطأك لم يكن ليصيبك، فتوكل على مولاك واعتصم به، ولتكن ممن آووا إلى ركنه الشديد، واجعل ذلك السؤال القرآنيّ دوما نصب عينيك: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.



يا أبيض يا أسود

ويعد هذا النمط في رأيي من أهم مشاكل المراحل الساخنة التي تكتظُّ بالمنحنيات الحادة والأحداث المفصلية القاسية.

هذا النمط تغيب لديه موضوعية التقييم، ويخفت عنده صوت العقل والإنصاف، ويبزغ بدلًا منهم الغلوّ في الرؤى والأحكام سلبًا أو إيجابًا.

فما بين شيطنة كاملة أو تنزيهٍ كامل وافتراض ملائكيَّة مفرطةٍ يتناسى معهما أهل هذا النمط حقيقة أن الإنسان مخلوقٌ أكثر تعقيدًا من تلك السطحية التي تتبدّى أثناء احتدام الصراع بين الحق والباطل، وأنَّ تعقيدَه هذا يستلزمُ عدم شرطية العصمة عند الأقربين إلى الحق.

إن المجموعات البشرية غير المعصومة تحمل في داخلها عيوبًا ومميزات، وتحدث أثناء سيرِها أخطاء وتصحيحات، ومقتضى البشرية وجود النجدين، وإلهام الفجور والتقوى، وليس معنى غلبة التزكية ومظنة الفلاح أن الخطأ لم يقع أحيانًا، كما أنه ليس معنى غلبة الباطل على بشريٍّ خلوه من أي صواب، ونفي مطلق الحق والحقوق عنه . .

لكن للأسف حين يطغى الصراع؛ ويعلو دوي المعركة الصاخب؛ ويتطاير الغبار في كل مكان؛ تتغير ألوان الأشياء، ويسعى أحادِيّو الرُّؤى من أتباعِ نمط (ياأبيض ياإسود) لأن يطمِسوا الحقائقَ، ويصبغوا كل شيء بلوني

رؤيتهم وانحيازهم، ويخفتوا كل صوت ينادي ببقاء حقيقة الأشياء.

حينئذ تصير أخطاء الأقربين إلى الحق روائع الحكمة، وتصبح زلاتهم منتهى الصواب والذكاء، ويعلق كل فشل أو خلل على شماعة الخصوم الشيطانيين وحدهم، وتكاد المسؤولية والإحساس بها أن تتلاشى تماما من نفوس المبتلين نظرا لابتلائهم.

ومن هنا يزوِّر التاريخ بعد أن طمسَ الواقع بشعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، ويتحول الخلق فقط إلى ملائكة أو شياطين، ويتناسى البشر أنهم في النهاية بشر يخطِئون ويصيبون ويزلون ويسددون، وهم على أي حال ليسوا بمعصومين.

وإن كانت المروءة تقتضي عدم جلد المظلوم أثناء ظلمه فإنها لا تغير للأبد حقيقة أنه بشر يخطيء، وأن الأزمات وعدالة القضايا لا تغير طبيعة الأشياء ولا مسمياتها ولا ألوانها، ولا تسبغ عصمة على بني آدم (الخطائين)

على العقلاء دائما أن يتذكروا هذا، ويحتفظوا به في خزائن موضوعيتهم المؤمنة بأقفال الإنصاف ومتاريس حراسة المفاهيم ورعاية الحقائق، ويخرجوه حين يأتي الوقت المناسب حتى لا ينسى أو يطمسه غبار المعركة، ويحلوه إلى اللونين الذين لا يعرف أصحاب هذا النمط غيرهما،

اللون الأبيض والأسود



إشمعنى

ونمط إشمعنى يعد من الأنماط العجيبة للغاية، إنه نمط طفولي مثير للشفقة، يصر دائما على استدعاء المقارنة بالغير، واسترجاع أخطائهم، والتنقيب عن زلاتهم في دفاتر التاريخ القريب أو البعيد.

أزعم أننا جميعا تعاملنا مع هذا النمط مؤخرًا، ولربما وقع كثير منا في بعض خصاله أحيانا،

ألم تشهد مؤخرا أي حوار حول أخطاء طرف من أطراف المشهد السياسي أو الأيديولوجي فوجدت الحوار قد تحول فجأة إلى الحديث عن أخطاء الطرف الآخر كتبرير لتلك الأخطاء؟

ألم تفاجَأ يومًا بمخالفك يبرر أخطاءه أو خطايا فصيله بجرائم الفصيل الآخر؟

ألم تر قط استدعاء منطق المقارنات في أيٍّ نقاش لا علاقة له بالمقارنات؟

تلك هي المشكلة يا عزيزي وهذا هو النمط الذي أعنيه، نمط اشمعنى فلان؟

منطق الأطفال، وسبيل المتهربين من المسؤولية، وأسلوب المفلسين الذين لا يملكون إلا تعيير غيرهم، وكأن كون الآخرين سيئين يتيح للمرءِ أن

يكون سيئًا، وكأن أخطاءَهم أو حتى جرائمهم تبيح له أن يُجرِم أو يتهاون في حقٍّ من حقوق الله أو حقوق عباده، وتسقط عنه المسؤولية، وتعفيه من المساءلة، ثم تنجيه من عاقبة ذلك يوم العرض على الله، وكأنَّ كون البادي أظلم يسمح له أن يكون ظالمًا أقلَّ ظلما

وكأن معصية الغير أو تقصيرهم وخطأهم ترخِّص للجميع أن يفعلوا المثل بمنطق آخر بئيس يشابه منطق نمط تكلمت عنه في فصل سابق، وهو نمط اليائس صاحب شعار: ما هي بايظة بايظة هي يعني جت عليا أنا؟؟!

يعني إنت مش شايف فلان وعلان وترتان بيعملوا إيه؟؟!

هكذا يستباح أي شيء وكل شيء!

لعل ذلك المنطق (العيالي) يُقبَل من طفل صغير، أو من شخص غير مكتمل النضج العقلي أو الفكري، لكن أن يستحضر ذلك المنطق من قِبَل أناس يُفترض أنهم كبار السن والمقام، راجحو العقل والتفكير، فذلك بلا شكٍّ أمر يدعو للاندهاش والأسف.

أما الاندهاش فهو لدرجة سذاجة وسفه هذا المنطق الذي يُستدعى عند كل نكير، ويُصَدَّر في وجه كل من يرفض أو يستبشع خطئًا أو تقصيرًا.

وأما الأسف فلتلاشي الشعور بالأسف، واختفاء ثقافة الاعتذار وتحمل المسؤولية لدى أولئك المستعيِلين (نسبة للعيال) ومَن سار على دربِهم واستعمل منطقهم.

ولصديقي صاحب هذا النمط الطفولي أقول: يا عزيزي طالما كانت أخطاء الآخرين وسوءاتهم هي دوما مبررات أفعالك ومسوغات مواقفك فاعلم أنك مفلس!

نعم هذه هي الحقيقة التي ربما تكون مفاجأة لك، حقيقة تقطع بأنه لا يسأل عن جرمه إلا الذي أجرم ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وبالتالي فلا حجة في الدنيا إلا بكسب المرء، ومسؤولية الخطأ تقع على من اقترفه حتى لو أخطأ جميع من حوله معه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾.

وتذكر أنك حين تقفُ بين يدي الله فلن تُسأل إلا عن نفسك، ولن تحاسب إلا على كسبك، ومن كانوا في مسؤوليتك فربك يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾، ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، ويقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

فانتبه الآن واعلم أنك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَۚ﴾ وأعد جوابا ليس فيه: أصل (فُلان) كان سيئا و(علّان) كان مجرما و(ترتان) قال وفعل وسوّى وزاد وعاد

أعد جوابا عنك أنت، أنت وحدك، ولا تقل: إشمعنى



مثاليون فوقيون (دعه يقرر ويختار) الجزء الأول

منذ عشرين عامًا تقريبًا، وتحديدًا في منتصف التسعينيات، صدرت أولى أعمال الدكتور أحمد خالد توفيق الروائية وكانت باكورة سلسلة «ما وراء الطبيعة» الشهيرة

صدرت أولى تلك الروايات صغيرة الحجم جديدة الأسلوب لتمثل بالنسبة لي ولكثير من أبناء جيلي نوعًا من الصدمة، ولقد كانت صدمة مبهرة، صدمة في واقع روائي، كانت روايات الدكتور نبيل فاروق وسلاسله البوليسية تسيطر على ساحة روايات الجيب الشبابية منذ الثمانينات، حيث كان النموذج السائد فيها هو نموذج الضابط الوسيم الذي لا يهزم أبدًا ولا يخطِىء قط، الرائع على طول الخط، المتكامل لدرجة مذهلة (دائما مذهلة . . سرعته، جاذبيته، قوته، دائما مذهلة)

لكن ماذا لو قررت ألا أذهل؟!

ماذا لو قررت أنه من غير المنطقي وجود هذا الكم من الكمال في البشر؟!

ماذا لو قررت ألا أسلم دماغي؟!

ماذا لو قررت أن أقرر؟!

هنا لن يكون للرواية معنى ولا داعي إذا لمتابعة رجل المستحيل أو ملف

المستقبل، فالقرار تم اتخاذه مسبقا، والرأي تم سقاؤه لعقلك من خلال السطور وبين أحرف الكلمات.

أدهم صبري دوما مذهل ونور الدين محمود مثالي ومنى توفيق رائعة وفاتنة وقدري بدين للغاية لكنه أمهر الخلق في مهنته، وطيبة قلبه مثالية أيضا.

وهكذا ..

من أنت لتقرر أصلا؟!

من أنت لتكون لك عقلية نقدية تكوِّن بها رأيا أو تقيِّم بها عملا؟

لذلك - في تقديري - نجح أحمد خالد توفيق في هزِّ عرش من سبقوه في قلوب هذا الجيل، ليس فقط على المستوى الأدبي، ولا حبكة القصة ومستوى إثاريتها وبنائها الدرامي والمنطقي، ولكن ثمة شيئا آخر كان المرء به يسعد، وله قلبه يطرب، إنه القرار ..

لقد صار القرار أخيرا في أيدينا نحن المراهقين البسطاء الذين يخطون أولى خطواتهم في دنيا الثقافة والفكر والأدب

د.أحمد ببساطة تركنا نختار

أعطانا مساحة لنقرر هل ستعجبنا القصة أم لا؟ هل سنتعامل مع البطل على أنه بشر نكرَهُ عاداته السيئة ونغضب لأخطائه المتكررة؟ أم لن يسعنا إلا أن نحبه، ونتعلق ببطولاته المبهرة، وكماله المذهل الذي يكاد يبلغ حد العصمة؟

هل سنشفق على كهولته المتهالكة ونتعاطف مع أمراضه المزمنة وضعفه الإنساني؟ أم سننبهر قصرًا بروعته الدائمة ونعجب جبرًا بمثاليته اللامعة؟

هل ستضحكنا إفيهاته الساخرة وتململه -من كل شيء حتى من نفسه أحيانا- أم سنضطر لتكلف الابتسام مجاملين سخريته النمطية؟

وهل سيكون هناك احتمال طبيعي للفشل كما هو حال الدنيا؟ أم لا بد من الانتصار الدائم والنجاح المستمر الذي لا يحويه إلا الخيال؟

كان هذا في رأيي منبعَ النجاح ومربط الفرس، الأديب الناجح لا يتظاهر بالنجاح، والأعمال المثالية لا تدعي المثالية، لا تقرر نيابة عنك، لا تزكي نفسها ولا تتكلف الثناء الضمني على أحداثها وتوجيهاتها، بل هي تنساب إلى عقلك دون أن تشعر، وتتسلل إلى وجدانك وتسكن قلبك بهدوء ودون تكلف، دون فوقية أبوية أو تعالٍ نخبوي.

الأديب والكاتب والمفكر ليسوا آلهةً، وكلامهم ليس مقدسًا لأصدقه دائما وبشكل مباشر كما أصدق كلام الله، ولله المثل الأعلى!

القرآن يقرر أن سيدنا إبراهيم قد وفَّى وأنه قد ابتُلي بكلمات فأتمهن وأنا أصدق ذلك.

أصدقه لأن ربي الذي أؤمن بربوبيته وبأنه الحق وقوله الحقّ هو من قال عنه ذلك فسمعا وطاعة وتصديقا وإقرارًا وسلامًا على إبراهيم.

لكن الكاتب أو المفكر أو العالم المجتهد والواعظ الداعي ليسوا كذلك، ولست مضطرا لقول آمين على كل رأي أو فكرة أو اجتهاد يتفضلون به، وليس علي أن أفترض المثالية الدائمة والكمال المطلق في أطروحاتهم.

من هذا المنطلق ومن خلال المثال الذي استحضرته آنفا نستطيع بشكل كبير أن نفهم جزءًا مهمًّا من أزمة الخطاب الإصلاحي المعاصر سواءً كان دينيًّا أو ثقافيًّا، توعويًّا أو أخلاقيا، وليس فقط حصره في الطرح الأدبي أو

الروائي الذي ضربت به المثال السابق.

أزمة تتمثل في الإصرار على عزل الخطاب الإصلاحي عن فهم حقيقة الجيل المتلقي وكيفية التعامل معه.

جيل صار الوعظ المباشر والتوجيه الأبوي الاستعلائي والبث النمطي التقليدي للأفكار والقيم من أقل الأمور تأثيرًا فيه، جيل ثائر على كلِّ شيء، ساخر سخرية مريرة من كل شيء، متزعزع الثقة في كل شيء.

جلُّ الآراء عنده سطحية، وجلُّ العاملين في نظره مقصرون، وكل التحليلات جوفاء والمواعظ ركيكة هروبية، وكلُّ محاولة للحل مصيرها الفشل، وكل نكتة قديمة، وكل طرفة بايخة، فقد رأى كل شيءٍ، وسمع كل النكات، واطلع على كل الأخبار والأحداث، واستطاع الوصول لأيّةِ معلومة بمجرد ضغطة زر أو تمرير إصبع على شاشة لوحية حساسة، وتعوَّد التكنولوجيا منذ نعومة أظفاره، وشهد اندلاع ثورات وحراكات وصراعات، وعاين سقوط حكام وخلع طغاة، هو جيل لم يعد ينبهر بسهولة، ولم يعد هينًا أن تقنعه بشيء ومن يظن أنه لم يزل قادرًا على التعامل معه بفوقية أو إملاء واستعلاء أو فرض رأي فهو واهمٌ، ولن يلبث إلا وترتطم رأسُه بصخرة الواقع بعد أن يبح صوته، ويكلّ قلمه دون تأثير يُذكر، وهو الملام لأنه ببساطة لم يتأمل اهتزاز عروش الوعاظ التقليديين والمفكرين النمطيين ولم يتعلم الدرس.

من أراد نشر فكرة الآن أو إثبات وجهة نظر فعليه أن يتعب نفسه قليلا، عليه أن يبتكر، والأهم أن يحترم عقل المتلقي ولا يملي عليه رأيه، بل عليه أن يدعه يقرر.

مثاليون فوقيون (دعه يقرر ويختار) الجزء الثاني

«المقطع الذي غيَّر حياة الملايين»

«هذا الفيديو سيقلب حياتك رأسا على عقب»

«كلمات رائعة أتحداك إن لم تبك بعد قراءتها»

«أرجوك لا تدعها تقف عندك»

«بالله عليك أكمل قراءتها للنهاية»

«إن لم تنشرها فاعلم أن الشيطان قد منعك»

هذه الجمل وغيرها يعرفها جيدًا أصحاب الهواتف الذكية ممن لديهم تطبيق (الواتس آب)،

إنها جمل يصدّر بها كثير من الفضلاء تلك الرسائل الوعظية التي يرسلونها طوال اليوم لجميع من لديهم على قائمة الهاتف، يبتغون بذلك نيل الثواب وتحصيل أجر نشر الخير، والدال على الخير كفاعله.

بعضهم يرسلها بنية صادقة ورغبة مخلصة في الدعوة إلى الله وهداية الخلق إلى طريقه، وبعضهم يمررها بشكل تلقائي روتيني، أو خوفا من التحذيرات المرفقة التي ترهبك أن تكون أنت من أوقف انتشار الخير لأنك تركت الرسالة تقف عندك ولم تستمع لتلك التحذيرات، وبعضهم تشعر من كثافة ما يرسله أنه يتسلى، أو أنه يعاني من وقت الفراغ لدرجة تجعل أصابعه

لا تفارق جهازه الذكي مرسلة تلك الرسائل على مدار اليوم حتى يخيل إليك أحيانا أنه لا ينام!

المهم .. أيا كانت النية -ولست من محبي التشكيك في النوايا- فإن هناك استماتة واضحة لدى من يرسلون ويعدون تلك الرسائل لإقناعك بالمشاهدة والقراءة

لكن هل يقرأ الناس ويستجيبون؟!

الحقيقة لقد شغلتني إجابة هذا السؤال لفترة بعد أن لاحظت هذه الظاهرة التي ترتبط بنفس الموضوع الذي تحدثت عنه في الفصل السابقk شغلني ذلك النمط من الرسائل الوعظية، وبدأت أسأل كل من أعرفهم ممن لديهم هذه الهواتف: هل تقرأون وتشاهدون؟

وما نسبة ما تشاهدون وتقرأون وما طبيعته؟ ولماذا؟

ولقد كانت الإجابة في الغالب لا نقرأ ولا نشاهد، وأحيانا كانت الإجابة تخص بالرفض تلك المقاطع التي قرر أصحابها أنها لا شك ستغير حياتك وستبكيك وستجعلك إنسانًا آخر، المقطع من الممكن فعلا أن يكون قد غيَّر حياة إنسان، وربما تكون كلمات المقالات بالفعل رائعة وتمتلىء بالحكم والفوائد، لكن المشكلة كالعادة إنك قد قررت عني، أنك قد قطعت وجزمت بشيء لا يحتمل الجزم، واستثرت طبيعة بشرية كامنة في نفوس كثير من الخلق، طبيعة العناد والتحدي!

خصوصا مع جيل أشرت في المقال السابق إلى أنه لم يعد من السهل إبهاره وأنه لا يقبل المعاملة الفوقية والخطابَ الأبويَّ الاستعلائي الذي يقرر نيابة عنه، أضف إلى ذلك كارثة الملل وإلف العادة.

وما كان هذا هدي نبينا الذي وصف أصحابه طريقة وعظِه، فقالوا: «كانَ النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافةَ السَّآمةِ علَينا» صحيح البخاري.

لقد كان حريصا ألا يمل الناس خطابه ونصحه ووعظه، ولا التسلط على رؤوسهم على مدار اليوم، وهو المنزّل عليه قول ربه ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وقوله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وقوله ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

من هذا المنطلق كان يتخولهم بالنصيحة وينوع أساليبها، ويفاجِئهم بالعبرة دون مقدمات متكلفة تفرض عليهم مسبقًا الانبهار بها، كان أحيانا يعلمهم برسم خط على الأرض يمثل به طريق الله والطرق التي تقطعه، وأحيانا من خلال نموذج مادي ماثل أمامهم كما فعل حين مر بجثة الجدي فشبه زهدهم فيه بقيمة الدنيا عند الله . .

موقف عملي لا ينسى وموعظة مبتكرة أحيانا يلفت انتباههم بسؤال، وأحيانا أخرى بقصة مشوقة، وهكذا يطرق أبواب القلوب بتنوع ويسرٍ ودون تكلف أو مقدمات مفتعلة تفرض نفسها على المتلقي، وتقرر عنه، وتختار رد فعله، بل وتفرضه عليه كما يحدث.

نحتاج إلى إعادة نظر في طريقتنا، ومقارنتها بطريقة نبينا ﷺ إن كنا فعلا نريد أن نغير للأفضل وليس كل هدفنا فقط ألا تتوقف الرسالة عندنا، نحتاج أن نفكر ونبذل ثم مرة أخرى ندع المتلقي يقرر ويختار



سي السيد

وهذا نمط شعاره في الحياة: الكلمة هنا كلمتى، والشورى شورتى تماما كتلك العبارة التي كان يحسم بها سي السيد أي مناقشة، فترد الست الغلبانة أمينة بصوت منكسر يتهدج بالخوف والرعب من زوجها الصارم: «أمرك يا سي السيد».

ذلك الحوار المقتضب يمثل ثنائية فلكلورية شهيرة مستقرة فى وجدان أصحاب ذلك النمط، ثنائية «سى السيد» وزوجه الطيبة المسكينة «أمينة».

لقد كانت تلك الشخصية عنوانًا دائمًا للزوج القوي صاحب الشخصية الكاسحة، التى ظلت علامة على التحكم المطلق، ومرادفا للإصرار الحديدي على إنفاذ الرأي دون مناقشة أو حوار، مستغلًا ما يتصوره من أن حق القوامة يتيح لسي السيد أحمد عبد الجواد التسلط المطلق على زوجه وأبنائه، غير متقبل لأيّ نوع من التهاون أو التفاوض فى تنفيذ أوامره، فلا يقبل إلا كلمة «أمرك يا سي السيد» عنوانًا على الطاعة المنكسرة، التى كانت شعار «أمينة» فى رواية نجيب محفوظ الشهيرة، والتى صارت تلك الشخصيات بعدها أيقونات تعبر عن تلك العلاقة التسلطية.

وهذا النمط الذي أتحدث عنه ينتهج نهج سي السيد بحذافيره في كل شيء وأي شيء، فيصر على أن رأيه وحده هو الصواب الذى لا يحتمل

الخطأ ولا يقبل التفاوض، وأن قوله لا بد أن يمضى ومن بعده الطوفان، وليكن ما يكون دون أدنى استعداد لحوار بَنّاء، أو لتفاهم وقبول للآخر، أو حتى اعتبار مخالفه كائنًا عاقلًا من حقه أيضا أن يكون له رأي وفكر، وأن الأمور لا تسير دائما بهذا المنهج المتسلط.

والحقيقة أنه بغض النظر عن الفهم المغلوط لمعنى القوامة الذى يعتقد البعض أنه لا يتحقق إلا بتلك الصورة النمطية، وهو ما يخالف تمامًا الخلق النبوى الهين اللين، الذى كان لا يوظف قوته وقوامته بهذا الشكل الاستعلائى أبدًا، فإن أهل هذا النمط لسان حالهم ومقالهم وتعاملهم مع الأحداث ليس له إلا مؤدىً واحد وهو أنهم يريدون أن يكونوا نسخًا كربونية جديدة من «سي السيد أحمد عبد الجواد».

المدهش فى الأمر أن «سي السيد» الخيالى ومن سار على نهجه فى دنيا الواقع كان لديهم ما يتأولون به ذلك التسلط، من فهم مغلوط -كما أشرت- لمعنى القوامة فى الشرع، ما يدفعهم للاغترار به والتجبر على ذويهم، بينما لا يملك «سي السيد» السياسة والفكر والرأي ما يسوغ له ذلك التحجر فى الرأي، وذلك الإصرار الفولاذى على إمضاء رؤيته، وإنفاذ إرادته على الجميع.

فلا هو يملك وصاية أو قوامة، ربما يمتلك قوة يتسلط بها أو عنفوان يغتر به ويهدد ببطشه

لكن هذا حتى ليس شرطا

فكثيرا ما يفتقد هؤلاء المتسلطون لتلك القوة والبأس ويتقلبون في أوحال الضعف والفشل ومع ذلك يصرون على تقمص شخصية سي السيد،

ومن ثم يتبادر إلى الذهن ذلك المشهد الهزلي لذلك الممثل ضئيل الجسد الذى يقف أمام من هو ضِعف حجمه وقوته صائحًا ومهددا فى عنف لا يناسب مظهره: «ما تقدرش»!!

إن الفرعونية على ما يبدو ليست قاصرة على من يجلس على عرش مصر، بل الظاهر والله أعلم أنها جينات موجودة فى كثير من المصريين تدفعهم دون أن يشعروا لهذا الشعار العتيق: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾!!

لقد تلفظ فرعون بذاك الشعار، وقد غرته قوته، وأغراه بطشه وجبروته، فظن أن باستطاعته فرض رأيه على الجميع.

لكن سؤالا يشغل بالي كلما طالعت أفعال وأقوال هذا النمط، تُرى ما الذى يدفعهم لتقمص ذلك السلوك العجيب، وإدمان تلك المحاكاة غير المبررة؟!

وما هى المقومات التى تجعل إنسانًا ما يظن أن من حقه فرض رأيه على غيره على طول الخط، وتغريه بأن يسمح لنفسه أن يغرد دائمًا باسم السرب

وبأي حق سمح لنفسه بتقمص شخصية سي، السيد والأعجب بأي منطق تصور أن يكون كل مخالف له أمينة المسكينة المستكينة؟!



الأخ أخ (العنصريون)

وذلك النمط أطلقت لقب الأخ أخ لكثرة ترداد ذلك اللفظ على لسانه

قابلت كثيرا من أهل ذلك النمط في حياتي، دائما حين يرد ذكر شخص ما تجده إن لم يعرفه يسألك باهتمام: هل هو أخ؟

ثم يكرر: أخ أخ يعني؟

يقصد بذلك أن يتبين إن كان المذكور على منهجه أم لا

فإن كان يعرفه ويعرف أنه يشبهه في السمت، أو يتبع نفس الفئة تجده يتهلل ويقولها بكل انشراح وانبساط وفخر: فلان ده على فكرة أخ

أخ أخ يعني مش أي كلام!

وعلى هذا الأساس تنبني سائر علاقاته وتتباين معاملاته ابتداء من إلقاء السلام وحتى المعاملات الاجتماعية والتجارية والأسرية

نعم هو نمط عنصري بامتياز، يبني تقييمه للأشخاص على مدى القرب الظاهر أو البعد من فئته، وعلى درجة الشبه الخارجي به وبطائفته.

ومفهوم الأخوة والدعوة محدود جدًّا لدى هذا النمط الذي يضيق ما وسعه الله ويحجره، لقد قال ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

هكذا مطلقة، المؤمنون إخوة، هذا هو أصل الأخوة الإيمانية القائمة

على رباط العقيدة، صحيح أن درجات المحبة والولاء قد تتفاوت، وصحيح أن المرء يحب بقدر طاعته ويوالي بقدر تمسكه وصلاحه، وصحيح أن من حقك أن تتخير صحبتك والمقربين منك، لكن عن الأصل أتحدث . .

عن أصل الولاء والمحبة والأخوة الإيمانية التي لم يشترط الله لأصلها امتحانا للناس أو تربصا بهم، ولم يكلفنا توقفا فيها حتى نتأكد من درجتها ومقدارها، ولا بالحكم عليها قطعيا من خلال الشكل أو الظاهر.

وكم مِن أناس قد لا يبدو ظاهرهم ملفتا أو دالا على مخبرهم، وحين تعرفهم وتتقرب إليهم تجدهم من أفاضل الخلق وأكثرهم صلاحا والله حسيبهم، ولا أحد يدري ظروف الناس ولا حقيقة أحوالهم ولا مآلاتهم، والله يقول ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾

قال ابن كثير: وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى وهي مضرة له، أن يُذَكِّرها ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدَّم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيبًا للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها. ثم قال تعالى مذكرًا لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئًا فشيئًا، فكذلك غيركم. فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة- من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه. ا.هـ

فيا صديقي (الأخ أخ) كفاك عنصرية وامتحانا للناس وتقييما لهم على أساس المظهر وحسب،

كفاك استعلاء على الخلق، وتذكر حالك من قبل، والزم مع جميع المسلمين أصل الأخوة

فإن كنت ولا بد مفضلا حبيبًا أو شبيهًا لك فلا يكن ذلك على حساب أصل الولاء والمحبة العامة للمؤمنين، ارحم الناس ليرحمك الله، واعلم أن تلك العنصرية لا تؤدي إلا لمزيد من العزلة والجفاء، وما يدريك لعل سلاما وكلمة طيبة وابتسامة ودودًا أو تلطفا ورقة مع شخص بعيد تأخذ بقلبه إلى طريق الاستقامة، وتكون هدايته في ميزان حسناتك بدلا من أن تفاجأ بتنفيرك إياه في الكفة الأخرى وتذكر: إن منكم لمنفرين



عادي (التطبيعيون)

ومن الأنماط الخطيرة نمط الـ (عادي) وطائفة (فيها إيه يعني) أو من يمكن تسميتهم بـ (التطبيعيون)

وهذا النمط كل شيء بالنسبة إليه يتحول بالتدريج إلى شيء طبيعي وعادي

وفيها إيه يعني؟

ما كل الناس كدة . . .

جت عليا أنا يعني؟

يا عم فوت وما تركزش

هكذا يتعامل هذا النمط مع كل المتغيرات من حوله، كل ما يتكرر عليه يتقرر لديه ويصبح شيئا طبيعيًا مقبولا ،والتطبيع يختلف عن المرونة أو التكيف والمضي قدما في دروب الحياة، فتلك أمور لها فقهها وسنأتي للحديث عنها إن شاء الله.

وليس المطلوب كذلك أن يكون المرء من أهل الخيال والأوهام والانفصال عن الواقع أو إنكاره كما سيأتي بإذن الله عند الحديث عن نمط الموهومين الخياليين، لكن المطلوب ببساطة أن يظل الخطأ خطئا والصوابُ صوابا، وهذا ما يغيب تدريجيا عند هذا النمط التطبيعي.

ومع مرور الوقت يتحول الظلم والبطش إلى شيء عادي لا يؤثر في قلبه ولا يثير غضبه.

وكلما تكررت عليه مشاهد الدماء وتعاقبت عليه مصائب المسلمين في كل ثغر كلما قل تعاطفه وانفعاله لآلامهم، وصاروا في النهاية بالنسبة إليه مجرد أرقام إحصائية جامدة.

وكلما عصى أو تعامل مع معصية كلما هدأت وطأتها في قلبه، وفقد شعورَ الندم وبغض المعصية، وبعد أن كان يوما يرى تلك الأعمال من الموبقات صارت في عينيه أدق من الشعرة وربما اختفت من ناظريه وإن لم تختف من صحيفته!

كم من أمور كانت مستغربة في أولها، مستهجنة حين كانت في بداية ظهورها، ثم تحولت مع الوقت وقلة النكير إلى أمر عادي وطبيعي بفعل هذا النمط التطبيعي الذي يتعود الخطأ ويطبع العلاقة به: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تخيل أن يصل الأمر لأن يقال عن الفاحشة أن الله أمر بها!

وهذه هي النهاية المتوقعة والبديهية لهذا التطبيع والتعود، هنا تذوب الفوارق، وتضيع الثوابت، وتطمس المفاهيم، وربما تمسخ التصورات بعد حين، فيصير الحرام عند هذا النمط حلالًا والخطأ صوابا والباطل حقا، أو على الأقل يصير عاديا وطبيعيا ..



في أغلال الحدث

وهناك نمط الحبيس المقيد في أغلال الأحداث الماضية والآنية، العاجز عن الانتقال منها أو الإفاقة من آثارها، فهذا لنا معه وقفة مهمة للغاية، وعذرا إن طالت بعض الشيء نظرا لأهميتها

هذا النمط لا يستطيع المضي قدما ولا ممارسة حياته بعد حدث جلل أو مصاب عظيم، وهو نقيض النمط السابق التطبيعي، لكنه هاهنا نقيض متطرف يظن أن كل إفاقة أو مضي قدمًا إنما هي تطبيع مع الباطل، ونسيان لما حدث، فلا يستطيع التفريق بين المرونة والتكيف الإيجابي وبين التمييع وقبول الباطل وشرعنة الخطأ وتكريسه.

إنه نمط مكبل بأغلال البلاء، مقيد بقيود الأحداث، حبيس خلف أسوار الماضي، بطيء الإفاقة كثير الندب والعويل، متفرغ للوم النفس والغير.

وإن من أخطر الأمور أن تتحول المصائب والأخطاء والخطايا أو المخطئون والمتسببون في مشكلة إلى جدران معتمة أو قضبان غليظة يظل تفكير هذا النمط حبيسا بداخلها، فلا يرى الدنيا إلا من خلالها ولا يستطيع أن يتجاوزها إلى غيرها .

لقد قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد عن تسعة عشر غزوة وقيل تسع وعشرون، هذا بخلاف ما يقارب السبعين سرية التي أرسلها على

مدار السنوات العشر التي هي فقط مدة العهد المدني، المجموع إذن كما أورد الحافظ ابن حجر في الفتح يقارب المائة غزوة وسرية في عشر سنوات فقط حتى وفاته بأبي هو وأمي، لو حسبت المتوسط ستجده في حدود عشر غزوات وسرايا كل عام!

وعلى هذا فلا يكاد يمر شهر من حياة المسلمين في المدينة دون حدث جلل من غزوة أو سرية،

بل من الممكن أن تجد غزوتين لا تفصل بينهما إلا أيام قليلة كما حدث في غزوتي أحد وحمراء الأسد وكذلك في الخندق وبني قريظة، هذا بخلاف تآمر المنافقين وتربص اليهود ومشاكل المجتمع الوليد والأمة الناشئة.

مع ذلك لو تأملت ستجد في ظل تلك الحياة الحافلة الحاشدة أن جل المسائل الشرعية والأغلبية الساحقة من الأمور الفقهية وأحاديث الأحكام قيلت وتعلمها الصحابة رضوان الله عليهم في تلك الأيام الممتلئة بالأحداث الجسام، لم تثنهم تلك المشاغل والهموم، ولم تمنعهم تلك العظائم الجسام من التعلم والتعبد ومن السؤال والتدبر والفهم، ولم يحبسوا أنفسهم خلف جدران المصائب، ولم تقيدهم أغلال الأخطاء وآصار الأحداث.

في يوم أحد أخطأ الرماة بنزولهم من ذلكم التل الذي أقامهم عليه رسول الله ﷺ مسارعين إلى غنائم زائلة، وعاصين بذلك أمر النبي الأمين الذي أحكم لهم النهي قائلا: كُونُوا مَكَانَكُمْ، لا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُ الطَّيْرَ تَخْطَفُنَا، لكنهم أخطأوا وخالفوا أمره ووقعوا فيما نهاهم عنه ثم كانت المصيبة، ولقد أصابتهم تلك المصيبة بما هو من عند أنفسهم، وذلك بنص القرآن كما نزلت به سورة آل عمران.

وقد تم بيان الخطأ والمخطىء، وتم توضيح أبعاد المصيبة وتداعياتها وحمِّلت المسؤولية للمخطىء

ثم ماذا بعد؟!

هل ظل التوبيخ أو التلاوم وحسب؟

هل مكث المسلمون يندبون ويتباكون؟!

هل ظلت كل سورة من سور القرآن تتحدث عن ذلك الخطأ وهل استمر اللوم والمعتبة في كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ قيل بعدها؟!

بل هل كانت الآيات التي نزلت في تلك المناسبة وتعليقا على ذلك الحدث كلها تتكلم عن هذا الخطأ؟!

الجواب: لا

لقد حدث الانتقال الطبيعي والمنطقي من بيان الخطأ وتحميل المسؤولية المناسبة للمخطىء إلى الخطوة التالية وهي العمل وإصلاح ذلك الخطأ وبذل الوسع لاجتناب الوقوع فيه في المرات القادمة.

ولقد نزلت الآيات مبينة لعوامل النصر، ومفعمة بالأمل وحسن المآل، ومبشرة بمصير من سبق من الشهداء، وأنهم أحياء عند ربهم فرحين ومستبشرين، ثم كان التوجيه وتصحيح الخلل ولفت النظر لمواطنه بشكل واضح وحاسم وعملي.

ثم ختمت السورة بالتوجيه الاستنفارى الدائم الذي ينبه المؤمن إلى أنه ينبغي أن يظل في تلك الحالة من الجلد والرباط والعملية.

وهكذا فعل نبي الله يعقوب عليه السلام مع بنيه، فرغم أنه كان يدرك أن

أنفسهم قد سولت لهم أمرًا في المرة الأولى وكذلك الثانية، ورغم أنه قد بيَّن إدراكه لذلك، وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل، إلا أنه لم يتوقف عند هذه النقطة، ومع الألم الشديد لفقد ولديه، والحزن الذي له ابيضت العينان فإنه انتقل بنبلِ النبوة إلى الجزء العقدي والعملي بشكل مباشر فقال: ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

هيا تحركوا ..

انتقلوا إلى ما يفيد ..

أصلحوا وغَيِّروا

هكذا يكون التعامل مع الخطأ والأزمة والحدث، مسؤولية بغير تقييد أو أسر للماضي.

وهكذا تمضي الحياة وتسير مراكب العمل وتمر قافلة الإصلاح، أما أن يحبس الإنسان نفسه بنفسه في سجن الندب والعويل والبكاء على اللبن المسكوب، أو أن يصرَّ على حبس الآخرين خلف قضبان الماضي دون تفكير في تغيير عملي أو طرق لأبواب مختلفة للحل فتلك مسالك الضعفاء الذين لا يستطيعون المضي قدمًا، ولا التفكير بشكل عمليّ، وكذلك حامل الرسالة، لا ينشغل طويلا إلا بهدفه، ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في البكاء وجلد النفس والغير بشكل قد يؤدي في النهاية إلى ضياع الهدف الأصلي وغياب القدرة على التغيير.

لقد كان المستورد بن شداد رضي الله عنه، فى مجلسٍ فيه عمرو بن العاص، رضى الله عنه، فبينما هم جلوس حدَّثَهم المستورد أنه سمع النبى ﷺ يقول:

«**تقوم الساعة والروم أكثر الناس . .** »

فقال له عمرو بن العاص، رضي الله عنه: «أبصر ما تقول» -أي تبين وتثبت وراجع قولك، هل سمعت هذا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم- قال المستورد: أقول ما سمعت من رسول الله قال: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس . .** »

هنا وبعد تبينِهِ من ثقة رواية المستورد قال عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أما لئن قلت ذلك إن فيهم خصالًا أربعا: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة . . وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة . . وأوشكهم كرة بعد فرة . . وأرحمهم لمسكين ويتيم وضعيف . . وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك.»

لقد ركز سيدنا عمرو بن العاص على خمس خصال في غاية الأهمية، إن وُجدوا في أمةٍ فقد حققت بها شوطًا طويلا في مضمار الرفعة الدنيوية والنجاح الأممي.

الخصال الخمسة جميعها تحض عليها الشريعة الإسلامية الغراء، بينما نجد واقع المسلمين بشكل كبير في منأى عنها، وبدلا من أن نقول: هذه بضاعتنا ردت إلينا، نجد بعدًا عمليًّا عن جُل تلك الخصائص والأخلاق.

فما الحلم والقوة والثبات النفسي والمسارعة للنصر بعد الهزيمة والكر بعد الفر والرحمة والبر والتكافل الاجتماعي والعدل ونبذ الظلم والصدع في وجوه الظالمين بالحق لدفع ظلمهم إلا خصالٌ وقواعد إسلامية تواترت النصوص الشرعية على الحض عليها

لكنني أخص هذا النمط الحبيس بتلك الخصلة الثانية التي أشار إليها سيدنا عمرو، تأمل . .

«وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة»

فمتى يفيق ذلك النمط الحبيس ويكسر أغلال الماضي الأليم ثم يمضي في حياته إلى التغيير والإصلاح؟

متى يتجاوز تلك الأسوار (أسوار الحدث)؟



مستهلكون والاسم ناشطون

وهناك نمط الناشط المتفرغ تمامًا للسياسة، والذي لا يفعل شيئا تقريبا في حياته إلا متابعة الأحداث والتعليق عليها.

طبعا ليس عن الاهتمام بأمر المسلمين وحمل هم الأمة أتحدث، فهذا دينٌ يتدين به المرء، لكن أتكلم ها هنا عن الانصراف تماما لباب واحد من أبواب الدين، وعدم الموازنة في ذلك وهذا ما يفعله النمط الذي أعنيه، وإني سائِلٌ من كان على هذا النمط هل راجعت كل الأخبار؟

هل دققت في كل المواقف السياسية؟

هل قرأت كل التحليلات؟

هل استوعبت كل الردود والمتابعات؟

هل طالعت كل البرامج والصفحات التي تفرغ تلك الشحنات خاصة تلك الساخرة والتي تتعامل بنفس أسلوب خصومك؟

هل شاركت بتعليق ساخر أو غير ساخر؟

هَل فعلت كل ذلك بنجاح؟!

قل لي بعدها بربك

هل ارتحت؟

و كيف حال قلبك مع الله؟!

وهل غيرت واقعَك بهذا؟

هل غيرت شيئًا في أولئك الذين أنفقت وقتك في التريقةِ عليهم وعلى غبائهم؟

وكيف حال صنائع المعروف وأعمال البر معك؟

كيف حال وردِك من القرآن؟

كيف حالك مع أذكارك وخشوعك؟

وأين جهدك العملي في الدعوة والإصلاح والتوعية؟

كيف حال صلاحك الشخصي؟!

يظن البعض أن الإصلاح في الأرض والنفع المتعدي يغنيهم عن الصلاح الشخصي والتعبد القاصر، وما أشد وهمهم وأبعد ظنهم!

فأي مصلح ذلك الذي ليس لديه رصيد داخلي من الصلاح؟!

وأي مُغَيِّر هذا الذي لا يستطيع أن يغيِّر نفسه أولا؟

وأي برٍّ هذا الذي يأمر به الناس وينسى نفسه؟

إن التلازم بين الصلاح والإصلاح أمر مطرد في كتاب الله، يكفيك أن تتدبر في تلك الآية من سورة الأعراف والتي بدأها الله بذكر الصلاح من تمسكٍ بكتاب الله وإقامة للصلاة ثم ختمها بوعد ألا يضيع أجر المصلحين.

فكان في ذلك إشارة إلى أن أولئك المصلحين لم ينسوا أنفسهم، ولم يغفلوا عن طاعة ربهم، بل تلازم صلاحهم مع إصلاحهم، وارتبط نفعُهم القاصر بنفعهم المعتدي فتأمل:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾.

وإن من أكثر ما يلفت الانتباه فى سورة الأنبياء ذلك المعنى الذي تكرر فى السورة مرارًا، معنى التعبد والتقرب إلى الله بالعمل الصالح، معنى الصلاح الشخصي الذي ينصرف عن الاعتناء به وعن تقديره حقَّ قدره كثيرٌ من المتصدرين للعمل العام.

إن كلمة العبادة ومشتقاتها من أكثر الكلمات التي ذكرت فى السورة، وما لفت انتباهى هاهنا أن هذا المعنى الأكثر تكرارًا والذى ورد فى السورة التى تتكلم عن خير مَن مشى على الأرض وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم حتى سميت بوصفهم كان معنى العبودية لله رب العالمين!

ورغم أن ما قد يتبادر إلى الأذهان حين الحديث عن الأنبياء واستحضار قصصهم معانى التضحية، والبذل لدين الله، والبطولات الدعوية والإصلاحية والجهادية التى حفلت بها حيواتهم المباركة، إلا أنَّ الله اختار أن يتكلم فى سورتهم عن معاني عبوديتهم وصلاحِهم بشكل أكثر تركيزًا من الكلام عن معانى الذل والإصلاح التى تكررت فى سور أخرى .

وكأنها إشارة لطيفة إلى معنى فى غاية الأهمية يغفل عنه كثير من أرباب الهموم الجسيمة والمسئوليات العظيمة، معنى أهمية العبادة وعظم شأنها فى حياة العظماء والمغيِّرين .

ولو كان من أحد أولى بأن يجد ما يشغله عنها أو يستبدله بها لكانوا هم، فهم أكثر الناس شغلا وهمّا، لكنهم مع همومهم ومسئولياتهم تجاه الأمم التى بعثوا إليها ورغم انشغالهم بجهادهم ودعوتهم إلا أن السورة العظيمة أظهرت بوضوح أنهم مع ذلك كانوا أعبدَ الخلق، وأسرعهم إلى الخيرات وأحرصهم على العمل الصالح .

فلنتأمل هذا المعنى بينما نتلو سورة الأنبياء متأملين تلك القيمة الجليلة،قيمة العبادة والصلاح جنبًا إلى جنب مع الإصلاح، لا يطغى أيهما على الآخر، ولا تشغلنا هموم أو مسئوليات مهما بلغت قيمتها وقدرها عن تلك القيمة، مرددين آيات السورة الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ﴾.

وكما قلتُ آنفا ليست هذه دعوة لعدم الاهتمام بأمور أمتك وواقعها، لكنني أدعوك ونفسي لنراجع موازنتنا للأمور، لنراجع قلوبنا،ولنجعلها على الأقلِّ ساعة وساعة . . .



حويط

إنه ذلك النمط الداهية العميق المطلع على بواطن الأمور وحقائق الأحداث، أو هكذا يزعم!

وهذا النمط يتبنى دائما وأبدا نظرية المؤامرة وذلك في كل صغير وكبير يحدث حوله

مع هذا النمط لا بد خلف كل حدث من أبعاد خفية ومؤامرات كونية وأغراض باطنية

كل ما يحدث على السطح بالنسبة له مجرد لفت للانتباه عن حقيقة المراد التي يقدح زناد فكره ويعتصر عقله ليصل إليها، عند هذا النمط سوء الظن مقدم وهو في نظره من حسن الفطن .

قد يكون ظهور هذا النمط سببه (اللسع) كثيرًا من (الشوربة)، مما أدى إلى إدمان النفخ في الزبادي خشية أن يكون هذا الزبادي الرطب مجرد طبقة سطحية مخادعة تخفي أسفلها (الشوربة) الحارقة التي ستلتهم بلسعتها ما تبقى من لسانه!

هذا هو منهجه وطريقة تعامله مع الأمور، عنده ما نحن -الناس أعني- إلا مجرد قطع شطرنج تحركها القوى الخفية بشكل محكم ودقيق ومقصود ولا مجال فيه للخطأ .

يظل هذا النمط يعظِّم داخليًا تلك القوى الخفية الخارقة حتى يكاد - دون أن يشعر- أن يؤلهها من دون الله، فتصير في تصوره حاكمة مدبرة للكون لا تغفل عنه لحظة ولا يخرج شيء عن تدبيرها.

لا مانع من الحذر، بل هو شيء مأمور به في كتاب ربنا معمول به في سنة نبينا ﷺ

والتعمق في التحليل والنظر في المآلات والبحث عن الروابط والأسباب والدوافع شيء مستحسن، لكن أن يصل التعمق والنظر الثاقب إلى التكلف الشديد، ويتحول الحذر إلى هاجس مستمر ووسواس قهري يتعاظم حتى يصل إلى تأليه الباطل وأهله فهذا هو مكمن الخطر، وهذا ما يقع فيه للأسف بعض أصحاب هذا النمط العميق المتعمق.

ولهذا النمط أقول: هؤلاء المتآمرون المزعومون ليسوا أربابا متحكمين، وما هم إلا بشر ليس لهم تصرف في الكون . .

نعم . . هم بشر يخططون، وقطعًا يتآمرون ويكيدون ويمكرون، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، لكن لا تنسى أن الله من ورائهم محيط، وعلى مكرهم وكيدهم رقيب سميع بصير، وهو سبحانه خير الماكرين.

تأملْ تلك المعاني جيدًا حتى لا يتسرب إلى قلبك ما حذرتك منه، وأثناء تعمقك وغوصك في بواطن الأحداث تذكر أن هذا الذي أمامك لا يستلزم النفخ فيه فقد يكون أحيانا . . مجرد زبادي!



رماديون على السلالم يرقصون

من الأنماط الآمنة التي يلجأ إليها البعض لكونها في مساحة مريحة دافئة مستقرة نمط الأخ (اللي على السلم)، وتستطيع تسميته أيضا بالمنتصفي الرمادي، ولقد صورت العبقرية الشعبية هذا النمط بكلمات قليلة لخصت بها العديد من المعاني العميقة التي قد تكل الأقلام والألسنة في بيانها.

لقد مثلت القريحة المصرية أولئك الرماديين المائعين المميعين ممن أدمنوا إمساك العصيِّ من المنتصف والتزلف لجميع الأطراف بالراقصين على السلالم، فلا «اللي» فوق سمعوهم ولا «اللي» تحت شافوهم!

والمثل الشعبي رغم جرأته واستدعائه لتلك الفعلة الخليعة إلا أنه يلخص ببساطة حال كثير ممن نراهم اليوم في مجتمعنا من أهل تلك الخصلة وهذا النمط.

فرغم فجاجة الفعلة إلا أنهم في النهاية ولميوعة خيارهم بالبقاء على السلم لم يتمكنوا من لفت أنظار أيٍّ ممن حاولوا استرضاءهم بمنتصفيَّتهم اللزجة!

حين تتشوش الرؤية ولا يستطيع الإنسان أن يميز بوضوح بين الصواب والخطأ، أو يقصر به فهمه ومعطياته عن إدراك خير الخيرين وشر الشرَّين خصوصا في أحوال مختلطة لم تعد الخيارات فيها بالبساطة السابقة، فإنه من

حق الإنسان في تلك اللحظة أن يرفض تلك الخيارات المتاحة التى لم يجد نفسه في أي منها، ولا ينحاز إلى أحدها لحين ظهور البديل الأقرب والأصوب في نظره، أو ربما يقوم هو بنفسه بطرح ذلك البديل يوما ما.

ولا شك أنه ليست كل النزاعات هي بين حق خالص وباطل مطلق، بل قد يكون الأمر اجتهاديا، وتقصر بالمرء أدوات الاجتهاد والترجيح بينهما فيختار الحياد الجزئي أو الوقتي تماما كما يختار السائق في خضم الضباب الكثيف أن يقف على جانب الطريق لحين انقشاع طبقاته وتمكنه من الرؤية والسير من جديد.

وفي هذه الحالة لا يوصف بالتذبذب أو الميوعة مثل هذا الحريص على خطواته، الرافض للوقوع في المحظور، أو صاحب الرأي المختلف الذي لم يجد نفسه في أي من الموجود.

لكن أن يكون هذا حال الإنسان دوما، متعللا بأن هذه هي الوسطية أو التوسط، أن يكون دائما على مسافة واحدة من الجميع حتى لو بدا له جليًّا أن الحق أقرب لناحية منهم، أن يكون موقفه دائما اللاموقف، ويكون الرمادي هو اللون المفضل له، أن تكون السلالم المنتصفية هي ملجأه المستمر، ومنتصف العصا هو المكان المختار دوما لدَيه؛ فهذا على الرغم من أنه أكثر راحة إلا أنه استسهال لا يفرق كثيرا عن نقيضه الذي يزعم أنه يرفضه، وهو نمط التابع الإمعة المتطرف في انحيازه واتباعه الأعمى!

ولأصحاب هذا النمط أقول ما هذه بوسطية وما أنتم بوسطيّين، بل أنتم ببساطة منتصفيون تحاولون إرضاء الجميع بمواقفكم الباهتة المائعة الرمادية.

ثمة فارق كبير بين المنتصفية وبين الوسطية، وتلك الأخيرة ليست دائما

هي المعنى الظرفي المتبادر للأذهان، والذي هو المنتصف بين طرفين أو نقيضين، وإنما يأتي اللفظ في القرآن كثيرا بمعنى الأعدل والأفضل والأكمل.

من ذلك قوله تعالى في شأن أصحاب الحديقة الذين منعوا حق الفقراء فيها: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾، وأوسطهم هنا أي أعدلهم وأفضلهم.

ومنه أيضا قول الله عن كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ﴾، أي من أعدل وأفضل وأمثل ما تطعمون أهليكم، وليس كما يتصور البعض من عادي طعامهم ومتواضعه. وعلى ذلك تدور أقوال ابن عباس وابن عمر وابن جبير وعطاء وابن سيرين والحسن وغيرهم.

أيضا جاء ذكر الوسط في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَـٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ولقد فسّر نبينا معنى ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ بالعدل، كما في الحديث الصحيح بالبخاري وغيره.

ويقول ابن كثير في تفسيرها: واخترناكم لنجعلكم خيار الأمم.

وقال القرطبي: «وليس من الوسط الذي بين شيئين في شيء».

وفي مختار الصحاح: والوسط من كل شيء أعدله.

فالوسطية هي الخيرية والعدالة والإنصاف والقصد، وليس شرطا أن تكون المنتصف كما تظنون، فتختاروا من بين كل خيارين خيارًا مائعا غالبا ما يكون بلا لون ولا رائحة، لمجرد أن يقال أنكم توسَّطتم!

إن المنتصف الذي إليه تركنون أو الحياد الذي تدمنون ليس ممدوحا ولا مذموما بإطلاق، ولا تلازم بينه وبين التوسط أو الوسطية، فقد يكون الحياد

في لحظة ما خيارا صائبا، بشرط ألا يكون منهجًا دائمًا، يجعل صاحبه شخصا مذبذبا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، ولا ينصر حقا ولا يبطل باطلا.

ولئن صح أن تكون الشجاعة وسطًا بين الجبن والتهور، والكرم وسطًا بين الإسراف والبخل، والتواضع وسطا بين الذلة والكبر؛ فكم من متناقضات لا يُتصور أن يتم التوسط بينها، بل الحق والصواب يكون بانحياز المرء قطعا لأحدهم، فلا توسط مثلا بين العدل والظلم، ولا بين الصدق والكذب، أو بين الإيمان والكفر، وكلما تطرف المرء تجاه كمال الصدق والعدل والإيمان فإنه يزداد بذلك خيرا وشرفا .

فتأملوا حقيقة ذلك المنتصف، وراجعوا مواقعكم جيدا، وفكروا بتأنٍّ، واختاروا على أساس الأقرب إلى الحق أو على الأقل الأبعد عن الباطل، ولا يغرنكم أمان اللاموقف، ولا تغرينكم راحة منتصف السلم فتمكثوا هنالك دوما، وصدقوني السلالم ليست مكانا مناسبا للعيش، والرمادي ليس دوما يليق بكم!



الممتحنون

- ماذا تقول في القرآن؟

- هو كلام الله غير مخلوق.

- إذًا فهو العذاب حتى تقول بقولنا أو تموت دونه.

كلمات تلخص أحداث فتنة عارمة مر بها المسلمون يومًا حين وصل المأمون لسُدة الحكم وقد اعتقد باعتقاد المعتزلة الذين رأوا أن القرآن مخلوق!

وبغَضِّ النظر عن التفاصيل الكلامية والفلسفية لذلك الصراع، والتي محلها كتب الاعتقاد لمن شاء أن يستزيد في فهم أصولِها وتفاصيلها، ويدرك قيمَة إصرار أهل السنة وإمامهم أحمد بن حنبل على رفض مقولة المعتزلة والتأكيد على أن القرآن ليس مخلوقًا، فإن من أهم الفوارق بين تلك المعركة وغيرها من المعارك الفلسفية والكلامية في التاريخ الإنساني عموما والإسلامي خصوصا أن أصحاب ذلك الرأي قرروا فرضَه على الناس.

بل وقرروا امتحان الخلق عليه!

وهذا هو ما نقل تلك المسألة من بطون الكتب وقاعات التناظر إلى خنادق الفِتَن وأقبية السجون، وحوَّل أدوات الصراع فيها من لسان ومحبرة إلى سوط وسيف.

ما حدث في فتنة خلق القرآن هو ببساطة تلاقح بين السلطة والفكرة، وسيطرة من كهنة الفكرة على صاحب السيف، ومن ثم كان الإجبار، وحدث الإكراه بعد أن صارت للفكرة أنيابٌ تنهش مخالفيها.

ولقد ترخص كثير من الناس، وقبلوا أن يبتلوا على عقيدتِهم ويُختبر مذهبهم، ثم قبلوا بعد ذلك وتحت وطأة التهديد والتعذيب أن يرضخوا ويتقوا من الظالمين تقاة ويقولوا تعريضا ما يرضيهم، اللهم إلا بضعة نفر، ثبتوا وقتل أغلبهم كابن نصر ومحمد بن نوح وثبت الإمام أحمد بن حنبل رغم التعذيب الرهيب حتى كشف الله الغمة، وجاء عهد المتوكل وأوقف تلك المهزلة.

أحداث شبيهة وقعت في المغرب أثناء حكم دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين، حيث فُرض على الناس في الدولة الأولى المذهب المالكي وتم تعزيرُ من لم يلتزمه، بل ووصل الأمر إلى إحراق بعض الكتب المخالفة للمذهب، ثم جاء زمان محمد بن تومرت مدَّعي المهدية وقائد دولة الموحدين، ورغم أنه ادَّعى أن تلك الأفعال من أسباب ثورته على دولة المرابطين إلا أنه فعل مثلها وزاد عليها ما هو أشد، فنكَّل بمن تمسكوا بمذهبهم المالكي ورفضوا المذهب الظاهري الذي اعتنقه وأتباعهُ، وحرَّق كتبهم ومصنفاتهم، وأكره دولته على مذهبه.

اليوم نلحظ واقعا شبيهًا يمتحن فيه الناس، لكن هذه المرة ليس على عقائد وأقوال دينية فحسب، بل على رؤى وخيارات سياسية وفكرية وواقعية، يحدث ذلك من خلال هذا النمط الذي ألقي عليه الضوء في هذا الفصل، نمط الممتحنين على الرأي.

هذا النمط يمتلك نفسية تشبه نفسية المعتزلة الذين قرروا امتحان الناس

على قولهم بأن القرآن مخلوق، فإما أن تقول بقولهم وإما نصل السيف على رقبتك!

نمطنا هذا أيضا يمتحن الناس لمعرفة رؤاهم أو خياراتهم ثم إسقاطهم أو رفعهم على أساس مواقفتها للمُمتحنين أو مخالفتها.

بل يصل الأمر إلى الامتحان على أشخاص بأعينهم والرأي فيهم، وربما يكفي الأخ الممتحن إن كان من محبيهم بكونك لم تذكرهم بإجلال فيسقطك، أو يكتفي ممتحن آخر بكونك لم تذكر من يكرههم بسباب كاف فيسقطك!

ربما لا يملك نمط الممتحنين الجدد سيوفا يضعونها على رقاب الناس ليقولوا بقولهم كما تيسر للمُمتحنين القدامى، لكنهم يملكون ألسنًا وأقلاما أحدَّ من السيوف، يمزقون بها سمعة مَن يخالف آراءهم واختياراتهم ومواقفهم.

وبدلا من أن تتناثر دماء المخالفين، فإن أعراضهم وكرامتهم هى التي تتناثر مختلطة برذاذ الاتهامات بالعمالة تارة، والخيانة تارة آخرى، والتفريط أو الغلو تارات وتارات، فيُقتل المخالفون معنويًّا إن لم يتم قتلهم واقعيا كما حدث أيام تلك الفتنة.

إن تحول الخلاف والنزاع إلى امتحان يخضع فيه الخلق إلى نموذج إجابة يحدده مخلوق مثلهم هو أمر في غاية الخطورة في ذاته، وفكرة لا يعرفها الإسلام ولا يقرُّها، ولم نعرف في صحيح ديننا الأمر بإقامة محاكم تفتيش للإمساك بالمخالفين والتنكيل بهم.

لكن للأسف يبدو أن ممتحنًا خفيا يقبع في أعماق هذا النمط، وينتظر

أول خلاف لرأيه ليتضخم ويتعاظم ثم يمتحن الناس على رأيه، ويقيِّمهم على حسب رضوخهم لخياره.

وما دام أمثال هؤلاء ينظرون دومًا إلى اجتهادهم على أنه الحقيقة المطلقة، الذي ينبغي للجميع أن يهللوا لها ويرددوا صداها ويخضعوا لها بحذافيرها وبشكل كامل التطابق مع خيارهم ورؤيتهم، فسيستحيل عليهم يومًا أن يتقبلوا حقيقة أن مخالِفَهم ربما يكون شريفًا مريدًا للحق.

وطالما لم نحدد خطوطا فاصلة بين الثوابت التي يوالَى ويعادى عليها، وبين المتغيرات الأكثر مرونة، فسيظل الحال على ما هو عليه، بل ولربما يسوء ويصل في مرحلة ما إلى واقع شبيه بفتنة خلق القرآن.

لم يعد هناك مناص من حتمية ترسيم تلك الحدود الفاصلة بين الثابت المحكم والمتغير النسبي، وما يحاسب عليه المرء وما لا يحق لأحد سؤاله عنه، وإلا صرنا إلى الأبد أسرى لثقافة الامتحان على الرأي، ولصار لَدَينا في كل يوم فتنة خلق قرآن جديدة.

لكن ينبغي على العقلاء قبل كل شيء أن يحطموا أسوار لجان امتحانات الرأي المنصوبة لهم من المخلوقين، ويعلنوا أن مبدأ الابتزاز والمساومة على المواقف مرفوض تماما، وأن الابتلاء والاختبار إنما يكون من الخالق وحده، وأنهم ليسوا بحاجة إلى درجات ممتحنيهم ولا نياشين وأوسمة مبتزيهم، وليسمعها أهل هذا النمط جلية واضحة:

كفاكم امتحانا للناس!



العلاَّمة الفهَّامة

ربما يكون أهل هذا النمط بالفعل على دراية بالمسائل الفقهية، ويحفظون الكثير من المتون العلمية، مما أدى إلى تسرب هذا الاستعلاء الشديد على الخلق، والإحساس بنوع من الاحتقار لمن هم دونهم،وهذا للأسف من أكثر الأشياء التي تصدُّ الناس عن العلم وقبول الدعوة، استعلاء العالم بعلمه والداعي بدعوته!

أصحاب هذا النمط حين يعلِّمُون الناس فهم يعلِّمُونهم باستعلاء ممتعض، وكأنهم يمنون عليهم بتعليمهم، ولا يتركون فرصة يبرزون من خلالها جهلَ الآخرين إلا انتهزوها، ولا يدعون سبيلا يسخرون به من قلة زادهم العلمي إلا سلكوه!

إنهم لا يخالطون عوام الناس ببساطة ولا يسمحون أن يخاطبهم الخلق بشيءٍ من التبسط والانفتاح، بل لا بد طبعا من أن يعرف كلٌّ مقامَه، والعين لا تعلو أبدا على الحاجب، فلا بُدَّ أن تعمل ألف حساب وتعبر البوابات والحجبة لتستطيع الوصول إلى شرفِ مخالطتهم والحديث معهم، حيث لا ينعم بذلك إلا من اختاروهم لهذا الشرف العظيم وسمحوا لهم بهذا الفضل الجزيل.

وحتى ولو انبهر البعض بذلك الأسلوب أو طبلوا لشذوذاته وغرائبه التي

يحرص هؤلاء على عرضها لبيان مدى سعةِ اطلاعهم وعمق درايتهم، فإن هذا المسلك سيؤدي في النهاية إلى أن يبغضهم الناس، وربما يحدث الأخطر وهو أن يبغضوا بضاعتهم، وينفروا من دعوتهم، ويزهدوا في علمهم.

إن العالم الحق يدرك بكل حرف يتعلمه أنه قد انتقل من جهل به إلى علم هو محض فضل من الله، ويتذكر دوما أن فوق كل ذي علم عليم، فلا يزداد بعلمه إلا تواضعًا وانكسارًا، ويحب للناس ما يحبه لنفسه، العالم الحقّ هو الذي يخالط الناس ولا يخاطبهم من فوق أبراج عاجية < <

الذي يجدونه بينهم في الشدائد والأزمات ..

الذي يشعرون بقربه منهم ..

من مشكلاتهم ..

من همومهم ..

يحيا حياتهم ..

ويأكل من طعامهم ..

ويمشي في أسواقهم ..

و ذلك لا يقلل من هيبته وحشمته ووقاره الذي يحفظه سمته، وتُرسخه مروءته، وليس علوه على الناس واعتزاله إياهم، فلا يعرفهم ولا يعرفونه، بل هو يألف الخلق ويألفونه، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف، وهو يعلِّم الناس من خلال سلوكه وكلماته وحاله جنبًا إلى جنب مع مقاله، وهو في عدم تكلفه يقتدي بمورثه ﷺ الذي ما كان يومًا من المتكلفين، وكان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولا يعرف مجلسه بين أصحابه رضوان الله عليهم، أولئك الذين شهدوا له أنه كان أرأف معلم، بأبي هو وأمي ﷺ.

كان يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد ويقول: إنما أنا عبد!

اختار أن يكون في بيته في مهنة أهله، يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ولا يقف على بابه حارس ولا حاجب، يركب بغلته، ويحج على رحل رثّ، ويفترش حصيرًا خشنا يؤثر في جنبه الشريف!

يأبى أن يقوم له أحد، ويحرص أن يجلس حيث انتهى به المجلس، حتى أن الأعرابي من هؤلاء كان يأتيه بين أصحابه لا يعرفه فيقول: أيّكم محمد؟

كان دوما مثالا للتواضع وخفض الجناح وعدم التكلف، ما يترك يدَ أحد سلم عليه حتى يكون هو نازعها أولا، وما نحى رأسه عن أحد تيمم أذنه يحادثه في أمر أهمه حتى يفرغ، وما صعر يوما خده لصغير ولا كبير!

تأتيه الصغيرة لبعض شأنها فيذهب معها وإلى جواره رجل من عظماء العرب ظن للحظة أنه ملك يمشي إلى جوار ملك، فإذا به يقف مشدوهًا لفعله حين يتركه ويذهب مع الجارية ليشفع لها عند سيدها الذي ضربها، يمزح مع هذا، ويبسط وجهه في وجه ذاك، ويلين لأولئك . .

وهل ننسى أبدا حين اشتمل زاهر بن حرام مازحا وقائلا: من يشتري العبد؟ فيرد زاهر بانكسار: إذًا تجدني كاسدًا، فيجبر خاطره ويطمئن فؤاده قائلا ولكنك عند الله لستَ بكاسد.

لو شاء لكان أغنى الناس وأعلاهم ملكا وأرفعهم مجلسًا، ومع ذلك يجيب دعوة خادمِه أنس ليطعم من طعامِه البسيط في بيت جدته مليكة، ثم يقوم ليصلي بهم على حصيرٍ بالٍ قد اسود لونه من كثرة الافتراش.

لم يقبل يوما أن يُطرى أو يغلو فيه الخلق ويرفعوه فوق منزلة المخلوق، وكان يَقول بأبي هو وأمي: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام.

وحين جاءه الرجل يناديه: يا خير البرية، ينهاه بتواضعٍ لو وزع على أهل الأرض لوسعهم قائلا: «ذاك أبي إبراهيم عليه السلام»، وكذا ينهى الأمة أن يخرج منها مَن يقول يوما: «أنا خير من يونس بن متى».

هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه العالم الحقّ والمعلم القدوة بفعلِه قبل قوله، وببساطته وتواضعه وليس بتكلفٍ واستعلاءٍ يظن البعض أن العلم الواسع يبرره وكثرة الحفظ تسوغه!

إن العالم الحق هو أحد أولئك الذين قال الله فيهم ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

تأمل ..

هونا ..

وسلاما ..



متطرف

لست أعني بالتطرف هذا المعنى الذي يتبادر إلى الذهن حين تطرق المسامع تلك الكلمة، لم أقصد به تلك التهمة الجاهزة التي شهِدنا عقودًا قصرها وحصرَها على المتديِّنين، واستعمالها في حقهم حصريًّا، وذلك كفزاعة إعلامية مملة يندر أن يخلو منها عمل درامي أو أدبي في السنوات الأخيرة.

لكنني ها هنا أقصد عموم اللفظ الذي صار سمةً موجودة بين جميع فئات المجتمع على تفاوت توجهاتها، وخصوصا في هذه الأيام التي صارت فيها الحواف القاصية ملجئًا دافئا يأوي إليه المتطرف، متحصنا برفاقه المتطرفين راضيًا بهم، ورافضًا كل من سواهم، سواءً المنتصفيين المائعين الذين تكلمت عنهم آنفا في نمط (الراقصون على السلالم)، وهم أولئك الذين تحصنوا، هم أيضا بالمنتصف، واختبأوا في ميوعة خياراتهم وتذبذب مواقفهم، أو المتطرفين على الحافات الأخرى وما أكثرها هذه الأيام.

أيام لا بد أن تكون في أقصى طرف ما؛ لكي تُقبل بين باقي جموع المتطرفين الذين يعيشون فيها.

أيام صار في كل اختيار أطراف، وفي كل رأي أطراف، وفي كل أزمة أطراف، وفي كل موقف صغر أو كبر أطراف وأطراف.

وبغض النظر هل يسوغ هنا الخلاف أو لا يسوغ، وهل هي مسألة من معاقد الولاء والبراء ومواطن المفاصلة العقدية أم أنها أمور اجتهادية تتباين فيها الأنظار وتتفاوت فيها الرؤى، فإن كل ذلك لم يعد مهما.

المهم لدى هذا النمط أن تتطرف في كل صغير وكبير.

المهم أن تكون ألفاظك أشدَّ وأحدَّ الألفاظ، وخياراتك دومًا على أقصى الأطراف، وآراؤك باستمرار في أبعد نقطة من الحافة المقابلة.

لا بد لتكون من هذا النمط أن تقدس متبوعك تمام التقديس، وأن تطبل لحليفك ومحبوبك، وأن تحتفي بكل مواقفه، وأن تدعم كل قراراته، وأن توقع له صكا دائما بالثقة، أو (شيك) على بياض تقر من خلاله أنه يستحيل أن يخطىء، ولئن بدا يوما لكل عين أنه مخطىء فلتكذب عينيك، ولترح عقلك، ولتقل: أكيد له مأرب ومقصد عظيم لم أستطع بعقلي المسكين إدراكه . .

لكن يخطىء كالبشر؟!

معاذ الله!

لا بد كذلك أن تبغض مخالفك بغضا خالصا، عليك أن تشيطنه تماما، ولا تقبل منه أي شيء حتى لو كان منذ أيام حليفا لك وحبيبا وصاحبا، وحتى لو كانت تجمعكما كثير من المشتركات والذكريات والآمال والأحلام. فلقد صار طرفا في مجتمع الأطراف والتطرف لذا فلا بد من هدمه بالكلية.

وإني سائل صديقي المتطرف . . لماذا لا تحاول أحيانا أن تعدل وتبتعد عن الحافة وتجتنب طريق الغلو والمبالغة؟

لماذا لا تفكر في أن تُنصف فتُقَوِّم من تراه مسيئا حين يسيء، وتثني عليه

حين يحسن ساعيا لأن تدور مع الحق حيث دار؟

لماذا لا تجرب أن تحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون يوما ما بغيضك، والعكس كما أمرك نبيك ﷺ

لماذا لا تُقَيِّم المخالف بتقييم تراكمي أو كلي.

إن حاولت أن تختلف دون أن تتطرف أو تتخلى عن عفة لسانك وأخلاقيات ملتك، وتنأى بنفسك عن مستنقعات التراشق وأوحال العنف اللفظي، لتغرس فكرة أو تروي معنى أو تؤصل لقيمة سامية تدوم من بعدك وينتفع الخلق بها، وتكون لك رصيدا يوم لا ينفع مال ولا بنون.

أم أن هذا كله لم يعد مسموحًا به وليس لأهله مكان في هذه الأيام

أيام الأطراف . .

والمتطرفين



الهدم الهدم

الهدم أسهل كثيرا من البناء . .

الهدم يجيده أي شخص وكل شخص، بينما البناء ليس كذلك . .

الهدم تأثير وتغيير كما أن البناء تأثير وتغيير، ومن لا يجيد التأثير بالثانية فكثيرا ما يلجأ للأولى فقط ليشعر أنه مهم ومؤثر . .

تلك قواعد يعرفها عمليا كل طفل منذ نعومة أظفاره، حين يجد لذته ويشعر أنه فعل شيئا بتكسير لعبته أو إتلاف دميته!

المشكلة أن تستمر معه تلك العادة وأن يكبر وتكبر معه تلك اللذة، لذة التأثير والتغيير ولو من خلال التحطيم والهدم، اللذة التي تنبت لنا هذا النمط الذي نراه كثيرا اليوم، نمط الهدَّامين والهدَّامات، إنه نمط قد اتخذ من الهدم منهجا، ومن نهش المخالف سلوكا، ومن إسقاط من لا يعجبه سبيلا وطريقا وأسلوب حياة!

نمط لا يعرف الإعذار، ولا يقبل الأعذار، ولا يقيل عثرة لذوي الهيئات أو مَن دونهم، وهو لا يفرق بين من هو عدو مجرم مضل مبين، يتدين المرء بالتحذير منه، وبين من هو بشر يخطىء ويصيب . . فقط الهدم ثم الهدم، هذا هو الحل عند هؤلاء ليس إلا، الهدم الهدم وحسب . .

فهو بلا شك أسهل وتأثيره أسرع، لكن البناء أصعب بلا شك، وليس

الكل يجيده، بل ربما لا يريد أن يجيده.

قارن بين المجهود والإبداع اللازم لإقامة صرح أو رفع بنيان أو بذل شيء ينفع الناس، وبين المجهود اللازم لنقض أي من ذلك وهدمه أو تحطيمه، وعندئذ سيتضح لك الفارق جليًّا.

فلماذا تتعب نفسك أيها الهادم في البناء بينما التحطيم أسهل تأثيرا وأكثر صخبا؟!

لماذا تنفق جهدك في تشييد ما ينفع أو إصلاح ما تكسر، بينما تستطيع بسهولة ويسر أن تكسر المزيد والمزيد؟!

لماذا توقد شمعة بينما تستطيع ببساطة أن تلعن الظلام؟!

هكذا يفكر الهادم، وهكذا يستسهل الطريق، ويظن أنه لن يعلو إلا على أنقاض الآخرين، وينسى صاحبنا الهدام أن الذي يخفض ويرفع ليس هو ولا ملء الأرض من مثله، ولكن من يفعل ذلك هو رب العالمين، وهو وحده القادر على غرس القبول لدعوة أو فكرة أو شخص أو هدمها إن شاء: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾.

هكذا بين لقمان لابنه تلك القاعدة النفيسة التي بها تشفى صدور كثير ممن اتخذوا هدم غيرهم طريقًا مُحاولًا الارتقاء فوق أنقاضهم، ليس بهذا ترتفع الهامات، ولا على أنقاض الآخرين تقوم الأمم وتعلو الرؤوس، ولكن ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، وما عند الله لا ينال إلا بما يرضيه.

لو أن صاحبنا الهدام انشغل بأداء ما عليه واجتهد في العمل والبناء بصدق ثم ترك النتائج لمن يخفض ويرفع ومن بيده الضر والنفع لارتاح وأراح.

لو أنه جرب يوما أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأعظم ذلك هو حب هداية الخلق لما يرضي الله وصلاح الحال، فشرع في نصح أخيه بدلا من هدمه، وبدأ محاولة إصلاحه بدلا من إسقاطه، فالظن بالله أن لن يخيب سعيه، ولن يضيع جهده، وسيجد ثمرة ذلك على قلبه وعمله وفي عقبه، وسيستبدل تلك المشاعر السوداء في صدره بالطمأنينة والرضا وحب الخير للغير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أما لو اخترت يا عزيزي دوما أن يكون أثرك عن طريق الهدم، وظللت على هذا الحال من عدم التفريق بين من يستحق الإسقاط لشناعة جرمه وبين عثرة تقال وزلة تعذر وخطأ يغتفر فصدقني لن ينالك إلا اللهاث، وسيعمي عينيك غبار الهدم المستمر حتى لا تلحظ ذلك المعول يأتي من خلفك تحمله يد أولئك الذين تعلموا منهجَك واقتفوا أثرك، ثم أتوا ليطبقوا ما تعلموه منك عليك، وليعمِلوا في جسدك معاول أنت أهديتَهم إياها وليسقطوا بها بنيانك مع أول زلة تبدر منك، وصدقني ستزلها لا محالة فما أنت إلا ابن لآدم وبنو آدم خطّاءون، خطاءون لكنهم ليسوا دائما يستحقون الهدم لأخطائهم!



جنب الحيط

امشي جنب الحيط يحتار عدوك فيك

قاعدةٌ لطالما كان يحلو للبعض ترسيخها في النفوس من خلال ترديدهم المستمر لهذا المثل الشعبي.

قاعدة ترسخ للسلبية، وتؤصِّل للتخاذل والجبن واعتزال الواقع واليأس من خوض غمار الحياة والتأثير فيها وتغييرها للأفضل.

ويعد نمط (اللي ماشي جنب الحيط) -وأحيانا داخل الحيط- من أكثر الأنماط التي نجدها حولنا ممن يرفعون شعارات:

وأنا مالي يا عم،

دع الخلق للخالق،

خليك في نفسك،

أنا ومن بعدي الطوفان . . .

إلى آخر تلك العبارات المؤصلة للسلبية والأنانية المطلقة!

إن أتباع هذا النمط هم قوم يتعذرون ويتلكئون، وعن قول الحق والصدع بالنصح هم معرضون، ورغم الحاجة إليهم هم مبتعدون، وعن قومهم هم محتجبون، ولقضايا أمتهم هم مهملون، وعند نقاط المفاصلة

لا يظهرون، وإلى ربهم لا يعذرون، ولأمتهم لا ينصحون، وللواء قضيتهم لا يرفعون.

وهذا النمط يعتقد بأن صدعه بما يراه حقًّا وجهره بما يعتقده صوابًا وصدقا إنما هو مرتهن بمظنة استجابة الناس له، وطلبهم لسماعِه وقبولهم لقوله، فإن غلب على ذلك الظن أنهم سيستجيبون نطق، وإن آنس منهم رغبة في سماعه صدع، وإن كانت الأخرى سكت وكتم وأعرض!

إنه نمط هروبي انعزالي، يظن أن الإيجابيةَ مهلكة، والتغيير ترف لا شأن له به، والنصيحة والتذكير بالخير والدعوة إليه تدخل في شؤون الغير أو (حشرية)، قد طابت نفسه (جنب الحيط) وارتاح ضميره بمسكِّنات «لا فائدة» ومهدئات «هلك الناس»، ونسي أو تناسى أن المرء إنما يصدع لينجو، وإنما ينصح ليُرضي ربًّا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلى النطق بالحق والجهر به ممن يسمعونه سواءً أستجابوا له أم لم يستجيبوا، متمثلا نهجًا قويمًا لطالما سلكه الدعاة وأقره كتابُ الله، نهجا فحواه: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ ..

وما يدريه ألا يكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾؟

لكن صاحبنا لا فرقَ لديهِ في كل هذا، ويفضل حائطه الدافئ الذي يهوى السيرَ إلى جواره مطمئنًّا لتلك الرؤى والتصورات المريحة، وكيف أنه لا شأن له بغيره، ولندع الخلق للخالق!

وله في تلك الرؤى أو التصورات السلبية عدة شبهات، من أهمها أن مسألة التدخل في شؤون الغير هذه، وكيف أنه لا شأن له بغيره ولندع الخلق للخالق!

وكأنه لم يقرأ في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن، وكيف ظل هذا الأخير يحاوره ويكلمه ويعظه ويحذره من مغبة أفعاله لدرجة أن قالها له صريحة في النهاية: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا).

بمنطق صاحبنا هذا فإن الرجل المؤمن أخطأ بخروجه من (جنب الحيط) وسؤاله لصاحبه، وأجرم بنصحه له وتدخله في شؤونه، وكان عليه أن يدع الخلق للخالق ويتركه في حاله، أو أن يستدعي شيخا بعمامة ليعظه ويذكره بالله!

هل يعقل أن يذكر لنا ربنا تلك القصص لنرفض ما فيها والقيم التي تغرسها؟!

وكأن النصيحة والدعوة مخصوصة بفئة محددة، والتغيير منوط بطائفة بعينها، أو بأرباب مهنة ما وسَمْت معين، وبالتالي فلا جناح عليه إن رأى الخطأ وسكت عنه، ولا حرج إن أسقط عن نفسه قيمة سماها النبي ﷺ الدين فقال: «**الدين النصيحة**».

وعلى ذلك دارت خيرية هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

لكن صاحبنا يظن أن كل ذلك بمنأى عنه لأنه في نظر نفسه مجرد شخص عادي، والعادي مكانه دائما هناك .. (جنب الحيط).

لكن المتأمل في كتاب الله يجد بطلان تلك الشبهة واضحًا جليًّا، ويرى كم كان هناك رجال وفتية لم يحقروا أنفسهم، بل قاموا ونصحوا لقومهم

وقالوا الحق كما قاله أصحاب الكهف: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

ولطالما وُجد الرجال الذين لم يخافوا في الحق لوم اللائمين ولا قمع الطاغين أو بطش المفسدين أو امتهان المسفّهين فغادروا حائطَ السلبية، ومشوا في عرض الطريق ناصحين لأمتهم حريصين على هداية شعوبهم.

ولَكَم تكرر هذا المعنى في كتاب رب العالمين، ولكم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين، ولتستقر تلك العقيدة، ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق والرغبة في هداية الخلق، بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة، وبدون تعليق الأمر على مظان الاستجابة من عدمها.

بتلك القيمة ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

رغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة القوم الجبارين وقعود بني إسرائيل عن ذلك، ورغم أن كثيرًا من الناس سيعلقون هنا مسؤولية النصح والبلاغ على النبيين موسى وهارون ﷷ، إلا أن رجلين من عوام الناس -على قول جمهور المفسرين- لم يفعلا ..

إنهما رجلان عاديان، لكن الفارق أن الله قد أنعم عليهما بالتقوى والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح، فاستشعرا مسؤولية وعلما أن عليهما واجبًا تجاه أمتهما، فلم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس بل

تكلما ونصحا وصدعا وأعذرا.

صحيح أن بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما، لكن يكفيهما أن ربهما قد ذكرهما وأنعم عليهما وخلد سيرتهما بتلك القيمة التي تُبرز أرقى معاني الإيجابية والرغبة في تغيير الناس للأفضل مهما قست طبيعتهم ووعرت نفوسهم وصعبت استجابتهم.

وبتلك القيمة أيضا خلد ذكر أولئك الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت، أولئك الذين حاول المثبطون تخذيلهم وإبطاء حركتهم الدعوية الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر متحججين بهلاك الناس لا محالة، ومدَّعين أنه لا سبيل لهدايتهم ولا قيمة لوعظهم ودعوتهم، فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾..

فكان الرد حاسما ساطعا براقا: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وعلى الدرب نفسه سار من قبلهم مؤمن آل فرعون، ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفًا من بطش الطاغية مدعي الألوهية، لكن تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الصدع والحرص على الأخذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحان موعدها، ومن ثم تكلم الرجل وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدى خوفه على قومه ورغبته في هدايتهم.

وكذلك كان مؤمن سورة ياسين، الذي جاء من أقصى مدينته لينصح لأمته رغم وجود ثلاثة أنبياء في زمانه.

وهكذا كان رجال من عموم الناس في كل زمان ومكان ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم قول الحق والصدع بالأمر، وعدم كتمان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم، وامتزج ضياؤه

بقناعة عقولهم فقرروا أن يكون لهم تأثير، وأن تعلوا حياتهم الإيجابية ويشاركوا في التغيير ولا يحقروا أنفسهم، وأن يغادروا الحوائط التي أدمن أقوام السير إلى جوارها .. حوائط السلبية.



قشرة

قبل سنوات كان البدء، وواهًا لأيام البدء!

أيام كان قلبه فيها متقدًا بالحماس، وعيناه دوما مستعدة لذرف دمعات ساخنة، دمعات ندم وتوبة على ما فات، واشتياق لما هو آت، وخشية من حساب بعد الممات.

كان ورِعا يترك المشتبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وكان شديد الحرص على إرضاء مولاه راميا بسهام خير في كل مرمى، لا يحقر عبادة، ولا يقلل من شأن قربى، ولا يسمع عن باب طاعة إلا سابق إليه.

كان إذا سمع النداء هبَّ مسارعا للإجابة، وإن فاتته الجماعة حزن واستغفر وعاهد الله ألا تفوته بعدها، ما غضب يوما من نُصحٍ، ولا استكبر على ناصح، بل كان هيِّنًا ليِّنًا في أيدي إخوانه، محبا لهم، راغبا في صحبتهم، حريصًا على مودتهم، متلهفا للقياهم والاجتماع بهم في حلقِ العلم ومواطن الخير.

كم كان رقيق القلب قريب التأثر، وقّافا عند حدود الله، كم كان شغوفًا بكتاب ربه مقبلا على حفظه وتلاوته وصحبته، مشتاقا إلى حمله كاملًا في صدره متخلقا به في جوارحه.

كم كان غيورا على حرمات ربه، مهموما بأمر أمته، حريصا على

رفعتها، وراغبا في صلاح حالها وهداية أبنائها، كم كان رائعا!

لكن . . ماذا أصابه!؟

الشكل هو هو، والهيئة شبيهة، لكن العينين مختلفتان، بريق الحماسة قد انطفأت جذوته في مقلتيه حتى كادت تخبو، نعم هو نفس السمت إلا أنه صار كأنما هو قشرة تكاد تتشقق، وعند أول محك تتصدع، لتظهر عندئذ من تحت تلك القشرة أخلاق قديمة ظن أنها قد اندثرت منذ زمن بعيد،

ولقد صارت دمعاته عزيزة، واختلاجات قلبه عند الموعظة نادرة، وصار الامتثال وتصحيح المسار أملا بعيد المنال!

أين مصحفه صغير الحجم الذي ما كان يفارق يده أو جيبه؟

أين مسواكه وأوراده ونوافله؟

بل أين فرائضه؟!

ها هو النداء يعلو داعيا للفلاح، لكن الهبة القديمة قد اختفت، وحل محلها التثاؤب، واستبدلت بالمعاذير والشواغل، وها هي معايب إخوانه قد تبدت إليه وتعاظمت في عينيه، ليحل التربص محل المودة، ولتستبدل الأحقاد بالمحبة الإيمانية القديمة . .

ماذا حدث؟

ماذا دهاه؟

أفطال عليه الأمد فقسى قلبه وجفت عيناه وتبلدت مشاعره وبلي ثوب الإيمان في جوفه؟

أم أنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأسلم القياد لنفسه الأمّارة وعدوه

اللدود فانسلخ من الآيات التي أوتيها وصار من الغاويين!؟

معقول؟!

ولماذا؟!

ما الذي غيره؟

وما الذي يستحق؟

وماذا ينتظر ليعود؟!

وهل يضمن أن يُمهل ليعود؟!

يعود لأيام البدء، وما أجملها من أيام!

ألم يأن بعد أن يعود إليها؟

﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

ألم يأن أن ينفض عنه تلك القشرة الزائفة ويستبدلها بمعدن نفيس حقيقي، معدن الاستقامة على مراد الله!؟



علقها في رقبة عالم

علقها في رقبة عالم واخرج منها سالم

شعارٌ مشهور لنمط من المسلمين، قرروا أن يعيشوا مترخصين، ويتعاملوا مع دينهم على أنه مجموعة كبيرة من الرخص، شعار رسخه للأسف خطاب يتخذ سبيل التوسع والإسراف الرهيب في الرخص ليتكلف الظهور بمظهرٍ وسطي معين.

في النهاية دائما سيجد رخصة وسيعثر على من يقنعه أنه سالم!

لست أعني بالترخص إتيان الرخص الشرعية التي وردت بالدليل الشرعي الصحيح، فتلك رخص ربانية يحب الله أن تؤتى، وأن تعملَ بها أمته، كالجمع في السفر، والفطر للمريض والمسافر، وما إلى ذلك من تخفيف على الخلق يريده المولى جل وعلا، وهو القائل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾، وهو يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه، وفي صحيح مسلم: «عليكم برخصة الله الذي رخص لكم».

لكن ما أعنيه بالمترخص المذموم هو ذلك الملفق الباحث عن رخص العلماء في كل مسألة، والآخذ بشذوذاتهم وغرائبهم والمتتبع لزلاتهم، ومن بحث عن ذلك فلا بد سيجده.

ذلك لأنه ما من عالم إلا وله زلة أو رأي شاذ يخالف الدليل الصحيح،

وليس من بين العلماء معصوم لا يخطىء، أو من لا يغيب عنه الدليل أحيانا فيفتي باجتهاده.

ربما يؤجر العالم على ذلك الاجتهاد الذي اضطر إليه في زمانه، لكن هل يؤجر من اتبعه لمجرد أنه علقها في رقبة عالم بعد أن أعجبه القول وجاء على هواه فأخذ به ورفض ما دلت عليه الأدلة الصحيحة؟!

الحقيقة ليس شرطًا . . لا يقبل منه ذلك إلا إن كان جاهلا لا يستطيع البحث والسؤال ولم يبلغه الدليل الصحيح، أو أنه لا يستطيع التمييز، ولا يملك إلا التقليد الذي لم يفعله بهواه واتباعا لميله ورغبات نفسه.

أما ذلك النمط الباحث عن الزلة المفتش عن الرخصة ليتبعها أينما كانت في كل شأنه فهذا نمط في النهاية سيجتمع فيه الشر كله كما ورد عن سليمان التيمي قال: «لو أخذتَ برخصة كل عالِم اجتمع فيك الشرّ كله».

وعن القاضي إسماعيل المالكي قال: «دخلت على المعتضد فدفع إلي كتابًا نظرت فيه وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء وما احتجّ به كلٌ منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق، فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه».

ولقد نصّ الإمام أحمد وغيره أنه ليس لأحد أن يعتقد الشيء واجبًا أو حرامًا ثم يعتقده غير واجب أو غير حرام بمجرّد هواه، مثل أن يكون طالبًا لشفعة الجوار فيعتقدها أنها حق له، ثم إذا طُلب منه بعد حين شفعة الجوار اعتقد أنها ليست ثابتة اتباعًا لقول عالم آخر، فهذا ممنوع من غير خلاف.

إن يسر الشريعة قائم في ذاتها، وليس في تتبع الزلات ولا اختيار الأقوال على أساس الهوى، بل هذا مما نُهيَ عنه لأنه ميلٌ مع أهواء النفوس، والشرع قد نهى عن اتباع الهوى، وفي الأثر الصحيح «ما خُيِّر النبي بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا».

تأمل . . مالم يكن فيه إثم!

فهل زال كل إثم بمجرد أنَّ عالما من أقصى المشرق أو المغرب لم يبلغه دليل التأثيم؟!

إن مآل هذا المنهج هو دين ممسوخ لا يملك منع النفوس من اتباع أهوائها وشهواتها، حيث يكون المعيار الوحيد للحكم على الأشياء هو موافقتها لهوى النفس، مما سيؤدي في النهاية إلى الانسلاخ الكامل من اتباع الدليل إلى اتباع الشذوذات والزلات ثم الوقوع في المحرمات، فلا يوجد محرّم تقريبا إلا وهناك من قال بإباحته إلا ما ندر من المسائل المجمع عليها، حتى لا تتبقى لمن انتهج هذا المنهج حدودًا تتقى ولا محرمات يخشى أن تنتهك.

فهل هذا هو الدين الذي نريده أن يتبقى لنا؟

دين لا يملك أن يمنعنا من محرم أو يحكم شهوة في حياتنا لمجرد أن عالما زلَّ أو ترخص!

سل نفسك، وتبين أمرك، واتبع الدليل لا الهوى تزل عنك خصلة التلفيق، ولا تكونن دوما من المتبعين لرخص العلماء وزلاتهم، واعلم أن تعليقَها في رقبة عالم لن يخرجك دومًا سالمًا.

فظ غليظ

وهذا نمط منفر شديد الخطورة، يكفي لكي تدرك خطورته أن تتأمل كلام ربك لنبيه ﷺ مبينًا له أنه لو وجدت فيه تلك الصفة -وحاشاه بأبي هو وأمي- إذن لانفض الناس من حوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾.

ويكأن هاتين الخصلتين -الفظاظة والغلظة- كفيلتان بإنهاء تلك الحالة المتماسكة المبهرة التي كان عليها الصحابة مع النبي ﷺ فتأمل..

هذا هو المآل الذي لا يدركه كثير من أهل هذا النمط الغليظ الفظ، ويحسبون أنهم بذلك أصحاب رسالة!

وأي رسالة تلك التي لا تفرق بين مواضع الإغلاظ المشروعة ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾، وبين أصل اللين والرفق والرحمة بالمؤمنين وتأليف قلب المدعوين؟!

أهل هذا النمط يخاطبون الناس كأنما هم محققون أو وكلاء نيابة، وأنت عندهم متهم دائمًا، فيسألونك تارة عن أغراضك الخفية، وتارة أخرى عن أهدافك (المستخبية)، ويتهمون نيتك وسريرتك، ويستهزؤون بما يسمونه (نوعيتك) التي انتشرت وملأت البلد، وبعد كل هذا الاستعلاء والتبكيت يحدثونك عن الكبر والاستعلاء الذي تلبست به إذا ما رفضت يومًا أن تقبل

المثول في أقفاص اتهامهم وأبيت الاستجابة لمسار تحقيقاتهم وإهاناتهم!

والحقيقة أن وسائل التواصل الاجتماعي ساهمت كثيرا في ظهور هذا النمط، إن مجرد إحساس المرء بقدرته على السباب، والإهانة من خلف لوحة المفاتيح يعطيه نوعًا من الشجاعة الكاذبة، واللذة الخفية، والإحساس بنصر زائف، ورخيص، وإنى لأعلم أناسا فى غاية الخجل، وربما الانطواء خارج الـ«فيس بوك» و«تويتر»، بينما تجدهم على هذه الشبكات فرسان الفظاظة والغلظة، وإن كانت الفظاظة لا تملك فرسانا.

إنها شجاعة من خلف الشاشات، واحتماء بالكيبورد، وأخلاق ضباع تنضح بالخسة والنذالة،

ثم بدأت تلك الشجاعة، وإن شئت فسمها الوقاحة وقلة الذوق، تتخذ منحنى جديدًا.

فمع كثرة الاحتكاك، والتعامل مع الفظاظة، وسوء الأدب بدأ البعض يفقدون قدرتهم على التفريق بين الواقع الافتراضى، والواقع الحقيقى، وامتدت الوقاحة، والفظاظة لتصير بالتدريج سمة أصحاب هذا النمط فى مجتمعاتنا، وشوارعنا، ومنتدياتنا العامة، والخاصة . .

و لدى الكثيرين صارت الآداب والأخلاقيات التى نشأنا عليها وعملنا إياها ديننا ضعفا، وقلة حيلة.

صحيح أن كثيرًا من أهل هذا النمط لا علاقة لهم بمواقع التواصل الاجتماعى، وربما لا علاقة لهم بالإنترنت نفسه، لكن هناك نسبة لا بأس بها تكفى لتتأثر بهذه الطبائع، نسبة حرجة طبيعتها الشبابية تجعلها قادرة على التأثير فيمن حولها ممن لم يباشر بنفسه تلك الوسائل الحديثة، لكن ريحها قد

تسرب إلى أنفه، وعقله من خلال التعامل مع من يباشرونها.

المشكلة أن الحياة الحقيقية ليس فيها حظر أو ما يعرف بـ«البلوك»، وهو الوسيلة التى يتعامل بها رواد تلك المواقع مع من يضايقونهم ويؤذونهم بألفاظهم وفظاظتهم!

فى الحياة الواقعية سنظل نعيش معا، ولا بد أن نسمع لبعض، وأن نتعلم كيف ندعو إلى وجهة نظرنا، وكيف نغير ما حولنا، لا بد أن نتعلم كيف نتحاور، وكيف نغرس الوعي ونوصل رسالتنا لغيرنا، هذا إن كنا حقًّا أصحاب رسالة نريد لها أن تصل، وتسمو بها الأرواح، وتعي معانيها العقول، ولسنا أصحاب سياط وجلادين نصلي ظهور من يخالفنا معاقبين بفظاظة، منفرين، ولمن حولنا فاضّين ومبعدين.

لا بد لهذا النمط الفظ الغليظ من وقفة مع النفس قبل أن يجد حياته وحياتنا قد تحولت إلى صفحة تواصل اجتماعي فظة غليظة تصير فيها الفظاظة أسلوبا للحياة.



مريب (على رأسه بطحة)

من الأنماط المثيرة للشفقة جدا نمط المريب أو ذلك الذي على رأسه (بطحة)

هذا النمط لا ينفك عن الصياح كل حين: إحنا صح .. إحنا صح، ولا يترك شاردة أو واردة تشتم منها رائحة تشكيك أو رفض أو اختلاف مع مواقف متبوعيه إلا سارع للرد عليها، والدفاع المستميت عما تخيل أنه نقد لفئته، وكالعادة الشعار المرفوع لديه دائما وأبدا إحنا صح ... إحنا صح!

يحاول المسكين دائما أن يقنع نفسه ومن حوله أنه على صواب، وأن مواقفه وفئته سليمة ورائعة للغاية، وهو في حقيقة الأمر يحاول تغطية شك يلح على ضميره، وينتهز كل إشارة أو تلميح ليقفز على سطح نفسه معكرًا صفو حياته، وناكئًا بطحته، فيضطر صاحبنا لستره وتسكينه بمزيد من الصيحات: إحنا صح ... إحنا دايما صح.

يا أخي هو حد كلمك ولا داس لك على طرف؟!

حد جاب سيرتك ولا ذكر اسمك؟!

إنها القاعدة

«كاد المريب أن يقول خذوني»

هذا دأب كل مريب في الحقيقة وإن مثَّل الثقة المطلقة وادَّعى اليقين الكامل فيما هو عليه

الموقنون يا صديقي أهدأ نفسًا وأكثر اتزانًا مما تفعله.

المتسقون مع ضميرهم ومبادئهم لا يتشنجون بتلك الطريقة تجاه كل نقد، ولا يرتجفون هكذا من كل تلميح، ولا يثير المخالفون حفيظتهم ويجلبون الغصة إلى حلوقهم بهذا الشكل!

حين أيقن رسول الله ﷺ مما هو عليه لم يهزه أذى، ولم يضره تشكيك، وحين دعوه مذمما قال بكل ثبات نفسي وثقة لا تهتز: «**يا عباد الله انظروا كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَهُمْ وَلَعْنَهُمْ**» يَعْنِي قُرَيْشًا قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « **يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ**».

هكذا بكل هدوء ويقين .. يدعون مذمما وأنا محمد!

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وحين قالت يهود: السام عليك يا محمد، نهى أمنا عائشة عن لعنهم، وقال: قد رددت وقلت وعليكم.

هكذا حال الواثق بما هو عليه، الموقن بقضيته، استقرار نفسي، واتساق مع الضمير يظهر على جوارح لا تستخف «**ولا يستخفنك الذين لا يوقنون**».

أما من كانت على رأس ضميره بطحة تؤرقه، وتجلب الغصة إلى حلقه كلما نكأتها إشارة أو أثار شجونها تلميح، فعليه ببساطة أن يراجع نفسه، وأن يعالج بطحته، ويصلح أسباب ريبته التي تدفعه كل حين للصياح: خذوني، وليتذكر تلك النصيحة النبوية الجامعة على بساطتها.

نصيحة: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة.

تأمل .. الكذب ريبة!

هيا دعه وصدقني بعدها ستر تاح وتسكن نفسك وتزول بطحتك.



أنا مش معاهم (المهزوم)

يوما ما كان من أكثر الناس حرصًا على أمته، وانفعالا بقضاياها، كان فؤاده يتقد بالحمية لدينه والرغبة في نصرته، وكان يتلهف شوقا لهداية الخلق وانتهاجهم لشرعة ربهم، كان من الممكن أن تختلف معه أو تتفق، لكنك لم تكن تملك إلا أن تعترف له بقوة الحجة وحسن البيان ودقة العرض وعمق الفكرة، وأن تحترم قبل كل ذلك ثباته على موقفه ورسوخ مبادئه.

كنت تختلف مقرًّا بعزة تقطر من كلماته، وبغيرة على حمى الدين وحبٍّ للشريعة وأهلها وحرصٍ على إعلاء الحق والصدع بكلماته.

أوذي كثيرًا

وتحمل كثيرًا

لكنه انهار في النهاية

يبدو أن تلك المبادئ والثوابت التي طالما نافح عنها لم تكن بذلك الرسوخ الذي كانت تبدو عليه ظاهرًا، لن تخطىء اليوم في كلامه نفسا مختلفا، ليس هذا هو ذات المنافح الجلد صلب المراس،

لم يعد لكلامه نفس البريق، ولم تعد لحجته تلك القوة، صار الليث المتحمس الموقن بما يقول اليوم قطًّا أليفًا يموء بهوانٍ بين يدي خصومِه، بينما تحولت شراسته وقسوته إلى سياط تقرع رفاق الأمس، ولا تمس من كان

يعدهم يومًا أعداءَ ملته ومفسدي أمته، لم يعد هو ذاك العزيز مرفوع الرأس، بل صار ذليلا مهزومًا بين أيديهم، تابعًا لهم، سائرًا في ركابهم، محاولا إرضاءهم بشتى السبل.

حتى لو كان من تلك السبل أن يُستعمل سيفا مصلتًا على رقاب إخوانه، لا بد أن يثبت في كل حين أنه (مش معاهم)، أنه مختلف عنهم، لا بد أن يدافع عن نفسه دائمًا من تلك التي يراها تهمة، وعليه في سبيل ذلك ألا يخفي حساسيته تجاه جلّ ثوابتهم وأدبياتهم.

ينبغي أن يسير على كل تراثه بممحاة، وأن يتراجع عن صوابه قبل خطئِه، ليثبت دوما أنه تغير، ولم يعد يطيق الماضي وأهله، فقد صار اليوم مثقفًا مستنيرًا واعيًا ولم يعد مثلهم.

بالطبع فُتِحت له الأبواب، وهش له خصوم الأمس، وأفردوا له المساحات واحتفوا به أيَّما احتفاء،

لكنه ومع كل هذه الضجة والترحاب صار وحيدًا، تنكر لرفاق الأمس وتنكروا له، فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولقد أضحى يعرف وظيفته جيدا، ويقوم بها على أكمل وجه، أو إن شئت فقُل على أسوأ وجه، هل هو الخوف؟!

أم هي إغراءات معينة أو تهديدات لم يكن له قِبَلٌ بها؟!

هل هي فتنة سراء بعد ضراء أم خشية ضراء بعد سراء؟!

أو ربما هي صدمات في أشخاص أو مواقف أو حظ نفس وانتصار لها <

لا أحد يدري ..

الشيء الوحيد الذي يمكنك أن تدركه وأنت تطالع نتاجه الجديد وثماره المحدثة أنك أمام شخص آخر بقلم مختلف ولسان مباين ونفس متغيِّرة.

والشيء الذي تملكه حين تطالع سطحيته بعد عمق، وركاكته بعد فصاحة، وذلته بعد عزة، هو أن تتعوذ من الحور بعد الكور، وأن تدعو له لعله يوما يفيق من سكرته، وينفض عنه غبار الهزيمة النفسية الذي تراكم على روحه، وليسطع بريق الحق من قلمه ولسانه من جديد، وليعود إلى قيمته الحقيقية ومكانه المستحق، وتفارقه تلك الوساوس التي تنغزه وتسوقه باستمرار إلى نفي تهمة ليست تهمة إلا في رأسه، ولم يتهمه أحد بها أساسًا لكنها الهزيمة والمهزوم!



درويش ومُدروش

ولست أعني بالدروشة هنا ذلك الاستعمال الدارج الذي يتندرُ به البعض على من لم يؤتوا قدرًا من الفطنة، فكانوا على درجة من السذاجة غير المتكلفة لا يملكون غيرها ولا يقدرون على سواها.

ولا أعني بالدروشة أيضا تلك الدرجة من درجات الترقي في التطور الروحي لدى المتصوفة، ممن اتخذوا باب التقشف لبلوغ مراتب الزهد والتواضع والابتعاد عن التملك المادي.

لكنني أقصد به نمط المتدين المتقوقع على نفسه، المنعزل عن واقعه، فلا يُعنى بأمور الناس، ولا يعرف شيئا عن أزماتهم، ولا يهتم بمشاكلهم، وكأنه لا يعيش معهم على نفس الكوكب!

إنه نمط يستريح للسذاجة ويتكلفها، ويأوي إلى الخواء الفكري ويختاره، ويهرب من المعرفة والفهم.

لا فارق يذكر عنده بين حق وباطل، ولا صواب أو خطأ، فهو لا يدري -قاصدًا- ما يحدث من حوله.

إنه نمط يكاد على كثرة تلاوته للقرآن يعطل آيات المفاصلة، ويبتعد تمامًا عن مدلول آيات مكر الماكرين، وكيد الخائنين، وإفساد المضلين، أو على أحسن تقدير يعرف مدلولات ومعاني تلك الآيات المحكمات، لكنه

يظن أن ليس له شأن بها وأنه غير مكلف أو مخاطب بتكليفاتها فما عليه إلا المكث في محرابه والتبتل بعباداته وأوراده والنصر سيأتيه بغير بذل ولا تعب والرزق سينهمر عليه من السماء مع المطر، ومشاكل أمته ستحلّ بدون همٍّ ولا اجتهاد ومكابدة!

وينسى أو يتناسى أن في نفس القرآن الذي يقرأه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، و﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾، و﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾، ويغفل أو يتغافل عن تكرار قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، وعن أسباب تنزل الفتح وظهور الحق، والنماذج الجلية في كتاب الله لأقوام لم يكتفوا بالتعبد، ولم يركنوا إلى المحاريب مقصِّرين في واجب الأخذ بالأسباب.

يتغافل صاحبُنا الدرويش ومن يدروشونه ويحبون له الدروشة عن كل ذلك، ويتناسى أن المؤمن كيِّس فطن، وأنه ليس بالخب وليس الخب يخدعه، ويفعل كل ذلك بحجة التفرغ للعبادة والتنسك، ويكأن الذي تعبده بالصلوات والأذكار والدعاء لم يكلفه بالعمل والمجاهدة والمصابرة والبذل، أو أنه خلقه بمعزل عن مخالطة باقي المخلوقين، ولم يختبره ويبتليه بمعاملتهم والتأثر والتأثير فيهم، وأين ذلك من منهج أتقى الخلق لله وأشدهم له خشية وأكثرهم عبادة؟

أين تلك الشبهات الانعزالية من نهج نبينا وهو الذي ما ادخر وسعا في العمل والدعوة والجهاد ورغم ذلك كان أعبد الناس وأخشعهم

لم يمنعه القيام والصيام والدعاء والتبتل من الاعتناء بأمر أمته، ومعالجة مشاكلها، والأخذ بالأسباب المادية المتوفرة لذلك، ثم كان التوكل.

تجده عَشية غزوة بدر مستيقظا داعيا باكيا مستغيثا مبتهلا، فإذا أشرق

الصبح وكان اللقاء واشتد البأس وجدته في الصفوف الأولى، يحتمي به أصحابه بين غبار ساحات الوغى، فإذا جن الليل من جديد آوى إلى محرابه يذرف دمع الخشية ويحويه همس مناجاة السحر واستغفار الغفار، هكذا كان وهكذا كان الأنبياء من قبله.

لقد كان أفضل الصيام صيام نبي الله داوود ﵇، وكان أفضل القيام قيامه بشهادة نبينا ﷺ، وكان تسبيحه وذكره آية يردد الكون معه همساتها ويأوب، ورغم كل هذه العبادات المبهرة كان حاكمًا قويًّا عادلا، وكان قاضيًا يفصل بين المتخاصمين، وكان مجاهدا بطلا قتل جالوت رأس الجبارين، وكان نبيًّا داعيا للتوحيد، معلما الناس الخير، وإلى جوار كل ما سبق كان صانعًا يأكل من عمل يده.

فهل عطلته العبادة عن هذا التوازن البديع الذي يدحض شبهات الدراويش وحججهم؟

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

كان هذا هو الأمر الأول لموسى من ربه بعد أن عرَّفَه بنفسه، وأعلمه بأنه الإله الواحد الذي لا معبود بحق إلا هو فاعبدني . .

تلك هي الثمرة الأولى للمعرفة، والتكليف الأول بعد التوحيد والعلم بالله، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري.

عبادة وصلاة وذكر يربى بهم المصلح ابتداء كما قيل لنبينا ﷺ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

جهز نفسك يا حامل الرسالة يا من عرفت ربك، جهز نفسك بالعبادة والذكر، بالتبتل والتهجد والانكسار في محراب العبودية، فإن فعلت فهيا إلى

الثمرة الأخرى لاعتقادك وعلمك بالله وعبادتك إياه، هيا إلى التكليف التالي مباشرة، بل يكاد يكون التكليف الموازي المرافق لعبادتك ومعرفتك،

هيا اذهب وتحرك:

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

اذهب واصدع بكلمة الحق، اذهب وقلها في وجه الطاغية، اذهب وأعلنها وادع لربك بقول لين لعله يتذكر أو يخشى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ كما تقوم الليل، قم واصدع، فإن اعتقادك ومعرفتك بربك وسبيلك ليست بسبيل عزلة ولا بسبيل خوف وهروب وذلة.

قم فإنها سبيل عزة وقيام وعمل، وما بين ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ يصح سيرك في دربك وتثمر معرفتك بربك.

إن الركون للعزلة الاختيارية، والتقوقع على الذات بحجة التعبد والتنسك هو رهبانية لا يعرفها الإسلام، وما هي في أغلب الأحيان إلا دروشة هروبية يلجأ إليها أصحاب هذا النمط وهذا الخطاب الذي لو عم الأمة ما أحق حقٌّ، ولا أبْطِل باطل، وما عرف معروف، ولا أنكر منكر، وما كان من تغيير أو تقدم للأفضل، ولصرنا في النهاية جميعا مجرد . . دراويش!



المخدَّرون فكريا

هي في حقيقتها مخدرات . . .

مخدرات وإن لم يكن لها ملمس أو مذاق أو حتى وزن ومكيال

هي تقوم بنفس وظيفة المخدرات الحقيقية بأنواعها المختلفة

آثارها لا تقل خطورة على النفس من آثار المخدرات العادية على الجسد

وهي تجعل متعاطيها يغادر واقعه الحقيقي الشاق والمليء بالصعاب والتحديات ليعيش واقعا مزينا جميلا كبديل عن حقيقة قد تكون مرَّة ينعزل عن إدراكها ببطء حتى يتجاوزه قطارها وربما يعبر على جسده ويحوله إلى أشلاء متناثرة دون أن يشعر

إنها المخدرات الفكرية . . .

تلك المخدرات التي تقتل الروح تدريجيا وتجعل المتعاطي أكثر تبلدا وتهون عليه كثيرا من الآلام التي يشعر بها والصدمات التي يتعرض لها.

لكنه كالمخدرات الحقيقية؛ تبلد مؤقت سرعان ما يزول لتعود الآلام بعد حين وليفاجأ المتعاطي بمزيد من التعقيد ربما لم يكن ليوجد لو كان قد انتبه من غفلته التخديرية مبكرا وتعامل مع حقائق الأشياء واستعد لها وقدَّرها

حق قدرها بدلا من التقلب في نعيم الوعود البراقة والأماني الزائفة التي يعده بها بائعو المخدرات الفكرية والأوهام الواقعية المعسولة ويؤكدون له دوما أنها ستتحقق خلال أيام أو ساعات محددة لا أحد يدري لماذا لا تأتي أبدا

في مقال الأسبوع الماضي الذي تحدثت فيه عن مدمني اليأس وناشري التيئيس ومعتنقي الإحباط وقطع الأمل في الإصلاح وفي هذه السطور عن النموذج المضاد لهم

إنهم أولئك المخدّرون بالأوهام، الغائبون في سحائب الأماني الأحلام.

يتكامل هؤلاء -وأحيانا يشتركون- مع من يبيعونهم تلك المخدرات ويتاجرون بهذه الأوهام ويتبرعون بتلك الأحلام الخيالية الوردية

إنهما نمطان مرتبطان ببعضهما البعض بشكل وثيق بل يمكنك أن يتعبرهما يتكافلان ويتكاملان ولا غنى لأحدهما عن الآخر

ثنائية متلاصقة ومتلازمة لا غنى لأحد طرفيها عن الآخر

أما المخدِّر (بكسر الدال) فهو ذلك الشخص الذي يصر دوما على خداع النمط الثاني -المخدَّر- من خلال بث الأوهام الكاذبة والآمال الواهية وصياغتها بطريقة محكمة تظهرها على أنها حقائق لا تقبل النقاش وتوحي بأن تحققها وظهورها للعيان ما هو إلا مسألة وقت بل ربما (يتّقل العيار) ويزيد جرعة التخدير ويحدد هذا الوقت المزعوم ويعين له تاريخا

هذا النمط يحرص دوما على الظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور المطلع على الخبايا وما بين السطور

فهو المحلل الجهبذ، والخبير الاستراتيجي المحنك الذي يعلم ما يجهله البسطاء أمثالنا

وعليه في كل حين أن يبث شيئا عجيبا مبهرا من تلك البواطن أو يلمِّح بسر خطير لم يعلمه غيره؛ وليظل احتياج المتعاطي المستمر للجرعة التخديرية ولتظل الأفواه فاغرة والأعين متسعة من الانبهار بتلك المخدرات الفكرية والواقعية والسياسية التي يبيعها هذا الجهبذ المتاجر بالأوهام

ولا يهم بائعو الوهم أو يفرق معهم مآل تلك المشاعر المتلهفة التي أججوها ولا يلتفتون إلى ما سيحدث لمصدقيهم من صدمات قاسية حين يزول أثر جرعات المخدر وترتطم نفوسهم بأرض الواقع فلا يجدون الوهود الحالمة قد تحققت عاجلا كما وُعدوا

وليس مهما لدى تجار الوهم ذلك الأثر العكسي الذي ستحدثه بشرياتهم الكاذبة وتحديداتهم القطعية الساذجة إذا لم تقع كما جزموا ووقتما حددوا

المهم أن يثبتوا وجهة نظرهم ويستمروا في إمداد أتباعهم بما يبقيهم في أكنافهم ويبقى أنظارهم متوجهةً إليهم متطلعةً إلى المزيد والمزيد من الجرعات والمخدرات

طبعا لا أتحدث هنا عما ذكرته وأكدت عليه في المقال السابق من اليقين بموعود الله والثقة بنصره والإيمان بتحقق بشريات نبيه ﷺ فتلك كلها عقائد راسخة لا تنازل عنها لكن الفارق بينها وبين مخدرات بائعي الوهم ومشتريه أن الوعود الربانية والبشارات النبوية في غالب الأمر لم تكن محددة بتوقيت وتعيين بل كانت في مجملها وعودا مطلقة مفتوحة الأمد مرتبطة فقط بالعمل والبذل

وعودا تغرس اليقين والأمل وتعلقه بالله الولي النصير لا بتحليلات سمجة متكلفة وتوقعات باطنية أغلبها تخديري مغرق في الوهم

ولو أن محبي التبشير قد اكتفوا ببث الأمل من خلال التثبيت بالقرآن وترسيخ وعوده جنبا إلى جنب مع التوجيه للعمل ولأداء التكليفات المقترنة بتلك الوعود دون قطع بالثمرة وموعدها لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا حتى لو كان الواقع في حقيقته صعبا متشابكا

لكن للأسف يضطر بعضهم لإنكار تلك الصعوبة نظرا للضغوط التي تمارس عليهم لإجبارهم على إيجاد الحل السحري السريع ومن ثم يلجأون للتخدير والإيهام

وبدلا من أن يعترفوا -ولو أحيانا- بفشلهم الآني أو عجزهم الحالي عن تقديم حلول سريعة عاجلة تجدهم يبحثون عن مسكنات الوهم المعسول الذي يُغرقون فيه المتعاطين بالتدريج من خلال مخدراتهم الفكرية والواقعية التي يلاحقونهم بها باستمرار حتى تبدو الحلول التي يطرحونها دائما وجيهة ومنطقية في مواجهة تلك الأسئلة التي سهلتها تلك المخدرات

لذلك لابد ابتداءً من التخلص من تلك المخدرات الفكرية التي يحرص البعض على بثها في عقول مريديهم مصورين الأمور كلها سهلة وبسيطة ومهونين من شأن التحديات القاسية التي تواجههم وموهمين (زبائنهم) أن الحل أقرب إليهم من شراك نعالهم

لابد من الإقلاع عن تعاطي تلك المخدرات الفكرية والتخلص من حالة الإنكار التي أدمنها البعض والنظر إلى الواقع بشكل صحيح وصادق لا لييأس أو ليحبط ويقعد باكيا على اللبن المسكوب فتلك ليست خيارات أصلا كما

بينت مرارا ولكن ليعترف بالخطأ ليصلحه وليضع يديه على مواطن الخلل ليعدلها وليحسن العمل والتأثير في إطار المتاح والممكن والواجب الذي أدركه من خلال النظر الواقعي الصادق المعترف

وبدون مخدرات . . .



تستعجلون

ومن الأنماط التي تظهر كثيرا في أزمنة البلاء وأوقات المحن والشدائد نمط المتعجل المتململ الذي يستعجل الفتح، ولا يطيق الصبر، ولا يدرك معنى المصابرة.

وهذا نمط يصر على عدم فهم طبيعة الصراع الأزلي بين الحق والباطل، ويعتبر أن كل حديث لا يؤكد مذهبه العجول ولا يشبع معتقده الملول إنما هو حديث تخذيلي مرجف، لا ينبني على اليقين والثقة في موعود الله.

وكأن من نظر في السنن الخالية وتأمل المدلولات القرآنية وعلم من خلالها أنه لا اشتراط على المولى، وأن النصر مع الصبر، وأن الثمرة العاجلة ليست ثابتًا مسلّما به يراه الجميع في حياتهم، يعد عن هذا النمط غير موقن، أو على الأقل لا يفهم ما يفهمه صاحبنا ومن سار على نهجه، وكأن اليقين في الله والثقة به التقول عليه وسؤاله عما يفعل واستعجال الثمرة وادعاء ما ليس بحق،

وإني سائل صاحبنا المتعجل المتململ: حين تسمع من الحبيب ﷺ عبارة مثل هذه: «**عُرِضَتْ علَيَّ الأُمَمُ فرأَيْتُ النَّبيَّ ومعه رهطٌ والنَّبيَّ ومعه رجُلٌ والنَّبيَّ وليس معه أحَدٌ**».

تأمل مرة أخرى: ليس معه أحد

قل لي بربك حينئذ ماذا تفهم؟ وما الذي يلقى في روعك؟

نبي مكلم يوحى إليه يأتي يوم القيامة بدون ثمرة من البشر، بدون مجيبين أو متقبلين لدعوته، وربما يأتي تثعب الدماء من جراحاته فقد قتله قومه، نعم هناك أنبياء قتلهم أقوامهم تلك حقيقة واقعة، هناك أنبياء قضوا نحبهم دون أن يشهدوا الثمرة، تلك حقيقة أخرى، قل بربك كيف تكيف ذلك الأمر مع مذهبك مشترط الثمرة العاجلة!؟

وحين تسمع منه -صلوات ربي وسلامه عليه- عبارته الشهيرة «**ولكنكم قوم تستعجلون**» تلك العبارة المحكمة التي تبعت بشارة عظيمة بالفتح والتمكين قالها لخباب بن الأرت وهو في خضم البلاء فقل لي بربك حين تسمعها ماذا يلقى في روعك أيضا؟!

هل يتسرب إلى نفسك شعور بأن النبي يبشره أن الفتح لا محالة واقع في غدهم أو بعد غدهم، أم أن الأمرَ ربما يستغرق وقتا وأن عليك ألا تتعجل؟!

أعتقد أن الثانية أقرب، وهي ما يحتمله المآل اللغوي للنهي عن الاستعجال، وهل ينهى عن استعجال شيء عاجل؟!

وحين يوجه الخطاب القرآني للحبيب ﷺ مبينًا أن الاحتمالين قائِمان ﴿فَـإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ فهل يظن اشتراط لزوم رؤية ثمرة عاجلة، وتحقق الوعد في الدنيا، أم أن الأمر قد يطول حتى لا تراه في حياتك؟

أعتقد أن الإجابة واضحة!

وحين تتوالى آيات وأحاديث تأمر بالصبر على لأواء الطريق والصمود في وجه مشاقه فهل يظن بذلك أنه تصبير لأمد عاجل قريب، أم أنه توطين

للنفس على البذل والتفاني في العمل والمرابطة والمصابرة دون اشتراط النظر لقريب الثمر وعاجل الفتح؟

وحين يقول النبي ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه: «**فإن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه**».

فهل كان باشتراطه طول الحياة بعدي بن حاتم يخذله كما يزعم البعض في حق من يفعل مثل هذا أو كان -وحاشاه أن يكون- يبث اليأس في صدره؟

حاشا وكلا!

وأين قول سيدنا موسى عليه السلام: استعينوا بالله واصبروا ..

و هل يكون الصبر على شيء عاجل واقع عما قريب؟!

وأين قول سيدنا أبي بكر الصديق لسيدنا عمر يوم الحديبية: أوقد قال لك أنك تأتيه هذا العام؟

و غير ذلك مما لو عصرنا الأذهان في استراجعها لسودنا الصفحات بما يدحض ذلك الزعم الخطير الذي استسهل البعض إطلاقه، قاطعين بأنه لم ينظر له، ويؤصل ويرسخ في سلوك الصالحين مرارًا.

وبدلا من أن يقول هؤلاء: نضبط مشاعرنا على العمل، ونترك على الله النتائج مع امتلاء قلوبنا برجائِه، تجدهم يصرون على ضبط مشاعر متابعيهم على اشتراط نصر قريب وثمرة عاجلة.

ولا يهمهم أو يفرق معهم مآل تلك المشاعر المتلهفة التي أججوها، ولا يلتفتون إلى ما سيحدث لها من صدمة قاسية لو لم تجد هذا النصر قريبا

عاجلا، وليس مهمًّا لديهم الأثر العكسي الذي ستحدثه بشرياتهم الكاذبة وتحديداتهم القطعية الساذجة إذا لم تقع كما جزموا ووقتما حددوا.

المهم أن يثبتوا وجهة نظرهم، ويستمروا في إمداد أتباعهم بما يبقيهم في أكنافهم، ويبقي أنظارهم متوجهة إليهم، متطلعة إلى المزيد والمزيد.

بينما كان الأصل في المنهج القرآني والنبوي كما أشرت من قبل في النمط السابق التبشير، لكنه تبشير مطلق يضبط إيقاع العمل والأمل، ويربطهما معا في إطار واحد تحدوه إرادة فعل الصواب، والصدع بالحق، وبذل الغالي والنفيس في سبيله، مع التوازن بين اليقين في الفتح وبين عدم تعلق القلب برؤية الثمرة العاجلة، وعدم الاشتراط على الله.

بهذا ينضبط فقه التبشير وغرس الأمل والحض على العمل، وليس بالوعود الكاذبة والتألي على الله، بل بالإدراك والتسليم الكامل لحقيقة أن نصر الله وفتحه إنما يأتي متى شاء وكيف شاء، حتى وإن طال الأمد وتأخر في نظر المخلوق القاصر.

لقد قيل إن ابتلاء أيوب عليه السلام دام ثمانية عشر عامًا حتى جاء الفتح، وكشف الله ما به من ضر، وقيل إن افتراق يوسف عليه السلام عن أبيه جاوز الأربعين عاما حتى بلغ أشده، ثم جاء الفتح وكان اللقاء وجمع الله شملهما.

وقيل إن أعواما طويلةً كانت قد مرت حتى استجاب الله دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه، وطمس على أموالهم، وشدد عليهم، وأذاقهم العذاب الأليم، وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين.

ولقد مكث المسجد الأقصى في الأسر عشرات السنين، حتى جاء الفتح وحرره صلاح الدين، ومكث نوح عليه السلام يدعو قومه مئات الأعوام دون كلل أو

ملل، حتى فتحت أبواب السماء بماء منهمر، وفجرت الأرض عيونا والتقى الماء على أمر قد قدر، وفتح الله للمغلوب وانتصر!

وكذلك فتح الله يأتي متى يشاء، وإن طال الزمان واستيأس الناس فإنه يفتح في النهاية، المهم أن يوقن عبده ويثبت على الحق، ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك.

ربما يكون هذا الفتح في آخر لحظة حين تمام الاستيئاس.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

لقد ظلَّ النبي صلى الله عليه وسلم يمر على الوفودِ التي جاءت إلى مكة للحج، يعرض عقيدته ويدعوهم إلى الله ويطلب منهم نصرته، ظل كذلك طيلة أيام الحج حتى كان اليوم الأخير من أيام الحج، ويظل فيه النبي على مثابرته وإصراره واستفتاحه، وفي آخر لحظة جاء الفتح وشرح الله صدر وفد يثرب وكانوا أنصار الله.

ما استعجل الثمرة وما يئِس من المحاولة حتى فتح الله له متى شاء، وحين قرر قوم إبراهيم أن يلقوا به إلى سعير أوقدوه، أما كان من الممكن أن ينجيه الله قبلها؟

أوليس الله بقادر على خسف الأرض بهم وهدم بنيانهم الذي بنوه ليوقدوه؟

بلى قادر . . لكن شيئا من هذا لم يحدث، لقد تأخر الفتح حتى صار إبراهيمُ بالفعل داخل النيران، ثم جاء الفتح بداخل أتونها المشتعل وتبدلت

السُّنة الكونية بأن النار تحرق كرامةً لنبي الله ﷺ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

متى وأين؟

في آخر لحظة، في داخل النيران!

هل أدى تأخر الفتح ظاهرًا إلى شك يتسرب إلى نفس إبراهيم؟

حاشا وكلا.

لقد ظل إلى آخر لحظة مطمئنا إلى فتح الله، راغبا فيه، مرددا كلمة واحدة لا يلفظ غيرها حتى وهو يقترب من النيران، حسبي الله ونعم الوكيل، أثق به، وأرغب في فتحه، وأوقن بمآله ولا أتعجل

وإن تأخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

تأمل متى

من بعد ما قنطوا

من بعد أن يئِس البعض، لكنه أتى متى شاء وكيف شاء ..

المهم أن يوقن عبده، ويثبت على الحق، ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك،

وحين يفتح من رحمته فاعلم أنه لا ممسك لها، ألا فاعرف الفتاح، واستفتح يفتح لك، ولا تعجل وتكن من هذا النمط العجول، فهو وحده أعلم بميعاد فتحه وهو لا يعجل لعجلة أحد، وهو الفتاح العليم.



مغبون

والمغبون من الأنماط المؤسفة للغاية، إنه نمط يضيع عمره وينفق لحظات حياته الغالية فيما لا ينفع، أو على أحسن تقدير فيما هو مفضول، وذلك على حساب الفاضل أو الأفضل.

أحيانا يفعل ذلك بسبب الجهل وقلة الفقه، فليس الفقيه فقط من علم الخير والشر، ولكنه من علم خير الخيرين وشر الشرين!

أما صاحبنا المغبون فهو لا يهتم بذلك ولا يعنى به، لذلك وعلى الرغم من صدق رغبة بعض المغبونين في عمل الخير إلا أنه كم من مريد للخير لا يصيبه، وهؤلاء لم يؤتوا من قبل صدق نيتهم، ولكن أوتوا من قبل جهلهم وقلة حرصهم وتكاسلهم عن السؤال وتلمس سبل الخيرات،

بينما كان الرعيل الأول من الصحب الكرام نموذجا في الحرص على معرفة الأفضل والأحب إلى الله.

وكم سألوا النبي ﷺ عن ذلك، وتعددت استفساراتهم عما جزل عطاؤه وعلت مثوبته، فتارة يسألون عن أفضل الصلاة، وتارة أخرى يسألون عن أفضل الجهاد، ثم يسألون عن أفضل الصدقات، وأفضل الرقاب التي يعتقونها لله، العامل المشترك دائما هو السؤال عن الأفضل،

عن أحب الأعمال لله وأعلاها قدرًا وأرفعها مثوبة، لقد اختاروا

سلعة غالية، وتجارة لن تبور،

اختاروا التجارة مع الله!

تلك التجارة التي هي دوما رابحة الصفقات، جزيلة العطايا والمثوبات، ولقد ظهر أثر ذلك الفكر التنافسي الحريص على الأربح في حياتهم، فتجد صديقهم أبا بكر ﵁ في مطلع يومه الذي استهله صائما قد عاد مريضًا، وأطعم مسكينًا، واتبع جنازة، وكل ذلك في بداية اليوم، لم تمر منه ساعات فما بالك بباقي يومه!

إنه نموذج لرجل الأعمال الأخروية الذي لا يدع صفقة رابحة إلا وضرب فيها بسهم، ولم يقبل إلا الأفضل والأعلى، لذلك لما سمع عن أبواب الجنة المتعددة ونداء كل أهل عمل من بابهم كان سؤاله البديع: هل منا من ينادى منها جميعا يا رسول الله؟!

هكذا كانت همته وهكذا كان حرصه!

وليس وحده في ذلك، بل كان هذا هدي رفاق دربه وعلى رأسهم عمر الذي حين تصدق بنصف ماله كان شعاره التنافس مع الأفضل فقال: اليوم أسبق أبا بكر!

تفكير عملي تنافسي، والله يقول: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

أما المغبونون فهم في تكاسلهم يتقلبون، وعن تلك الهمم السامقة هم معزولون، وعن معالي الأمور لا يسألون، وعلى معرفتها لا يحرصون.

لذلك تجدهم يضيعون أعمارهم في أشياء ربما تبدو من سبل الخير وأبوابه، لكنها لا تحتاج منهم كل هذه الأوقات المهدورة، ولا تستحق هذا الجهد الضائع.

بل أحيانا تكون أمورًا غير مشروعة، وربما محدثات غير مطلوبة، يحرصون عليها بدافع التعود، ويصرون على طرق أبوابها بمطارق الجهل والتكاسل عن التعلم، فتكون المحصلة النهائية قليلة أو منعدمة، ويكونون بذلك كالمغبون الذي باع بضاعته النفيسة الغالية بزهيد الأثمان، وما من شيء في حياة المرء أثمن من لحظات عمره وسويعات أيامه.

والحل ببساطة أن يقترن صدق النية بالحرص على صواب العمل وأفضليته، ولا يكون هذا إلا من خلال التعلم، أو على الأقل أن يسألوا إن لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السؤال، لعلهم بذلك يوقفون غبنهم، ويعوضون خسارتهم، ويربحون صفقاتهم، وتزدهر مع ربهم تجارتهم، ويصح وصفها حينئذ بأنها تجارة مع الله!



زي الناس

كان يظن في البداية أنه سيتصدر المشهد، كان يعتقد أنه سيملك القوم عملا بقاعدة «الأعور وسط العمي مفتح»، وهو ليس بأعور، بل هو مبصر تمام الإبصار، إنه الوحيد في تلك القرية الذي يرى وتعمل عيناه بكفاءة كاملة، لا شك أنه سيتزعمهم ويتقدمهم جميعا بتلك المزية، لكنه لم يلبث أن اكتشف حقيقة الأمر، وأدرك أنه كان واهمًا، إنهم يريدونه مثلهم، بل لن يقبلوه إلا لو كان مثلهم

أعمى . .

إن طول فترة مباشرتهم للظلام جعلتهم يبغضون الضياء، ولا يتصورون أن يكون من بينهم من يبصر ذلك النور، أو يرى الدنيا بلون آخر خلاف اللون الحالك الذى يغشى مدينتهم الكئيبة

- تحدثنا عن السماوي ولون البحر الأزرق ولون الشفق الأرجواني؟!

- ما هذا الكلام العجيب

- أوَمنا الأشقر والأسمر والقمحي والأبيض المشرب بحمرة؟!

- أوَتتباين درجات ألوان بشرتنا وشعرنا وتزعم أن ملامحنا أيضا تتفاوت وتختلف سيمانا؟!

- لقد طاش عقلك يا هذا

- إنه اللون الواحد والشكل الواحد والمشهد الواحد

- دعك من هذه الخزعبلات وعش مثلنا

وإن كان هذا العضو الذي يتوسط وجهك هو ما يغرس تلك التصورات المضحكة في عقلك فتزعجنا بها فانزعه إذًا لتحيا بيننا كواحد منا!

هكذا طلبوا من الرجل . . لكى يستطيع التعايش معهم عليه أن يفقأ ذلك العضو الغريب الذى يجعله مختلفًا، ويجعله يقول أشياء ويرى أمورًا غير تلك التى ألفوها واعتادوا عليها، طلبوا منه أن يفقأ عينيه، ولقد كاد أن يفعل.

الضغط الدائم والاستهجان المتواصل والرفض المستمر لما يقول بسبب ما يراه بذلك العضو الغريب، كل ذلك جعله يقدم على تلك الخطوة ليستطيع الاندماج مع سكان تلك القرية التى ساقه القدر إليها ليفاجَأ بأن كل سكانها من العميان!

والقاعدة تقول (اللى زى الناس ما يتعبش)

لذا قرر فقأ عينيه ليندمج!

وهكذا يفعل كثير من الخلق، لكن بطل القصة التي كتبها سير هربرت جورج ويلز فى مطلع القرن الميلادى الماضى تراجع فى آخر لحظة، لقد قرر مبصر الرواية الاحتفاظ بعينيه في اللحظة الأخيرة، قرر ألا يكون إمعة، قرر ألا يطمس بصره ليكون مثلهم ويعيش بينهم فى سلام، لقد قرر أن يبصر ويرى، ويظل يبصر ويرى، حتى لو كان ما يراه مختلفا، وحتى لو جعله ذلك منبوذا مرفوضا، لن يبيع بصره ولن يفرط في بصيرته، وللأسف كثير من مبصري اليوم لم يفعلوا مثله،

لقد قرر كثير منهم أن يركعوا للضغط وينحنوا للموجة، قرروا أن يركعوا للضغط وينحنوا للموجة،

قرروا أن يخوضوا مع الخائضين، ويهووا مع الساقطين، حتى لو خالف ذلك ما يرونه ويعتقدونه،

حتى لو خالف ضمائرهم ومبادئهم إن كان قد بقي لهم شيء منها!

هانت عليهم ثوابتهم فسهل عليهم أن يطمسوا النعمة التى أنعم الله عليهم بها، نعمة البصر والبصيرة ليكونوا زي الناس (واللي زي الناس ما يتعبش)

هكذا يتصورهؤلاء فيرضون بكل شيء وأي شيء فقط ليسايروا الموجة، ويذوبوا في واقعهم، حتى لو كان ذلك معناه أن يصيروا إمعات أو حتى عميانًا، ما دام بين العميان إذا فلا مشكلة!

هذا التقليد والاتباع الأعمى كانا دوما من أكبر الأسباب فى صد جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق حين لا يتصورون أن يرد جديد عليهم ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

إنه التقليد المقيت الذى هو ضد الإدراك الصحيح لطبيعة الحق، فالحق حق بذاته لا يحتاج لمن يزكيه أو يزيده بهاءً وسطوعًا، وهو ليس بمن يدّعونه وليس بمن يزعمون أنهم عليه أو يظن بهم ذلك، الحق يعرف بذاته وليس بالرجال ولا بالآباء والأجداد، ولا بمجرد أن يكون المرء . . زي الناس، مهما كان هؤلاء الناس ومقامهم ومحبتهم، حتى لو كانوا آباء وأجدادًا وحسبًا ونسبا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ .

إنه التقليد والاتباع الأعمى والإمعية الكاملة، تقليد الآباء والأجداد وتقليد المجتمع واتباع البيئة المحيطة، دون فهم ولا وعي ولا إدراك لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة.

هذا التقليد والاتباع الأعمى الذى كان من أكبر الأسباب فى صد جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق حين لا يتصورون أن يرد جديد عليهم، ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه، لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

نفس لسان حال كثير من إمعات اليوم، حين يتحججون على اتباعهم الأعمى بقولهم: «اللي زي الناس ما يتعبش» .

لذا جاء الرد الصادم بعد تلك الدعوى التقليدية المقيتة، جاء الرد الصادم ليهدم هذا الوثن من أوثان النفس ولتنجلي الحقيقة نقية دون رتوش: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، وقد صح موقوفا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: لا تكونوا إمَّعةً؛ تقولون: إن أحسنَ الناسِ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمْنا، ولكن وطِّنوا أنفسَكم: إن أحسنَ الناسُ أن تُحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلِموا .

والله يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

مبدأ ينبغى أن يفهمه كل مسلم، آية من كتاب ربنا تشرح لنا لماذا ثبت

الثابتون رغم وعورة الطريق وقلة السالكين، آية تبين كيف أن القضية ليست فى كثرة الموافقين والمؤيدين، ولا في وفرة الداعمين المنافحين، القضية هي فى الحق نفسه، لا يضر المرء إن ضل كثير ممن حوله، ما دام موقنًا أنه على الحق الذى أمره به ربه ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

إنه بناء متفرد للشخصية الإسلامية التى لا يقبل صاحبها أن يكون إمعة، مهما كانت الظروف ومهما تزايدت عليه الضغوط.

وكم من أناس حرصوا على التمسك بالحق، وإظهاره، والسير فى طريقه، رغم قلة السالكين، وربما انعدامهم فى بعض الأحيان، كم من أناس خاضوا غمار المعارك، وثبتوا عند حلول النوازل، رغم الصعاب التى واجهتهم، ورغم كثرة المخالفين، لكنهم كما قال رسول الله ﷺ عن أمثالهم: «**لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم**».

لذا كانت العبادة فى الهرج كالهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذلك لأنه لا يتفرغ لها فى هذا الوقت إلا أفراد، فلما تمايزوا تميزوا.

القضية إذن ليست بالعدد، ولا بالصخب ولا بالمقام والمكانة، ولا بمطلق ما عليه الناس من حال، القضية بالحق، فإذا كان معك تبينته، وتشربه قلبك من معينه، فأنت الجماعة، ولو كنت وحدك، فإياك أن تفقأ عينك أو تبيع بصرك، إياك أن تكون إمعة لمجرد أن تكون مثلهم أو (زيهم) زي الناس!



ردَّاحــة

بعد تخرجي بفترة قصيرة قُدر لي أن أعمل فى إحدى العيادات الشعبية القابعة فى منطقة فقيرة للغاية تتسم بوجود عدد كبير من البلطجية و. . . . البلطجيات

و كلمة البلطجيات هى اصطلاح مخفف للاسم الذى يطلق على هذا النوع من النسوة فى تلك المناطق وهو لفظ لا أفضل كتابته وإن كنت أظن أن القارىء الكريم سيدرك مغزاه خصوصا من عاشوا أو احتكوا بتلك الأماكن وعرفوا جيدا هذا الصنف من النساء الذى يُستعان به فى التشهير أو ما يسمى فى الاصطلاح الشعبى بـ«الردح».

فى إحدى الليالي وبينما أنا منهمك في حشو ضرس أحد مرضاي وتركيزي منصب بأكمله على فم المريض إذ قطعت ذلك التركيز فجأة وصلة من «الردح» وجدت صداها يدوى فى الشارع الفقير الذى تقع فيه العيادة التى أعمل بها

الحقيقة لقد كانت أول مرة فى حياتى أتصور أنه يمكن أن تبلغ الشتائم والسباب هذا المبلغ

لقد كانت شتائم مفصلة ومتعمقة لدرجة مذهلة تصل إلى أدق أسرار البيوت

إنها إذًا (خناقة) بين «ردّاحة» وأخرى

فى لحظات اجتمع أهل المنطقة وقام المريض والحكيمات ليشاهدوا بشغف هذه الفقرة المفاجئة بالنسبة لي رغم أن الحي الذي نشأت فيه لم يكن اقتصاديا مرتفع المستوى كثيرا عن هذا الحي إلا أنه لم يصل أخلاقيا قط إلى تلك الدركات والتى بدا من رد فعل المرضى والممرضات أنها معتادة بالنسبة لهم ولم تسبب لهم أي نوع من الاستغراب أو الدهشة ولم تحرك لهم ساكنا أو تغري أحدهم بالتدخل للتهدئة أو (التحجيز) مثلا

تحجيز إيه يا دكتور إنت عايزهم يسيبوا خناق بعض ويردحوا لنا إحنا

هكذا كانت الإجابة عن سؤالي لماذا لا يتدخل أحد

كل ما يمكن أن تتخيله أو لا تتخيله من السباب الإباحى والإهانة والتعيير كان موجودا فى تلك الخناقة التى استمرت لساعة أو أكثر سردت فيها كل رداحة تاريخا مشينا للأخرى ولأهلها وأقارب أهلها وأقارب أقارب اللى جابوا أهلها

ما لفت نظري في المقام الأول حينها لم يكن مدى فحش القول فيها ولا ذلك السباب المسجوع والمنمق الذى يشعرك أنه نوع من الزجل الشعبى اجتذب ضحكات وابتسامات بعض المتفرجين من أبناء الحي

إن ما لفت نظري حقا أن نسبة كبيرة من المعايرة فى تلك المشاجرة لم يكن للطرفين دخل فيه

لقد سردت كل رداحة وقائع زعمت أن أقارب أو جيران الأخرى وقعوا فيها ثم عيرتها بها

- (يللا يا اللي أخوكي عمل وسوى)

- (إسكتي يااللي أختك نيلت كذا وكذا)

- (بس يا اللي عيلتكم كلها كيت وكيت . . .)

- (اخرسي يا اللي بنت عمة خالة أبوكي بتشتغل كذا وكذا وكذا)

وهكذا وهكذا . . .

دار الجزء الأكبر من المعركة الردحية الطاحنة حول التعيير بأفعال الغير

تذكرت هذه الواقعة وهذه الملحوظة وأنا أشهد اليوم تلك الثقافة –ثقافة التعيير أعني– والتي قد صارت علامة مميزة على تعاملاتنا المعاصرة

حينما تتكلم فى مسألة أو تكتب عن فكرة أو تطرح طرحا فتفاجأ بمن يقف لك قائلا : يللا يا بتوع «فلان الفلاني» الذي فعل

بس يا رفاق «علان العلاني» الذي سوى

إسكت يا شبيه «ترتان الترتاني» الذي فعل كذا وكذا

ستجد صديقنا الرداح المعاصر يستحضر كل ما يذكره من أمور تورط فيها أو نسبت لبعض من انتسب لنفس الفكر أو التيار الذي ينتمي إليه محاوره

تعجب حين تجد بعض من يفترض بهم أنهم مثقفون أو عقلاء يتقمصون شخصية «الرداحة» فى كتاباتهم أو حواراتهم مصدرين نقدهم للفكرة أو للمشروع بأخطاء نسبت لبعض الأتباع سواء صحت أم لم تصح ليس ذلك موضوعنا فلا يوجد أى منطق شرعى أو حتى إنسانى بسيط يجيز ذلك

إن الرداحتين اللتين صدرت مقالي بقصتهما رغم فحش الخلق الذى تمتعتا به إلا أن كل واحدة منهما حرصت فى معايرتها للأخرى أن تأتى بذكر أقارب لها أو أناس لها علاقة مباشرة بهم لكن واحدة منهن مثلا لم تعير

الأخرى بفعل امرأة لا تعرفها تشبهها فى الشكل أو اللون أو فى الوزن مثلا

لا يوجد منطق فى الدنيا يقول أنه إذا سرق أشقر فكل الشقر لابد أن يعيروا بفعله أو لو ارتشى أسمر فكل السمر مرتشون

لا أحد يجرؤ أن يقول هذا ولا حتى الرداحات فى الحوارى والأزقة

لكن للأسف بعض العقلاء يستحلون ذلك دون استحياء

قد يكون الأمر به بعض المنطق لو أن المنهج الذى يزعم المخطىء انتماؤه إليه يدعو للرذيلة أو يُنظّر للكذب فيكون الأمر حينئذ نقد لمنهج هدام أو مفسد لكن منذ متى كان سوء تطبيق او فهم البعض داعيا لهدم الأصل ومحاسبة الكل؟!

العجيب أن بعض أصحاب ثقافة التعيير هم ومناهجهم أو أيديولوجياتهم أكثر من سيخسر إن كانت هذه هى القاعدة المتبعة

حينئذ سيعير الليبراليين بتلك الفتاة التى نشرت صورها متعرية زاعمة أن تلك هى الحرية أو تلك المخرجة التى دعت لترخيص الدعارة وربما يعير الاشتراكيون بمذابح لينين وستالين وسيعير الديموقراطيون بجرائم أمريكا بسجن أبي غريب في العراق أو جرائمها في أفغانستان والصومال وهكذا

ولو أن أتباع المذاهب والأديان عيروا بخطايا أتباعهم فستحضر إلى الأذهان صور معروفة وفضائح مشهورة لبعض رموز هذا المذهب أو ذاك الدين فهل يُتصور أن يعير كل أتباع الملة أو المذهب بأفعال بعض أتباعها

الأمر بهذه الطريقة سيتردى إلى مهاوٍ سحيقة لا توجد لها أي علاقة بتلك القاعدة النورانية العظيمة

قاعدة: «ولا تزر وازرة وزر أخرى»

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته = صار يغيب عن أذهان كثير من الناس اليوم فيعتمدون خطاب الجمع والتعميم ويختارون ثقافة السلة الواحدة التي هي ثقافة مريحة بلا شك لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق الظالم شيئا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص(

وإن ذكرته بأنه ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ و «إن أعظمَ الناسِ فريةً الشاعرُ يَهجو القبيلةَ بأسرِها» وسائر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل فإن تذكيرك هذا سيصطدم بحواجز مصمتة وضعها على عينيه وأذنيه مروجو تلك الثقافة

ثقافة السلة الواحدة والتعميم المقيت ومبدأ السيئة تعم والعقوبة على المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون ذلك العضو الذي وُضع في جماجمهم وأمروه بالتفكير هنيهة في مآل تلك الطريقة لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك على سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلى بكاء حين يكتشفون مدى الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف يحاسب كل أسمر على خطيئة من يشاركه لونه وكيف يعاقب كل أشقر على جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا يُلام سمين على

كل ذنب اقترفه سمين مثله

مشهد هزلي هو لكنه للأسف يحدث يوميا

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجما مخالفه بصيغة الجمع قائلا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء تلك الثقافة

ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة

ذلك المبدأ الذي حذر منه نبي الله يوسف عليه السلام بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا من أخيهم بنيامين فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

وأيضا قالها ذو القرنين حين استنجد به أقوام ليعاقب ظالميهم فقال ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

فقط من ظلم وأخطأ ..

هذا هو الأصل وتلك هي القاعدة الشرعية الواضحة

حتى على مستوى الأعراف البشرية الطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة على التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن رفض مبدأ التعميم الجائر هو الأصل

بل إن هناك دولًا تعد ذلك الخطاب القائم على المشترك الظاهري أو الأيديولوجي ومآلاته = نوعا من التمييز والعنصرية وربما تُخضع مرتكبيها لعقاب شديد يردعهم عن هذا الظلم المقزز والأحمق في الوقت نفسه

بل حتى الحشرات!!

«فهلا كانت نملة واحدة»

كانت تلك معتبة ربانية وجهها الله جل وعلا لأحد أحب خلقه إليه وجهها لنبي من أنبيائه!

القصة بتمامها وتفاصيلها ذكرها النبي ﷺ وأورد رواياتها الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما وتدور أحداثها في زمان سابق لعصر رسولنا حيث نزَل نبيٌّ منَ الأنبياءِ تحتَ شجرةٍ، فلدَغَتْه نملةٌ، فأمَر بجهازِه فأُخرِج من تحتِها، ثم أمَر بقرية النمل فأُحرِقت بالنارِ

هنا صدرت المعتبة الربانية ونزل الوحي الإلهي يلوم ذلك النبي على تلك العقوبة الشاملة قائلا: «أحرقت أمة من الأمم تسبح الله» ثم ختمت المعتبة بتلك الجملة التي صدَّرت بها مقالي:

فهلا نملة واحدة

أما كان يكفيك أن تعاقب تلك النملة التي آذتك بدلا من أن تعمم عقوبتك على سائر جنسها؟!

هو سؤال استنكاري مختصر يبين قاعدة عظيمة كثر ذكرها في الكتاب والسنة

قاعدة تضيء بالعدل وتسمو بالإنصاف وتتألق بالحكمة المفتقدة بين كثير من الناس مع بعضهم البعض وليس مع نملة

مجرد نملة

إنها تلك القاعدة القرآنية التي تكررت بنفس اللفظ خمس مرات في كتاب الله

قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو على الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته صار يغيب عن أذهان أتباع هذا النمط الأحمق الجائر

بينما المنصفون في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان بل يفصلون ويميزون ويفرقون بين الصالح والطالح والمحسن والمسيء ويرفعون دوما ذلك الشعار القرآني الجليل ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾.

ولو افترضنا جدلا وقوع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم فإن المحاسبة تكون من نصيب مقترفيه والعقوبة يعلوها مبدأ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾.

حتى المنطق الشعبى البسيط الذى يظهر من الأمثال والحكم العامية لا يرضى بذلك التعميم الجائر فتجد أدبيات لطيفة ترفض ثقافة التعميم مثل قولهم «صوابعك مش زى بعضيها» و«كل واحد متعلق من عرقوبه»

لكن طبعا هذا المنطق لا يستقيم لدى تلك الرداحة وزميلتها في ذلك الحي الشعبي

وكذلك لا يستقيم لدى كل من استخدم ثقافة (الردح) في تعامله مع المخالفين له

وفي النهاية مهما تنكر بقناع نخبوي أو تدثرت بدثار المثقفة ما داما قد انحدرا لأسلوب التعيير و«فرش الملاءة» فما هما إلا نماذج أكثر أناقة من ذلك الصنف

ما هما في النهاية إلا «ردّاح» و«ردّاحة»

شيك على بياض (البصمجي)

تستعمل هذه العبارة دوما عند الإشارة لفكرة الثقة المطلقة وتسليم القياد بشكل كامل لفئة أو لشخص معين لدرجة تجعل المرء يقرر بكل أريحية أن يبصم على أي ورقة يعطيه إياها، أو إن كان من أهل القراءة والكتابة يوقع له على بياض بدون تحديد لمبلغ معين كعطية أو اتفاق على شروط تعاقد محددة وواضحة تلزمه بأمور يمكن بعد ذلك محاسبته عليها، فقط الثقة الكاملة والتسليم المطلق دون قيد أو شرط!

لا شك أن هذه الفكرة تم استهلاكها كثيرا في الأعمال الدرامية والأدبية، حيث يأمن البطل أو البطلة إنسانا ما فيوقع له على بياض أو يحرر له توكيلا عاما بالتصرف في كل أملاكه، ثم يفاجأ أن الشخص لم يكن على قدر الثقة، ولكن بعد فوات الأوان.

هنا لا يلام ابتداء إلا من قبل ذلك، لا يلام ابتداء إلا من قرر أن يقامر بما يملك لأجل ثقة مطلقة في مخلوق ضعيف غير معصوم قد يستغل ثقته أسوأ استغلال، وحينئذ لن يكون للندم معنى حين يصطدم بصخرة سذاجته السابقة التي جعلته ينقاد دون بصيرة، ويتبع بعمى، ولقد صدق من قال: «حبك للشيء يعمي ويصم»

إن فكرة البصم المستمر والتوقيع على بياض وإعطاء صكوك الثقة

المطلقة التي تجعل كل اعتراض أو نقد أو اختلاف معرضا لقائمة التهم المعتادة بدءًا من عدم الفهم إلى الحقد إلى سوء الأدب وأحيانا العمالة هي ببساطة فكرة ممجوجة مرفوضة لدى أي شخص يحترم عقله بل ويحترم نفسه!

وإن كانت مقبولة لدى البعض ممن يرتضون ذلك التوقيع على بياض وإعطاء الثقة المطلقة والبصم بالعشرة أصابع لأشخاص غير معصومين لدرجة تجعلهم يرون الحكمة والعظمة والإبداع في كل لفظ وخيار ورأي يصدر منهم وإن بدا ظاهره غريبًا أو خاطئا فليس من حق هؤلاء أبدا أن يحجروا على رأي من يرفضون ذلك، ويصرون على حقهم الطبيعي في الفهم والاشتراط والاختلاف والاستمتاع بحقيقة أن ربهم قد خلقهم أحرارا، ومَنَّ عليهم بنعمة العقل والاستقلال.

وإن العقل الحر بطبيعته يرفض الاستخفاف به أو تغييبه من خلال سدنة طالما تشدقوا بشعارات اتباع الحق وليس الرجال، وطالما رددوا أقوال تذم التمذهب المتعصب، ثم كانوا أول من تنكر لتلك الشعارات البراقة حين وضعوا في موضع التصدر، ووجدوا من يتعصب لهم، ويبصم من خلفهم.

اليوم يلام من صدق تلك الشعارات التي ظلت تتلى على مسامعه حتى صدقها، حتى ارتطم رأسه بواقع حزين يضعه بين خيارين، إما أن يُرمى بأنه سيِّء الأدب، لا يُنزل الناس منازلهم، بل هو من أعداء الوطن والطابور الخامس والسادس والعاشر وسائر التهم المعلبة والجاهزة، وإما أن يقدس المتبوعين تمام التقديس، وأن يطبل لهم مع المطبلين، ويبصم ويوقع مع البصمجية والموقعين محتفيا بكل مواقف المتبوعين، وداعما كل قراراتهم، وموقعا لهم صكا دائما بالثقة، و«شيك» على بياض يقر من خلاله أن السادة

والكبراء يستحيل أن يخطئوا، ولئن بدا يوما لكل عين أنهم مخطئون فلتكذب عينك، ولترح عقلك، ولتقل: أكيد لهم مأرب ومقصد عظيم لم أستطع بعقلى المسكين إدراكه، لكن يخطئون كالبشر؟ معاذ الله!

يكفي هؤلاء في النهاية أن يأمرهم سادتهم وكبراؤهم فيوقعون لهم على بياض وكأنما لا يأتيهم باطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، وكأنما أمنت عليهم الفتنة، وعصموا من الزلل والضلال، فكانوا بين أيديهم كالميت بين يدي مغسله، ولئن سألتهم ونصحتهم وذكرتهم أن تلك الكهانة ليست في ديننا ولا عرفنا لأبرزوا في وجهك صكوك الثقة ولأسكتوك بالكلمات المعتادة: معقول إنت هتِفْهم أكثر منهم؟!

معقول هتعمل رأسك برأسهم وتجرؤ على مخالفتهم؟!

والحقيقة أن ثمة فارق كبير للغاية بين أن يتبع على بصيرة ويقتدي بعلم وفهم، وبين أن يتحول إلى إنسان آلي أو (روبوت) ينفذ ما يقال له ربما حتى قبل أن يعرف ما سيقال له، ببساطة هو الفارق بين قيمة الاقتداء وبين المسخ.

إن اقتداءك بغير معصوم لا يعنى أن تُمحى شخصيتك، أو أن تزول ذاتك فتتحول إلى ظل له، أو إلى نسخة طبق الأصل منه، أو آلة تعمل بأوامره، إن تمثلك بالقدوة الحسنة يفترض أن يكملك ولا يمحوك، ويصقلك ولا يزيل خصائصك.

لقد خلقك الله مختلفا، ولو شاء لجعل الناس جميعا نسخا متطابقة، لكنه أبدع فيك خصائص ومواهب متفردة، وبيَّن لك كيف تضبطها بالقدوة الحسنة والتزام صراط الصالحين، لكن فى النهاية عليك أن تكون نفسك ولا تكونن من المتكلفين.

وحين يطلب منك أن توقع على شيء فعليك ألا توقع أبدا على بياض، واحرص دوما إن كنت متبعا على أن يكون اتباعك على بصيرة وعلم بما أنت مقبل عليه ولا تكون مجرد .. بصمجي ..



سَحَرَة المستبد

ولا بد للطغاة من نمط مهم جدًّا لا يستغني عنه ظالم ولا يزهد فيه مستبد، إنه نمط السحرة.

لا بد لهم من سحرة يزينون باطلهم، ويحسّنون فسادهم وإفسادهم، ويجملون بغيهم، ويشرعنون بطشهم، ويسوِّقون باطلهم.

قد كان لصاحب الأخدود ساحره الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه

وكان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم، ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم، وإن جريمة ساحر الطاغية لهي أشد وطأة عندي من جريمة الطاغية، ذلك بأن الطاغية قد يُطاع خوفا من سيفه، ورهبة من سوطه، وانبطاحا أمام جبروته، لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب، حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم، فيرفعون رؤوسهم في وجوه الظالمين، ويصدعون بالحق غير خائفين لوم اللائمين وبطش الطاغين والجبارين، ما دام في ذات الله رب العالمين.

لكن الساحر حين يزين البغي، ويشرعِن العدوان، ويجمل الفساد؛ فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي، بل والاقتناع

والسعادة وربما الانبهار بصنيع الطواغيت، ويرسخ تعظيما لهم في نفوس الناس حتى يستمرئوا الذل ويتلذذون بالهوان.

باختصار الساحر يصنع جيلا ممسوخا من المقتنعين بقمع النار والحديد، بل ومن المطالبين بالمزيد والمزيد، والفرحين بأنهم للطواغيت عبيد!

وليس صوابا التهوين من شأن سحرة المستبدين وسحرهم، ولقد وصفه ربنا في كتابه بأنه عظيم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾.

لكن مهما بلغت عظمة سحرهم وقوة خداعهم وحدة مكرهم فإن الله سيبطله، ذلك لأن أصل سحرهم كذب واسترهاب، وجذوره بطلان وضلال، وحقيقته تسويغ لطغيان وظلم واستبداد، وكل ذلك جماعه الفساد والإفساد، والله لا يحب الفساد، ولقد بين في كتابه مآل ذلك على لسان نبيه موسى قائلا: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

ويتنوع السحر حسب الزمان والمكان، وليس كل السحر حبالا وعصيا أو تعاويذ وأعمالًا، بل إن من البيان لسحرًا كما صح عن النبي، ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم، وإن الساحر ليتقنع بشتى أنواع الأقنعة ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة التي تخفي زيفه وتستر حقيقته.

فما بين قناع مثقف، وعباءة نخبوي، وأصباغ غانية، وطلاقة لسان سياسي مفوه، وعمامة شيخ سلطان وجبة إمام ضلالة وبهتان يتخفى خلفهم سحرة العصر!

فلا تغرنك يوما أقنعتهم، ولا تخدعنك أستارهم ودثارهم وزيف سمتهم، وانظر دوما إلى حقيقتهم،

حقيقة أنهم يشغلون ذلك المنصب المهم، منصب سحرة الطاغية، وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم مجرد سحرة!



مقدساتي

وهناك نمط المقدساتية المغالين الذين يحرصون دوما على بناء أسوار شاهقة يحيطون بها (تابوهات) معينة، ويعتبرونها مناطق محرمة لا يجوز لأحد أن يجترىء يوما ويختلف معها أو ينتقدها ، وياللمصيبة لو ازدادت جرأة أحد وقرر أن يرفضها ، أو يبغض تصرفاتها ومواقفها ، أو حتى يبغضها شخصيا !

حينئذ ستجد المقدساتية هؤلاء من بناة الأسوار وحراسها ، يهبون إلى هذا المجترئ لينهشوه ويمزقوا عرضه، إذ كيف تسوِّل له نفسه أن يعتلي تلك الأسوار التي ضربوها حول تابوهاتهم المقدسة لينظر إليهم على أنهم مجرد بشر!

فتش في أفكارك برهة وستجد بصرك لا محالة يصطدم ببعض تلك الأسوار الموروثة التي حرص أهل هذا النمط دوما على أن تظل عالية لا يستطيع نظرك أن يجاوزها ، فضلا عن القفز عليها ، وفحص ذلك المقدس المزعوم، وتفنيد قداسته، ونقض عصمته الكاذبة، فتش جيدا وصدقني ستجد.

طبعا لا أتحدث هنا عن المقدسات الدينية والعقدية، والتي هي في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يُقبل أن تكون له قداسة ذلك لأنه يكتسب قداسته من القدوس ﷻ نفسه.

لكنني أتحدث هنا عن أشخاص وأحداث وأماكن وهيئات ظلت أسوار العصمة تُبنى حولها رويدا رويدا حتى شكلت في وجدان الناس قداسة كاذبة، لا تسمح بمجرد الاختلاف معها أو نقدها، ولا تقبل أن تنطبق عليها قاعدة الإمام مالك بن أنس رحمه الله «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا المقام» . . . يعني النبي ﷺ.

دعنا لا نسمي هيئة أو مؤسسة إذا تجرأت يوما على رفض انتهاكاتها وتدخلها فيما ليس لها شكك أهل هذا النمط المغالي في حبك لوطنك وانتمائك له.

ودعنا لا نسمي جماعة أو حزبا إذا فكرت في انتقاده صرت بين عشية وضحاها خائنا أو منبطحا أو مفرطا أو جاهلا لا تفقه معنى العمل الجماعي.

ودعنا لا نعين رمزا سياسيا أو شخصية عامة إذا ما هاجمتَ مواقفها أو فندت آراءها صرت فورا عندهم رجعيا متخلفا، لا تفقه تطورات العصر، ولا تدرك السنين الضوئية التي تسبقنا بها تلك الشخصية.

ودعنا لا نسمي شيخا إذا اختلفت معه ورفضت مواقفه السياسية واختياراته صرت في لحظات عند هؤلاء المقدساتية مهدومًا سيّء الأدب، آكلا للحوم علمائهم المسمومة (طبعا علمائهم فقط بينما لحوم الآخرين من عوام المسلمين أو علمائهم شهية لذيذة(

هكذا تجد نفسك في النهاية بصدد عدد لا متناهٍ من الأسوار والحواجز التي بناها أهل هذا النمط المغالون والمهللون، والتي ينالك بمجاوزتها كل انتقاص وازدراء، وأنت الملام إذ كيف تسول لك نفسك أن تغضب أو ترفض أو تنتقد أو تختلف؟!

كيف تجرؤ على تحريك الماء الراكد، أو أن ترفض أن تكون من أهل نمط سابق سميته بصمجي، الذي أدمن التوقيع على بياض، ولم يجرؤ قط على أن يشرئب بعنقه ويمد بصره لينظر خلف أسوار غلوهم، وكأن هؤلاء المقدسين القابعين خلف أسوارهم قد صارت لهم عصمة توازي عصمة الأنبياء، وتساوي رمزيتهم رمزية الشعائر والأنساك، بل هي في الواقع تزيد كثيرا!

وإن غضب المهللين المعظمين لها عند انتهاك حرمتها المزعومة يتجاوز أحيانا غضبهم للأنبياء والشعائر والأنساك التي يقبل بعضهم انتهاكها وربما إهانتها بدعوى حرية الرأي!

حرية رأي تبيح للبعض سب الله ورسله لكنها تحرم انتقاد متبوعه وحزبه، وكأن لهؤلاء حرمة تجاوزت حرمة الصديق أبي بكر والفاروق عمر ﵄ حين نزلت آية تنتقد رفعهما لأصواتهما في حضرة النبي ﷺ وقيل حينئذ: كاد الخيِّران أن يهلكا.

أو أن لهؤلاء فضلا يعلو على فضل جيش خالد بن الوليد ﵁ حين قيل لهم بعد انسحابهم يوم مؤتة أنتم الفرّار، فقال الرسول: بل أنتم الكرّار وأنا فئتكم، ولكنه لم يعلق المشانق لمن انتقدوا ظاهر صنيعهم لأول وهلة.

وكم في حق الأخيار من معتبات وقعت، وانتقادات حدثت لا يتسع المقال لذكرها جميعا، لكنها ببساطة توضح أن النقد والخلاف ليس جريمة، فما باله في حق مقدسات اليوم المزعومة صار من الكبائر والأوزار؟!

إنها الأسوار ..

أسوار الغلو والتعظيم والتقديس التي بناها هذا النمط

فتش عنها جيدا، واحرص على تكسيرها ونقضها وسبِّر عنها الأغوار، فليس ينبغي أن يكون في النفس من أسوار إلا ما بنته الشريعة حول حرماتها.

بخلاف ذلك فلا مقدسات ولا أسوار!



ناقضو غزلهم متمرغون في وحلهم

يوم مطير هو . .

بِركة من الوحل على جانب الطريق صنعتها مياه الأمطار المتجمعة في ذلك الجزء المنخفض من الشارع، مكونة مزيجا من الطين والماء وقاذورات الطريق، من بعيد بدت السيارة القادمة بسرعة جنونية، تطاير الماء المختلط بالطين والقاذورات ليصيب المارة الذين قُدر لهم أن يمروا بجوار تلك المخاضة لحظة عبور السيارة المسرعة، وبينما يتأففون لما أصاب ثيابهم من آثار ذلك الوحل، ويحاولون نفض تلك الآثار عنها، إذا ببعضهم ينظرون بحزن ممتزج بسخط وغضب يائس إلى أثوابهم التي كانت منذ لحظات نظيفة فاخرة، وقد تلطخت واتسخت، وبدلا من أن ينشغلوا بتنظيفها وإصلاح ما ألَمَّ بها إذا بهم يصرخون قائلين: لا فائدة، قد فسد الثوب ولا قيمة لنفض الطين عنه!

الغريب أنهم بعد ذلك اتجهوا، والأنظار ترقبهم بدهشة مُنكِرَة إلى بركة الماء والطين، ليقوموا بأعجب فعل يمكن توقعه فى تلك اللحظة، لقد قفزوا إلى داخل بركة الوحل، ومرغوا أنفسهم في الطين المبتل مرددين منطقهم العقيم: لم يعد هناكَ فرق، قد فسد الثوب ولا قيمة للحفاظ على ما تبقى منه نظيفا، فلنتمرغ فيها إذًا ولنودع كل ما تبقى لنا من نقاء ونظافة وطهر يختفون

تدريجيا خلف طبقة من وحلها وقذرها!

طبقة سميكة تتجمع على أجسادهم المتقلبة المتمرغة التي تتحول بسرعة إلى نفس الشكل واللون، وتكاد تختفي تماما فيها وتصير جزءا لا يتجزأ منها، جزءًا من تلك المخاضة.

طبعا لا أحد يتصور أن يحدث هذا فى دنيا العقلاء، ربما في فيلم هزلي، أو رواية ساذجة عن قوم فقدوا عقولهم، أو أصابتهم لوثة أطاشت قدرتهم على التفكير السديد، لكن للأسف هناك نمط من الناس يتعامل بنفس النهج العجيب، إنه نمط الحمقى المتمرغين في الوحل، إنهم يتعاملون مع الحياة بذات المنطق المعوج والتفكير الأحمق الذي بدا هزليا في المثال الذي استفتحت به، نمط يتعامل وكأنما ينبغى إذا لم يدرك كلّ الشيء أن يترك جله، أو حتى ما تبقى له، وقد سيطرت عليهم قاعدة إما الكمال وإلا فلا، يتعاملون بهذا المنطق على مختلف الأصعدة، فإذا عصوا الله معصية تمادوا فى عصيانه ولسان حالهم: ما عادتش فارقة، وإذا قصروا فى طاعة تركوها وباقى الطاعات، وكأنما قد سد باب الإصلاح بنفس حجة: ما عادتش فارقة، وإذا فشلوا فى تحقيق هدف قعدوا وأحبطوا، وكأن الحياة قد انتهت، ولم يعد لوجودهم معنى أو غاية، لأنها . . مش فارقة خلاص . . . وهكذا دواليك!

هذا النمط يعد نموذجا واقعيا لذلك المثال القرآني البديع عن تلك المرأة الحمقاء التي كلما غزلت ثوبا نقضته كأن لم يكن: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ .

نموذج صارخ لحماقة مدهشة لا تختلف كثيرًا عن حماقة أولئك الذين اختاروا التمرغ فى الوحل بدلا من أن ينظفوا ما اتسخ، ويرتقوا ما تمزق من ثيابهم، أو قرروا أن يتلفوا ما تبقى من رصيدهم، بدلا من أن ينموا ويستثمروا ما بقي لهم، أولئك الذين تناسوا ما علّمهم ربهم من أنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وأن فرصة الإصلاح والتصحيح قائمة ما لم يغرغر المرء وتأتيه سكرات الموت.

فما أشد حماقتهم، وما أقل حيلتهم، وما أهونهم على أنفسهم وهم يقبلون التمرغ في تلك المخاضة القذرة التي تكاد ترسم بوحلها شعارهم في الحياة، شعار: خلاص ... مش فارقة!



آكلو العجوة (اللامبدئيون)

وهناك نمط اللامبدئيين، أو يمكنك تسميتهم بـآكلي العجوة!

فمن الأخبار التى كثر ذكرها فى كتب السير وأخبار الأولين ما رُويَ عن حال العرب في الجاهلية، حين كانوا أحيانا لشدة تعظيمهم لآلهتهم يصنعون لها أصناما من عجوة -وذلك لارتفاع قيمة العجوة لديهم وغلو ثمنها ويعدون ذلك تبجيلا لها وقربانا- فكانوا يعبدونها نهارًا، حتى إذا قرص الجوع أمعاءهم صبَّروا أنفسهم بقضمات من تلكم الآلهة المزعومة، والتى كانوا منذ برهة يعظمونها، إلا أن تعظيمهم لها لم يواز تعظيمهم لشهواتهم وأهوائهم، ولم يقف حائلا بينهم وبين التهامها عندما جاعوا!

من هنا تعوّد الأدباء والكتاب على استعمال هذا التشبيه كلما أرادوا أن يعبروا عن حال أصحاب مبدأ اللامبدأ من أولئك الذين يتنازلون عن قيمهم وأصولهم وثوابتهم عند المحكات، ولدى أول تقاطع أو تعارض لتلك المبادئ مع مصالحهم وأهوائهم.

ويظهر آكلو العجوة كثيرا في أيام الزخم والمتغيرات العنيفة، وانتقال مراكز الثقل والقوة، فتراهم يميلون مع كل ريح، وينحنون لكل موجة، ويسارعون إلى مبادئهم ليلتهموها، غير آسفين ولا مستحيين.

ثلاثة أصناف رئيسية من نمط آكلي العجوة تظهر بكثافة في الأيام

الحاسمة والمؤثرة من تاريخ الأمم . .

أولهم: أولئك القافزون من السفينة حين يشعرون ببوادرغرقها دون حتى محاولة إنقاذها أو إنقاذ ركابها، ورغم أنهم ركبوها من قبل باختيارهم، والسعادة والغبطة تتقافز من تصريحاتهم، وتظهر على موالاتهم وتأييدهم وأحيانا تطبيلهم، إلا أنهم فجأة تتلبسهم الثورية والمعارضة، ويتقمصون دورا طالما انتقدوا مَن مارسه حين كانوا منشغلين بغنائمهم ومناصبهم.

ولو كانوا من أصحاب المبادىء حقا -كما هو المظهر الذي يحلو لهم عند قفزهم أن يظهروا به- لكانوا من البداية لم يقبلوا بركوب تلك السفينة، أو على الأقل لكانوا غادروا مرفوعي الرأس بينما المركب تسير في أمان.

حينئذ ربما كانوا ليُصَدَّقوا ويقال عنهم من أصحاب المواقف، أما حين الأزمات فعذرا ما هم إلا آكلو مبادئ، مبادىء من عجوة!

الصنف الثاني هم أولئك المتلونون الذين يسارعون ويبيعون ثوابتهم وشعاراتهم لمن يمتلك القوة، أو لمن يدفع أكثر، فتجدهم يتقلبون من حال إلى حال، ومن موالاة صاحب منصب إلى التزلف لصاحب مال، ويقبلون ما كانوا يرفضونه من قبل، ويطبلون لمن ثاروا عليه بالأمس مستعيرين نفسيّة ميكافيللي، ومعلنين أن وسائلهم الحقيرة تبررها غاياتهم المريضة، حتى وإن وطئوا في طريقهم كل ما تغنوا به يوما ما من مبادىء وقيم وشعارات كانت على ما يبدو جوفاء، وفي أمثالهم يصدق قول رسول الله ﷺ عن عبد الدنيا وناسك درهمها ودينارها: «**إن أُعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط**»

لذلك فإنك تجد هؤلاء لا يمانعون تطبيق المبدأ الشمشونى الشهير، ويرددون كلمة قدوتهم شمشون: «عليَّ وعلى أعدائي» ثم لا يجدون مانعًا

أخلاقيًّا أو مبدئيًّا يحول بينهم وبين هدم المعبد على رؤوس الجميع، ما داموا لم يأخذوا نصيبَهم مما يظنونه كعكة ومغنما، أو في سبيل الخلاص من مخالفيهم وأعدائهم الأيديولوجيين.

أما الصنف الثالث فهم أولئك الهوائيون، الذين يجعلون خلافاتهم أو مشاعرهم السلبية أو الإيجابية سببًا في ابتلاع ثوابتهم، وانتحار إنصافهم، واختناق تجردهم، المهمّ أن ينتقموا ممن يكرهون، ويُبدوا تشفّيهم فيمن يبغضون.

طبعا هذه الأنواع من نمط اللامبدئيين، وآكلي العجوة، والقافزين من السفن، مهما علا صوتهم، وازدادت وقاحتهم، فهم في مرحلة ما ينكشفون، ويفتضح أمرهم، خصوصا حين يقارنوا بالشرفاء الذين لا يرضيهم أبدا أن تهان مبادئهم بهذا الشكل المؤسف، وأنْ تعامل على أنها مجرد أصنام من عجوة تلتهم حين يشتهيها المدعون الذين لا يستحقون الاحترام.

الذي يستحق الاحترام هو ذلك الذي خالف وعارض لمبدأ، ومن صدع بما يدين لله أنه الحق حين قل الصادعون، وكثر المطبلون والمنتفعون، فلم ينظر لمغنم وتحمل دوما المغرم.

الذي يستحق الاحترام هو من ثبت على موقفه، حتى وإن اختلفت معه يوما، لكن يكفيه أنه لم يتلون ويتقافز على أنغام المصالح، أو يتراقص على إيقاع المطامع.

يستحق الاحترام أيضا من لم يضع على عينيه نظارة الكراهية السوداء لتعمي بصره وبصيرته عن رؤية ثوابته وقيمه التي طالما نادى بها، والتي ينبغي أن تظل راسخة مهما كانت مآلات الأحداث.

هؤلاء من يستحقون الاحترام والتقدير، وإن اختلفت معهم في التفاصيل، أما أولئك الذين هم لمبادئهم (العجوة) آكلون، والذين هم لثوابتهم بائعون، وعن قيمهم متنازلون، فيوما ما سينكشفون ويفضحون حين تنتهي العجوة، ولا يجدون ما يأكلونه أو يبيعونه!



لا صوت يعلو فوق صوت المعركة

من خلف سحائب الغبار الكثيف الذى أثارته سنابك الخيل وأقدام المقاتلين تعالى صليل السيوف ودوَّت قعقعات المعركة . .

قتال شديد يكاد ضجيجه يصم الآذان، ويوشك غباره أن يعمي الأبصار.

في ناحية من نواحي المعركة بدا ظلان يقتتلان في مبارزة رهيبة، يغلب على الظن أنها لن تنتهي إلا بموت أحدهما، إنه أسامة بن زيد في مواجهة مميتة مع أحد صناديد المشركين، من الواضح أن الكفة تميل لذلك الشاب الحبيب لرسول الله هو وأبيه، غالبا لن تمر لحظات إلا وينال أسامة من خصمه، ها هو المشرك يسقط على ظهره منهكًا، وها هو سيف أسامة يعلوه ليجهز عليه، ورغم ضجيج الغزوة وصليل سيوفها المختلط بصهيل خيولها إلا أنَّ صوتًا علا فوق صوت المعركة:

-أشهد ألا إله إلا الله

صوت الكلمة يقرع أذني أسامة، نعم لقد سمعها واضحة جلية

الرجل يشهد شهادة التوحيد الآن والسيف فوق رأسه!!

ما هذا يا رجل؟! أوتظنه ساذجا؟!

قطعا تقولها نجاة من الموت المحقق الذي يطل عليك برأسه من بريق

سيف أسامة، لا شك أنك تصرخ بها هربا من ذلك النصل المحدق بك، ربما مرت تلك الخواطر برأس أسامة في تلك اللحظات القصيرة، والرجل يهتف بالشهادة في وجهه، ولعل ذلك السيف قد قطع تلك الخواطر بينما ينفذ في جسد الرجل كاتما صوته الصارخ بكلمة التوحيد، لقد مات الرجل!!

وماذا في هذا؟ أوليست معركة؟

إذًا لا صوت يعلو فوق صوتها

«فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»

هكذا صاح النبي في لحظة من أشد لحظات غضبه الذي ما كان يوما إلا لحرمة من حرمات الله تنتهك، لم يغفل النبي عن ذلك الصوت الذي علا فوق صوت المعركة، لم يقل كما يحلو لأصحاب نمط لا صوت يعلو فوق صوت المعركة أن يتشدقوا أثناء الأحداث المفصلية الفارقة: مش وقته أو بعدين، المعارك لها احترامها

لم يقل: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، لقد علا صوت المبدأ والعقيدة، أفلا شققت عن قلبه؟!

هكذا عنف حبيبه الذي لولا تحريم التبني لكان يدعى حفيده، وهكذا قال: «قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إن لم يعلموا» عن أولئك الذين أفتوا السائل في المعركة بأن يغتسل ورأسه مصابة فمات من فوره!

لم يحل كونهم في معركة بينهم وبين أن يقول عنهم النبي تلك الكلمة الشديدة، ولم تدفعه المعركة أن يسكت عن توجيههم، لم يقل كما يقول نمط من الناس اليوم: (مش وقته) ولا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

وهكذا فعل مع خالد بن الوليد يوم وقع في فعل مشابه، فلم يمنع صوت

المعركة صوت الحبيب ﷺ من أن يعلو صادعا: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد!

حتى حين أرسل جيشا لفتح خيبر وقتال يهودها لم يعل صوت معركتها على صوت توجيهه لقائد جيش المسلمين في تلك الغزوة علي رضي الله عنه إذ قال له: لئن يهدي الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم.

هكذا علمهم وعلم الأمة من بعدهم، وهكذا علمه الله بعد معركة سالت فيها دماؤه الشريفة على وجهه، فقال: كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَّبوا وجهَ نبيِّهِم بالدَّمِ وَهوَ يَدعوهم إلى اللَّهِ؟!

فأنزل الله قوله يعلو على صوت كل معركة ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾.

وليتعلم وتتعلم الأمة رغم الألم أن هنالك أصواتًا لا بدّ أن تعلو على صوت المعركة وكل معركة

صوت العقيدة، صوت المبادئ، صوت الإنصاف، صوت الأخلاق، صوت العقل، وغيرها من الأصوات التي ربما لا تبدو عالية عند أصحاب هذا النمط أثناء المعارك، لكنها لا بد ستعلو يوما بعد أن يزول غبارها وتضع الحرب أوزارها، وحينئذ ربما يكون الأوان قد فات، ولا ينفع الندم، ولا الاحتجاج بتلك الحجة التي لا يفارقها فاشي في تاريخ البشر، ويستعملها ليسفه أي معارض، ويطيح بأي مخالف، ويمنع أي نقد، ويكتم أيّ صوت لا يوافق معركته التي يعتقد ألا صوت يجب أن يعلو فوق صوتها!

إنه نمط متسلط يرفض أن يخرج الناس من عباءته، ويأبى أن يسمعوا صوتا بخلاف صوته، وهو يجعل المعارك وسيلة لتحقيق هذه الغاية، فيتخذها

ستارًا يعتم به على الحق، وضوضاء تلهي الناس عن سماع الصدق وإدراك طبيعة الأشياء.

لكن يوما ما سيزول الغبار، وسيهدأ الضجيج، وسيدرك الجميع حينئذ أن صوت الحق وصوت الصواب وصوت المنطق وصوت المبادىء والثوابت والقيم كان ينبغي أن يعلو على كل صوت

حتى على صوت المعركة!



تفريغيون عن الحقيقة محجوبون

في واحدة من أجمل تلاواته القرآنية انطلق الشيخ محمد صديق المنشاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصدح بصوته العذب مرتلا آيات لو أُنزلت على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، والحقيقة أنه في تلك الليلة تحديدا كان الشيخ متفننًا بشكل يفوق الوصف، ويبدو أن فتح الله تعالى له كان على أشده أثناء هذه التلاوة المؤثرة لآيات من أواخر سورة «المؤمنون»، تتحدث عن الآخرة والمآل والمصير ما بين جنة أو نار، هل كان تأثر الشيخ بالآيات سبب ذلك الفتح في القراءة؟

أم أنه كان رزقا ساقه الله للمستمعين ليدَّبروا آياته، ويتأملوا معانيها عبر هذا الصوت الشجي الذي يكاد يفسر المعاني من فرط تأثره بها وروعة تجاوبه معها؟

أم هو صلاح وتقوى وخشية استقروا في قلب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وظهرت آثارهم على لسانه وفي تلاوته؟

ربما كانت تلك هي أسباب الفتح وربما غيرها، ليست هذه هي القضية، في النهاية كانت التلاوة رائعة، مؤثرة، مبكية، مذكِّرة ..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ﴾.

عند كلمة «كلا» توقف المنشاوي رحمه الله بتمكن و(حرفنة) منقطعة النظير، وقفة تجعلك تتأمل تلك الكلمة الحاسمة التي تقطع أي أمل في العودة بعد انتهاء الأجل، وقفة تمنحك الفرصة للتدبر والذكرى ومراجعة الحال والتفكر في سبل الإصلاح قبل سماع تلك الكلمة هنالك في الدار الأخرى.

وقفة تستلزم الكثير من النظر، وتفتح باب القلب للكثير من الشجن والوجل، المنطق والفهم البسيط يقول ما سبق، لكن الواقع كان مختلفا، لقد تفجرت آهات المستمعين وتهليلاتهم عند تلك الوقفة المتمكنة، وبعد هذه الكلمة الحاسمة:

الله الله الله يا عم الشيخ

إيه الحلاوة دي؟!

إيه يا مولانا الجمال ده؟!

الله يفتح عليك يا سيدنا

يا سلام يا عم الشيخ

عظمة على عظمة

شلال من تلك العبارات المستحسنة انهمر عبر المذياع أثناء تلك الوقفة ليقطع سيل الأفكار التي دارت بخلدي أثناء استماعي لتلك الآيات المبكية:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ
﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

تستمر التلاوة، وتستمر معها الصيحات المتلذذة والتهليلات المشجعة، ويلتفت المستمعون لجمال الصوت وروعته وتلذذهم بالأداء، وينشغلون بذلك عن المعنى الخاشع الذي يفترض أن تسيل مآقيهم من خشيته، وتختلج قلوبهم لجلال مشهده الذي ينقلهم القرآن إليه كأنه رأي العين!

التلذذ . .

الطرب . .

الإعجاب . .

مشاعر طبيعية تجاه هذا الصوت العبقري، وذلك الأداء المذهل، لكن هل هذا هو المراد؟

هل من الطبيعي تجاه آيات مثل التي تُقرأ هذه، والتي تحمل ترهيبًا وتدعو للتفكر ومراجعة النفس، أن تستقبل بمظاهرة إعجاب وتهليل؟ وهل أُنزل القرآن لأجل ذلك؟ وهل تلاوة القرآن هدفها الاستمتاع والإطراب وهز الرؤوس؟

أعتقد أن الإجابة معروفة، وأعتقد أن هذا الموقف وأشباهه يلخصون تلك الآفة الكبرى التي يعاني منها أصحاب هذا النمط، آفة الانفصال بين الحقيقة والمظهر، بين المراد والواقع، بين المعنى والشكل، وبين العمق والقشرة، آفة إماتة حقائق الأشياء وجوهرها، لإحياء غلافها الخارجي والانشغال بالبروباجندا المحيطة بها.

تلك الآفة التي جعلت المستمعين يومًا في أحد المآتم، والقارئ يرتل قول الله حكاية عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

فإذا بهم يتصايحون قائلين: سبحانه!!

سبحان من؟!!

قطعا لا يقصدون فرعون

هم فقط سمعوا كلمة «ربكم الأعلى»، وعليهم أن يردوا، وأن يظهروا تفاعلهم مع القراءة، وأن يتعالى الضجيج الذي يزيد الحواجز بينهم وبين ما أنزل القرآن لأجله .. الفهم .. ثم العمل بهذا الفهم!

لا يُستغرب إذًا أن يقول البعض «سبحانه» ردا على كلمة فرعون، ولا يُستغرب أن تتهلل الأسارير وتعلو صيحات الإعجاب في مقابلة آيات تتحدث عن الموت والبرزخ والقيامة، إنها عزلة المعاني، وإماتة الحقائق وتفريغها من مضمونها، تفريغ القرآن بالانصراف لجماليات الصوت والأداء، وتفريغ الخطب والوعظ بالسجع المتكلف والبلاغيات المتقعرة، وتفريغ العلم بالغلو في حملته والتعصب لهم والانشغال بمديحهم، وتفريغ الفكر بتعقيد الأسلوب ونخبوية الطرح والاستعلاء على المخاطبين، وتفريغ السياسة بحمى التهليل الدائم لكل شيء ولأي شيء يصدر عن الرمز أو القائد أو الجماعة والحزب، تفريغ كل شيء بالإغراق في المظاهر الصاخبة المحيطة به، وبالانصراف عن محتواه وحقيقته، وليعلو في النهاية صياح واحد يطغى على كل صوت وفهم ومعنى، صياح فحواه دائما: الله الله يا عم الشيخ!



لا يجاوز حناجرهم

«يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

هذا الوصف العجيب أطلقه النبي ﷺ على طائفة من المتناقضين المارقين من الدين، لم يكن موطن الخلل لديهم في كثرة التلاوة، أو كمّ التعبد بل على العكس، كانوا كثيري العبادة، يحقر الناس صلاتهم إذا ما قورنت بصلاة هؤلاء المارقين، وكذلك صيامهم وتلاوتهم، ومع ذلك مرقوا من الدين.

ورغم أن القرآن هو فى الأصل كتاب تغييري، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولو أنزل على جبل لرأيته خاشعا ولشهدته متصدعا متأثرًا، ورغم أن الله قال عن كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ . . . وتقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يُحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال، وتقطيع أرض، وتكليم موتى، إلا أن كل ما سبق لم يفرق مع هؤلاء القراء الذين لم تنفعهم قراءتهم للقرآن، ولم تغيرهم كثرة تلاوته، والسر هو تلك الصفة التي لازمت قراءتهم، نفس الصفة التي تميز قراءة نمط من الناس اليوم يعد امتدادا للنمط السابق . . «لا يجاوز حناجرهم»!

عند الحنجرة منتهى الرحلة، وهناك أقصى مسافة تبلغها المعاني والتوجيهات القرآنية، فلا تصل إلى القلب، ولا تعبر أسوار العقل، ولا تسمو بها الروح، أو يصح بها الفهم، وبالتالي لا تفيد ولا تؤثر، والأهم لا تغير من واقع المرء شيئا، تلك هي الحقيقة المؤسفة التي يرفض كثير منا الاعتراف بها، وإلا فبمَ نفسر هذه الظواهر المحزنة التي تحيط بنا اليوم.

كمٌّ لا بأس به من التلاوة خصوصا في مواسم الخير كرمضان الذي يحرص فيه الكثيرون على الختمات المتعددة، وعلى سماع القرآن وترتيله آناء الليل وأطراف النهار، والصلاة به في التراويح والتهجد، ثم المحصلة الكيفية لا تساوي أبدًا الكم المقروء والحرص المشهود، والسر هو الموضع الذي ينتهي إليه القرآن.

أهي الآذان والحناجر؟ أم هي العقول والقلوب ومن ثم الجوارح والمعاملات؟!

أعتقد أن الإجابة واضحة من حولنا!

القرآن كتاب تغييري عملي كما بيَّنّا في السطور الماضية، لذلك تجد الربط الواضح بين مشهد الجود المضاعف (العملي) لدى النبي ﷺ وبين مدارسته للقرآن مع جبريل عليه السلام في رمضان، فتجده في رمضان أجود ما يكون .. أجود من الريح المرسلة حين يأتيه جبريل فيدارسه القرآن، كما بلفظ الحديث الصحيح، إذن فهدي النبي في رمضان مع القرآن لم يكن مطلق القراءة وإكثار الختمات وحسب، ولكنها المدارسة، تلك السنة المهجورة في رمضان للأسف، تأمل الربط!

علاقة وثيقة بين القرآن وتدبره ومدارسته، وبين العمل والتطبيق

والخلق، لكن للأسف كثير منا شغل بالهدية عن الوصية، والهدية هي الأجر والمثوبة، فصار طلبه لذلك هو الأصل، ونسي أو تناسى أن تلاوة القرآن ليست فقط وسيلة لتحصيل الحسنات، بل هو منهج تغييري يؤثر على واقعك وحياتك بعد أن تفهمه وتعي معانيه.

بداية هذا التغيير تكون بتصحيح النظرة للقرآن، ومن ثم تصحيح العلاقة وتحويلها إلى مصاحبة حقيقية ومعرفة تتعمق تدريجيا.

إنها دعوة لتغيير النظرة النمطية للقرآن، وعدم الانشغال بالهدية عن الوصية، والانتباه إلى طبيعة العلاقة التي تجمع بين المسلم وبين آيات ربه.

تلك العلاقة التي يصعد المسلم درجاتها عبر سلم المدارسة والتدبر والتعرف، ليستحق في النهاية ذلك اللقب الشريف العظيم، لقب صاحب القرآن.

صاحَبَه وعرفه واستوعبه وعمل به، ولم يكن من أولئك الذين يقرأون القرآن بلا فائدة تذكر، لأنهم ببساطة قرأوه دون أن يجاوز حناجرهم!



الناس التانيين

بالأمس القريب مررت قدرًا ببرنامج من برامج الطبخ الشهيرة على شاشة إحدى الفضائيات، وبالنسبة لشخص لا يجيد عمل كوب شاي لنفسه مثلي ففي العادة تعد تلك البرامج صوتا في خلفية المشهد لا ألاحظ تفاصيل المعلومات (الدسمة) التي يحويها، لكن هذه المرة قرعت أذني كلمة عجيبة صرت أسمعها كثيرًا مؤخرًا.

الحقيقة هي ليست مجرد كلمة، بل هي أسلوب وضمير متكرر في صياغة الكلام الذي حوته مداخلة سيدة من سيدات البيوت الفضليات اللاتي يحلو لهن عمل مداخلات في تلك البرامج.

السيدة الفاضلة كانت تقترح على الشيف مقترحًا حفَّته ببعض التشويق والإثارة والحرص على ألا يتسرب (لهم) ذلك المقترح الثمين الذي اختصت به الشيف.

«لهم»

قبل أن يذهب ذهنُكَ بعيدا ويظن أن المقترح له شأن بالسياسة أو الأيديولوجيا، وأن الضمير (هم) عائد على فصيل ما -ورغم أن هذا لم يعد بعيدًا حتى عن برامج الطبخ التي صارت لا تخلو مؤخرا من الحديث عن

السياسية وفرقائها- فإن الأمر هذه المرة على ما يبدو لم يكن له علاقة مباشرة بالسياسة.

المقترح كان بأن يقدم الشيف فقرة يومية ثابتة عن استعمال كل (تابل) من التوابل المشهورة التي تحتاج إليها سيدات البيوت، وتحدث لهن أحيانا بعض (اللخبطة) في استعمالها . .

بس كدة . . مقترح عن التوابل والبهارات!!

ما علينا . . المهم . .

طوال المكالمة كانت السيدة الفاضلة تؤكد على أهمية التعجيل بتنفيذ المقترح حتى لا (يلطشوه)، وكي لا تفاجأ (بهم) بعد أيام وقد (لهفوا) الاقتراح ونفذوه . . منهم لله (البُعدا)

العجيب أن الشيف كان يومىء برأسه موافقًا ومتفهمًا، وكأنما هو معتاد على هذا التحذير (منهم)،

من مين بقى؟! هم مين دول؟

من هؤلاء الذين تتكلم عنهم السيدة؟

هكذا سألت زوجتي مستفهمًا، فلعلها تتابع البرنامج فتكون أدرى مني بأعداء الشيف الذين يتربصون به، ويسرقون أفكار برامجه بحماس وإصرار يستدعي هذا الحرص والتحذير المتكرر من السيدة الفاضلة الموالية له!

لكنها لم تعرني انتباها كافيًا فقد كانت الوصفة الشهية على ما يبدو لديها أهم من تلك النقاط الهامشية.

وما شأنك أنت بأعداء الشيف؟

لماذا تشغل نفسك (بهم)؟

الحقيقة أنني لم أكن قلقا لهذه الدرجة على مستقبل الشيف وبرنامجه، لكنني كنت منشغلا بأمر آخر تماما . .

حتى في وصفات الطعام صار هناك (إحنا) و(هم)!!

حتى برامج الطبخ صار لها أولتراس ومشجعون وموالون، وفي المقابل أعداء نجاح متربصون؟!

هل هذا شيء طبيعي؟!

هذا ما دار بخلدي وشغلني وأنا أتأمل الحديث عن أعداء الشيف وبرنامجه، هل تراني مبالغا يا عزيزي القارىء وقد صنعت من الحبة قبة؟!

ربما تكون محقا في وصفي بالمبالغة لو أن هذه مجرد كلمة عابرة، أو ثقافة نادرة، وأنا قد أضفيت عليها نوعًا من الزيادات، أو استعرت بعضا من البهارات والتوابل التي يتميز بها الشيف، لكن هلا راجعت نفسك والمحيط الذي تعيش فيه ثم أعدت تقييم المشهد الذي ذكرته لك، وبعدها تخبرني مشكورا:

هل هي فعلا جملة عابرة أم قد صارت بالفعل ثقافة شعب ونمط حياة؟!

ثقافة (إحنا) و(هم)، ثقافة تجدها في الكرة كما تجدها في السياسة، وبلا شك ستجدها في الفن والطرب، والآن قد وجدتها في الطبخ وعالم المأكولات، وكأنما ميلنا للشيء أو حبنا له يستوجب تعصبًا (له)، ويستلزم معاداة (لهم)

«للأغيار»

«للمختلفين»

«للآخرين»

«للناس التانيين»!!

هذه الروح الانقسامية المتربصة أراها الآن تنتشر انتشار النار في الهشيم، وتسري خلال طبقات مجتمعنا بمختلف مراحله العمرية، حتى بلغت لهو الأطفال ولعبهم البريء (أو الذي كان يوما ما بريئًا)، وقد أضحت نفس اللغة تشوبه بوضوح، لغة الانقسام والعداوة والتربص، لغة الحذر من الناس التانيين المختلفين الوحشين.

لغة يسعرها أقوام بجهد غير محمود ولا مشكور، وبألسنة حداد، لتتحول في النهاية إلى أصل وامتحان يعقد لكل منا في كل أمر عظيمًا كان أو تافها، امتحان فحواه: إنت معانا ولا مع الناس التانيين؟!

بينما يتراجع تدريجيا السؤال الأهم الذي نحتاج إليه حقا لنستفيق من تلك الإغماءة التعصبية سؤال: هل الأمر دائما يستحق أن يكون هناك ناس تانيين؟

هل لا بد من أعداء وأولياء في كل شيء؟

هل في كل اختلاف أو خلاف لا بد أن يكون هناك صدام أو تراشق أو تربص حتى بين أبناء الفكرة الواحدة أو التوجه المتقارب؟

هل لا بد أن يكون هناك أناس (تانيين) وأغيار مجرمون عند كل خيار أو آلية، حتى لو اتفق أهلها في الأصل والثوابت؟

حتى في برامج الطبخ؟!!

الأعـرافيون

إنه نمط المذبذبين، الذين لم يقدروا على اتخاذ القرار، فلا هم إلى هؤلاء، ولا إلى أولئك، نمط يحقر نفسه، ولا يحدد وجهة أو يحسم أمرا أو يتخذ أي قرار، ولا يفصل في اختيار فيسلك سبيله إلى نهايته.

نمط يعيش على الأعراف في الدنيا، بين الحق والباطل، ويخشى عليه أن يكون من أهل أعراف الآخرة بين الجنة والنار الذين لم يعرفوا إلى أين يذهبون في الآخرة، كما تذبذبوا ولم يعرفوا طريقهم في الدنيا.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾.

وهم يعرفون الصنفين الآخرين بسيماهم، لأنهم كانوا يختلطون مع كل صنف في الدنيا، ويرون خياراتهم وأعمالهم، بيد أنهم لم يصاحبوا أيا منهم مصاحبة كاملة:

﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

ما أجمعها من كلمة)يطمعون)، كلمة يظهر منها استشرافهم للدخول، ورغبتهم في التنعم بنعيمها، لكنه يومئذ يكون مجرد طمع لا يترجم لعمل، فقد انقضى وقت العمل، وقد زهدوا فيه، والآن يعلمون أنهم ليسوا أهلا لها بعد تميعهم في الدنيا وتثاقلهم عن سلوك سبيلها: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾.

يخافون من هذا المكان الموحش القاسي، ويدركون أنهم ليسوا بمعزل عنه بسبب تقصيرهم وبعدهم عن طاعة الله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

عرفوهم كما عرفوهم في الدنيا، حيث كانوا يرددون في الدنيا أنهم أصحاب المال والمنصب والجاه، ويتعالون على المنعمين الآن ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾

ولقد تركت الآيات مصير أهل الأعراف معلقًا كما كان قرارهم في الدنيا معلقا، وقوفهم يوم القيامة في المنتصف على الأعراف لأنهم في الدنيا كانوا في المنتصف أيضًا، كانوا بين ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، إنها صفة من صفات المنافقين، يعرفون أهل الحق الذين كانوا يدعونهم إلى الهدى ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾ لكنهم مع معرفتهم لم يختاروا أن يكونوا معهم.

ويعرفون أيضًا أهل الباطل لكنهم لم يختاروا الانحياز الكامل إلى صفهم، هكذا كانوا في حيرة في الدنيا، وهكذا تستمر الحيرة هناك خارج الجنة، نعم ربما يدخلونها بعد حين لكن متى؟!

بعد كم عام من الانتظار؟!

وأي عذاب نفسي هذا الذي يتعرضون إليه وهم ينظرون إلى البشر من حولهم يساقون إلى الجنة وإلى النار، وهم باقون منتظرين خائفين ويطمعون!

صحيح أنه عذاب نفسي، لم يرد الخبر فيما نعلم أن عذابا ماديا يصاحبه، لكن في النهاية هو أمر صعب استحقوه بتميعهم وتذبذبهم البارد، وحرجهم من سلوك طريق الحق.

لذا نجد من أهم التوجيهات في سورة الأعراف هو الذي يظهر في هذه الآية من مطلع السورة

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾.

لا تتردد ولا تتباطأ كثيرًا، بل اختر أن تتبع هذا الكتاب ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ * ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾

إنها دعوة للاختيار، واتباع السبيل الحق، وترك الحرج منه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

إن السورة تحذر من هذا النمط الحائر، وتدعوه أن يختار لميزانه ومآله في هذا اليوم ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

سورة الأعراف تدعو للفصل والاختيار، اختيار سبيل المتقين ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

التقوى والإصلاح، وليس فقط الصلاح، بل الإصلاح (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين)

تأمل ..

المصلحين وليس فقط الصالحين، هكذا سبل النجاة من الخوف والحزن، وما أشد خوف أهل الأعراف، وما أعمق حزنهم حين ينظرون إليها ولم يدخلوها وهم يطمعون، تماما كما كانوا يرقبون السبيل في الدنيا ولم يلجوه، فهل يطمعون ويلجون؟!

دوائر مفرغة

وهذا نمط بعيد عن التركيز، يدمن التيه، ويعشق الدوران في الدوائر المفرغة، وأصل وجود تلك الدوائر المفرغة يكمن فى عدم التفاته للهدف من وراء الدوران بداخلها، ولا سأل نفسه يوما ذلك السؤال الشهير المتكرر الذي سألته «مارى منيب» من شرفتها العتيقة في تلك المسرحية القديمة

إنتي جاية تشتغلي إيه؟!!

يصيح الممثل «عادل خيرى» مجيبا بنفاد صبر: سواق يا هانم سواق.

مشهد هزلي رأيناه جميعًا فى طفولتنا فى مسرحية «إلا خمسة»، والتى كانت من مقررات التلفزيون المصري التى يهوى عرضها لعدد لا نهائى من المرات فى عصر ما قبل الفضائيات، أتذكره كلما نظرت إلى هذا النمط الذي يأبى أن يسأل نفسه مرة إحنا جايين نشتغل إيه؟ وليه؟

ليه كتبت كذا؟! ليه قلت كذا؟! وليه سخرت من كذا وكذا؟!

لماذا عنفت فلانا واحتددت على علان؟ أو ماريت وجادلت علانة؟ أو أغلظت القول لترتان وترتانة؟!

أسئلة يندر أن يسألها أهل هذا النمط التائه لأنفسهم، فقط يمضون قدما فى طريق مرسوم ومحدد دون أن يحاولوا استشراف آخر هذا الطريق ومآلات السير فيه.

يتكلمون ويثرثرون ويحتدون ويشتدون دون أن يسألوا أنفسهم السؤال الأهم:

إحنا جايين نشتغل إيه؟ إحنا بنكلم مين؟! وليه؟!

هل نحدث الموافق ليزداد موافقة؟ أم نحدث المخالف لنقنعه ونغير وجهة نظره التى نراها خاطئة لكى تصير إلى الرأي الذى نرى صوابه؟

إن كانت الأولى فلا بأس .. التثبيت مطلوب بلا شك، لكن هل يستحق الأمر كل العناء؟!

فكر جيدًا هل يحتاج المقتنع بفكرك ورأيك إلى مزيد من الإقناع فى زمان التعصب للرأي والموالاة والمعاداة عليه هو الأصل ..

أشك ..

أما إن كانت الثانية فها هنا مربط الفرس، إن كنت تريد التصحيح وإصلاح من تراه على خطأ فهل هذه النوعية من الكلمات والأساليب والوسائل التى تنتهجها ستفرق مع المخالف؟

هل ستغيره؟ هل ستقنعه؟

هل سمعت بأحد يقتنع بإهانة أو يغير وجهة نظرة بمسبة أو سخرية وانتقاص خصوصًا فى زمان صار فيه تحريك جبل من مكانه أهون أحيانًا من تغيير وجهة نظر المخالف؟!

الحقيقة أنك بتلك الأشياء تعاقبه!

أسمع بعض التائهين يصيحون بفرحة أرشميدس حين قال: وجدتها وجدتها، ها هم قد وجدوا وظيفتهم المنشودة، نعم نعاقبه وهو يستحق،

وهاهنا مشكلة حقيقية.

فعليًّا أنت لم تعاقبه، بالعكس لقد ثبَّته أكثر على وجهة نظره، وسيرد لك العقوبة بمثلها وزيادة، وسيستمر دورانك ودورانه فى تلك الحلقات والدوائر المفرغة، والأهم أنك قد عممت حكما ليس من حقك، ونفذت شيئا ليس من اختصاصك . .

من قال إن كل مخالف يستحق عقوبتك؟

و من أدراك أنه حالة ميئوس منها لا يمكن أن تقتنع بوجهة نظرك أو تصحح مفهوما تراه خاطئا؟

ومن أعطاك الحق أصلا أن تعاقب الناس فضلا عن أن تعيِّن نفسك حكمًا عليهم وقاضيا وجلادًا فى الوقت نفسه؟!

هناك احتمال ثالث أن يكون خطابك للمذبذبين أو المحايدين اللي مش فارقة معاهم (الخناقة) على بعضها، وعلى فكرة النوع ده برضه فى الغالب معاهم معاهم عليهم عليهم، وكلمة بتوديهم وكلمة بتجيبهم، فمش مستاهلة تحرق أعصابك أوي كدة.

صدقنى . . فى كل الأحوال ستجد أن الأمر لا يستحق كل هذا التشنج، وأن حقيقة كثير مما تفعله جهد مهدور فى غير محله، أو طريق انتصار للنفس، ووسيلة تفريغ محضة لا تقدم ولا تؤخر.

قد تريح . . نعم

وقد تشعر المرء أنه يفعل شيئًا، وقد يكون فعلا يفعل شيئا، لكنه شيء لا يبعده كثيرًا عن تلك الدوائر التى يطوف فيها هذا النمط التائه الذي لا يعرف مهمته.

فقط لو ارتقى سلمًا، ونظر بمنظور عين الطائر، وبدأ يراجع نفسه، فلربما غيّر خارطته الذهنية واتجاه كلامه وطريقة طرحه وأهدافه، وبناء عليه سينتهج منهجًا إقناعيًا منطقيًا مختلفًا.

فقط لو سأل نفسه: إحنا بنكلم مين؟ وليه؟

أو بصياغة ماري منيب الموجزة: إنتى جاية تشتغلي إيه؟



النمطيون (اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش)

نمط من النمطيين الخائفين من التجديد، الفزعين من كل ما هو جديد، لا يجرؤون على التجربة، ولا يملكون قدرة على خوض غمار المجهول، وشعارهم في الحياة: اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش!

صنف متجمد التفكير، لا يستطيع عقله أن يبارح موقعه، أو يرنو إلى ما هو أفضل، وهذا التجمد في أصله خوف من المجهول، ومهابة أن تكون الأول والرائد، حتى لو كانت خيرية الأمر ظاهرة، ونفعه واضح لا تخطئه عين فقيه، فإن مجرد ورود فكرة أن يستعيض الناس عن عما اعتادوه ونشأوا عليه بما هو جديد عليهم هي فكرة مرعبة لهذا النمط.

لكن يظل السبق دوما لمن استطاع أن يواجه رهبة الجديد، ويقتحم خوفه من المجهول، ولا يأبى باستهجان المستهجنين أو مزايدة المزايدين.

ولو رجعت بذهنك وتأملت في التاريخ القريب والبعيد فستجد أن كل جديد كان يواجه بعراقيل الخوف وعوائق الاستهجان، وربما التحقير من شأنه وامتهانه من البعض، دائما كانت هناك رهبة من الوسائل الحديثة والطرق الجديدة والسبل المبتكرة.

لو رجعنا إلى دفاتر التاريخ وقلبنا صفحاته القديمة لوجدنا فى البداية تحفظا على جمع المصحف، رغم الاحتياج الشديد لذلك بعد مقتل الحفاظ

في حروب الردة واتساع رقعة البلاد الإسلامية، وصار من المتعذر أن يصل القرآن كاملا لتلك القفار البعيدة والأمم الجديدة، هنا قرر سيدنا أبوبكر ﵁ أن يجمع المصحف، ثم لما زالت الرهبة، وشرح الله صدور الصحب الكرام، وكان الفضل العظيم، صار بين أيدينا اليوم المصحف المجموع.

تخيل لو أنهم كانوا قد استجابوا لدعوات الترهيب من الجديد، والتخويف من كل ما هو مختلف!

لا شك ان المثال عظيم، ولا يطابق بكل جوانبه ما يصلح أن يقال عنه جديد أو مختلف، لكنني فقط أشير هنا إلى نقطة الرهبة من جديد الوسائل، ولوازم التطور في الآليات، والتحفظ على ذلك ابتداء، وهذا ما ستطالعه كلما قلبت صفحات التاريخ، وتجولت بين فصوله، لتجد هذا النمط النمطي الذي تصدق فيه مقولة الشيخ الغزالي ﵀: لكل جديد رهبة مهما كان هذا الجديد مغريًا وأمرًا يتمناه المرء طوال حياته ويسعى إليه!

وأزيد: ولكل جديد تهوين واستهجان، يصل مع البعض إلى احتقار ممارسيه، والتقليل من شأنهم وآثارهم.

تأمل ذلك الأخذ والرد والمحاورات والمناقشات التي طرحت عندما قبل الشيخ محمود خليل الحصري فكرة تسجيل القرآن على اسطوانات بصوته، ليكون بذلك أول من يسجل القرآن كاملا برواية حفص على مستوى العالم، وذلك في مطلع الستينات من القرن العشرين.

ولقد ذكر لي بعض علماء القراءات من المخضرمين بارك الله في أعمارهم كيف أن الفكرة في البداية كانت مخيفة، وكيف أن جُل قراء هذا الزمان -إن لم يكن كلهم عدا الشيخ الحصري- قد رفضوها ابتداء، كما

ترددوا كثيرا من قبلها حين بدأ الترتيل في إذاعة القرآن الكريم التي كان الشيخ الحصري من روادها أيضا.

وقد اختلفوا كثيرا في ذكر أسباب هذا الرفض، وبعضهم ذكر أسباب فقهية، والبعض ذكر أسبابا مادية . .

لن أطيل في تفصيل ما قيل، فأصل المسألة كان ببساطة تلك الرهبة . . رهبة الجديد!

لقد كان الخوف من المجهول، ومهابة أن تكون الأول والرائد، رغم أن خيرية الأمر ظاهرة، ونفعه واضح لا تخطئه عين فقيه!

لكن فكرة أن يستعيض الناس عن أريكة القارىء العتيقة بجهاز جرامافون يستمعون من خلاله إلى تلاوة القرآن في أي وقت كانت على ما يبدو فكرة مرعبة.

فلما زالت الرهبة، وأخذ الحصري زمام المبادرة، فسجل المصحف بصوته الجميل، أقبلوا وبدأوا تباعا في تسجيل القرآن، ليتردد صدى أصواتهم في أنحاء الدنياk وليصبح الناس كل يوم على صوت الحصري الرخيم، أو تلاوة المنشاوي الخاشعة، أو روعة ترتيل عبد الباسط رحمهم الله جميعا.

لكن يظل السبق للشيخ الحصري، فهو الذي استطاع أن يواجه رهبة الجديد، ويقتحم خوفه من المجهول، ولا يأبه باستهجان المستهجنين أو مزايدة المزايدين.

دائما ما كانت الرهبة من الوسائل الحديثة والطرق الجديدة والسبل المبتكرة kفالأصل أن الناس يلازمون ما اعتادوه، ويصعب عليهم جدًّا أن يقبلوا شيئًا خلاف ما ألفوه.

وللأسف كثير من أصحاب الفضل أو القيادة يظلون دائما مرتبطين بذلك النمط النمطي، أما المغيرون المجددون فإنهم يتحررون من أغلال النمطية، ويفكرون بشكل مختلف ومبتكر وعصري، ويتعاملون مع الوسائل بنوع من العملية ما دامت لا تخالف أصلا شرعيًّا، أو معتقدا إسلاميا، وغاية ما فيها أنها فقط جديدة غير مألوفة!

«لو كنت قد سألت الناس ماذا يريدون لقالوا لي إنهم فقط يريدون حصانًا أسرع»

تلك المقولة المنسوبة لهنري فورد رائد صناعة السيارات المعروف تلخص تلك القضية بشكل واضح، فالناس معذورن في هذا الرفض أو قصور الرؤية، وذلك لأنهم كما قلت آنفا أسرى لما يعرفونه ويعتادونه، وما كان لصاحب رؤية أن يقدم جديدًا لو ظل يسير خلف نظرة الناس النمطية والتقليدية، ولم يكن العالم ليشهد تلك الثورة التقنية والمعلوماتية الهائلة لو استمع أصحاب العقول لما يمليه الجمهور، فرضخوا لوسائلهم القديمة وحسب.

لذا تجد الشرع في نطاق الوسائل القابلة للتحديث يذر مجالا للتجديد والتطوير، ولا يغلق إمكانية التحديث والتغيير، فقط يضبطها بضوابطه وحدوده، فتظل الوسائل لها أحكام المقاصد، فلا تستعمل وسيلة محرمة لمقصد حلال، بل لا بد أن تكون الطريقة جائزة لتؤدي إلى الغاية الجائزة.

هذا هو الشرط أما من حيث التفاصيل والأدوات فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن جعل لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها هو القائل

في ذات الآية ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ، المسألة إذن ليست قاصرة على سيف أو رمح أو خيل ودواب!

تأمل الإطلاق في قوله ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ لتعم كل قوة يستطيع الإنسان أن يحصلها ، المسألة إذن ليست قاصرة على سيف ورمح ، أو خيل ودابة ، بل انطلقوا وابتكروا وجددوا ما استطعتم ما دام كل ذلك في إطار من الضبط وعدم التجاوز والانتهاك لحدود الله.

لكن للأسف تظل لكل جديد رهبته ، ومهما كان هذا الجديد نافعا ويحتاج إليه الخلق فإن هذا النمط يظل متربصا به ، يواجهه بخوف وفزع وأحيانا استهجان وامتهان.

هل قصر السلف الصالح رحمهم الله على وسائل المعينة كأن يكتفوا مثلا بالمدارسة في المساجد وحلقات العلم مقصرين في كتابة الكتب وتصنيف المصنفات التي بقيت تراثا هائلا من بعدهم؟ الجواب : لا بل جابوا الدنيا بمشارقها ومغاربها لنشر دعوتهم ، وإبلاغ علومهم لخلق الله بكل سبيل ، وهل كانت لدى مفكري الحركة الإسلامية وروادها عبر التاريخ وسائل لتوصيل ما عندهم فلم يستغلوها؟؟

الجواب : لا ، فالمتتبع على سبيل المثال لجهد الشيخ محب الدين الخطيب والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم في مطلع القرن العشرين يجد حرصًا من أولئك الرواد رحمهم الله على إخراج المجلات العصرية التي تواكب الحقبة الثقافية التي عاشوا فيها ، وفي عصرهم ظهرت الجمعيات العلمية والدعوية والخيرية ، وكان لهم دلو فيها وسهم في خيرها.

فهل يتصور أحد أنه لو كان لدى أولئك الرواد فرصة ليتحفونا بمقولاتهم

ومقالاتهم، ويصدعوا برسائلهم وأصول دعوتهم وأفكارهم من خلال الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل لما فعلوا؟!

هل لو كان لدى المصنفين الأوائل والأئمة الموسوعيين أمثال البخاري ومسلم وأحمد معرفة بـ(البي دي إف) والمواقع الوقفية التي تعنى بنشر الكتب العلمية الإلكترونية كانوا ليتخلفوا عنها رحمهم الله؟!

أعتقد أن الناظر في حرص أولئك القوم على البلاغ وحفظ العلم ونشره سيجد الإجابة ماثلة أمام عينيه رغم أنف أولئك النمطيين الخائفين الفزعين من كل جديد.



مصاصو الدماء

في ذلك الشارع المظلم وفي هذا الوقت المتأخر من الليل سار الرجل بخطوات متسارعة، بل هي في الحقيقة خطوات خائفة . .

ما الذي أنزله في تلك الساعة ولم تتبق إلا سويعات على بزوغ الفجر؟ كان من الممكن أن يقضيها في الحانة بدلا من السير في شوارع البلدة في ذلك الوقت المرعب!

هذه البلدة مشهورة بهم، الكل حذره قبل أن يأتي لزيارة تلك البلدة الصغيرة من إقليم ترانسلفانيا برومانيا، الليل لهم، لا داعي للخروج ليلا إلا لضرورة، ولطالما سخر من تلك الأساطير، أي عاقل هذا الذي يصدق تلك الخرافات عن هذه المخلوقات الليلية المزعومة!؟

لطالما تعجب أن هناك من لم يزل يصدق حكايات الجهلة والسذج التي يرددونها بأصوات مرتجفة حول المدفأة ليلا، وقد غلقوا عليهم أبواب بيوتهم الصغيرة بعد أن علقوا عليها الثوم اللازم لدفع تلك المخلوقات الشريرة.

لطالما سخر واستهزأ، حتى عندما حذروه في حانة البلدة من الخروج الآن لم يأبه، وتعالت ضحكاته المستهجنة لذعرهم، لكن هذه السخرية لم تلبث إلا وقد تلاشت بينما يخطو وحيدا في شوارع البلدة الخاوية على عروشها، تلاشت وحلت محلها قشريرة باردة تزحف إلى ظهره باستمرار كلما

لمح تلك الظلال تتراقص على جدران البيوت المزينة أبوابها بالثوم دفعا لهذا الضيف غير المرحب به، والذي يعتقد سكان البلدة أنه يكره رائحته كثيرا!

الأبواب مغلقة جيدا وأهلها بداخلها رغم خوفهم آمنين، ذلك لأن الضيف الثقيل لا يدخل إلا إن أذنوا له وهم لن يفعلوا أبدا.

لكم يغبطهم الآن، كلما زحفت القشعريرة وازدادت الرجفة في قلبه سارعت خطاه أكثر، وهو يكاد يقسم أن هناك من يتبعه.

المشكلة أنه كلما التفت خلفه لم يجد إلا تلك الظلال المتراقصة بفعل لهيب المشاعل الذي تتلاعب به رياح الليل الباردة، تخترقها خفقات أجنحة الوطاويط التي يبدو أنها قد أصيبت جميعا بالجنون هذه الليلة، تبا لتلك الفئران المجنحة، ويكأنها تتبعه بإصرار!

لماذا يسترجع الآن كل ما سمعته أذناه من همسات أهل البلدة عن أولئك الذين تجرأوا على الخروج في تلك الساعة التي لا يجترىء أحد على الخروج فيها منذ ابتليت بلدتهم بتلك المخلوقات الشيطانية، ثم لم يعودوا إلا جثثا هامدة مثقوبة الأعناق منزوعة الدماء حتى آخر قطرة!؟

لماذا تمر بذهنه الآن تلك الشائعات التي ترددت حول هذه الجثث؟ وكيف أن قبورها قد نبشت بعد دفنها بأيام واختفت منها تلك الجثث المصفاة لتلمح بعد حين في ليلة كهذه وقد تغيرتها هيأتها وصارت مثلهم؟

لماذا هذه الهواجس الآن؟!

سارع الخطى أكثر وأكثر، يكاد أن يعدو من شدة السرعة، وينكفىء على وجهه من شدة الفزع،

يقينا هناك من يتبعه، يبدو أن سخريته لم تكن في محلها، ها هو ينعطف

في ذلك الشارع الضيق الخاوي من القناديل ليجده في انتظاره، تماما كما وصفوه وسخر من وصفهم، شاحب هو، عيناه تتوهجان رغم الظلام، ابتسامته القبيحة تكشف عن بريق نابين طويلين، تماما كما وصفوه!

وقبل أن يفكر حتى في الهرب كان النابان يستقران في عنقه بسرعة البرق، وأنفاس الكائن العفنة تُلهِب نحره، ودماؤه تسري في عروق الكائن الليلي لتروي ظمأه السرمدي، ظمأ مصاص الدماء!

تلك الشخصية الكابوسية والنمط الشيطاني الذي طالما تردد ذكرها في الميثولوجيا الشعبية لكثير من أمم وحضارات أوروبا القرون الوسطى، اتخذت تلك التيمة أشكالا وخصائص كثيرة، وكانت معينا لا ينضب يرتوي منه خيال الأدباء والمخرجين منذ بدايات صناعة السينما، نمط مصاصي الدماء . .

ذوي الأنياب الطويلة، والبشرة الشاحبة، والشبق اللانهائي لأكسير الحياة الأحمر القاني،(الغير موتى) كما يحلو للبعض أن يسميهم!

تلك الكائنات الليلية التي لن تدخل البيت إلا إذا أذن لها صاحبه، كائنات كابوسية لا تطيق الثوم، ولا تحتمل الشمس رغم قدراتها الخارقة، والقدرة على التحكم والتلاعب بالعقول أو الإذهان كما يطلق عليه البعض.

كائنات خيالية، ربما . . لها أصول حقيقية!

قيل أنَّ أصْلَ الحكاية مرض له أعراض تتشابه مع ما يقوم به مصاصو الدماء، وهو مرض وراثي نادر للغاية يسمى البورفيريا، وينتج عنه نقص مادة الهيموجلوبين وتراكم مادة البورفيرين التي قد تؤدى إلى حساسية للضوء، وتقرحات وتآكل في الجلد إذا تعرض الإنسان إلى أشعة الشمس، وأيضا

تقلص في عضلات الفم والشفاه مما يؤدي إلى ظهور الأنياب بشكل أكبر من الطبيعي.

و قيل أن مريض البورفيريا يحتاج إلى مادة الهيموجلوبين التي يستطيع أن يحصل عليها من شرب الدماء الطازجة لتعويض هذا الظمأ الشديد الذي يشعر به، الظمأ للدماء . . !!

ربما كنت عزيزي القارىء من محبي مشاهدة ذلك النمط المرعب كملايين البشر الذين يتابعونها في عشرات وربما مئات الأفلام السينمائية والحلقات التليفزيونية.

وربما كنت ممن يضيقون بها ذرعا حتى إنك وجدت مللا ، وربما رهبة، من مقدمة مقالي التي تمثل مشهدا معتادا متكررا في تلك الأسطورة وتناولها الأدبي أو السينيمائي.

لكنك على أي حال ستعدها في النهاية سواء أعجبتك أو لم تعجبك مجرد مقالة والسلام!

المشكلة أن يتطور الأمر فينتقل من كونه فيلما مسليا أو مقالة مثيرة أو حتى مملة إلى واقع بغيض، واقع تعيش فيه تلك الكائنات أو أشباهها، ربما لا يكون مصاص دماء اليوم ذا بشرة شاحبة أو أنياب طويلة، لكنه يشترك مع صاحبنا الخيالي أو صاحبنا مريض البورفيريا في خصلة رئيسية . . الظمأ!

كل منهم لديه نوع من الظمأ ، كل منهم لا يستطيع العيش بدون ارتواء، بدون الدماء لا قيمة لمصاص الدماء، يفقد حينئذ قدراته وقوته، يصير عاجزا ضعيفًا.

لكن الدماء -والدماء فقط- هي ما يروي ظمأه ويشمع شبقه النهم، وكذلك مصاصو دماء اليوم

لا يرتوون إلا بالدماء أيضا، لكنها دماء مختلفة،إنها دماء دينك وعصارة تقواك ورحيق فكرك،

ودينك دينك لحمك دمك، وإنهم لا يرتاحون حتى تميل عنه ميلا عظيما، ومصاصو الدين اليوم لا ينامون في توابيتهم نهارا، فقصورهم ومنتجعاتهم مشمسة، لكنهم بلا شك يفضلون الظهور ليلا،

ولا تستطيل اليوم أنيابهم، فألسنتهم الحداد تكفي في استطالتها لإراقة مزيد ومزيد من إكسير حياتهم ليتغذوا عليه ويعلو شأنهم أكثر وأكثر.

مصاصو اليوم لا تنفع معهم مياه مقدسة، أو شمس حارقة، أو رموز دينية، ولا ثوم ولا بصل،

مصاصو اليوم لديهم مناعة ضد كل ذلك.

لكنهم كمثل أشباههم الأسطوريين لديهم نقطة ضعف، إنهم لا يستطيعون الدخول إلا إذا دعوتهم، لا يملكون التحكم في عقلك وذهنك إلا إذا فتحت لهم الباب، وقلت لهم تفضلوا بالدخول، فإذا فعلت فلا تلمهم حين تجد أنيابهم قد استقرت في عقلك لتمتص روحك وإنسانيتك، وتنهش ديانتك، فتستيقظ بعد أيام وقد صرت مثلهم، لا تلمهم، فتلك طبيعتهم لا يملكون العيش دونها، وتذكر أنك أنت من دعوتهم وأدخلتهم بضغطة من إصبعك على زر بالريموت كنترول، كفل لهم أن يدخلوا بيتك، ويقتحموا حياتك، وينهلوا من دماء دينك، وينهشوا تقواك، ويقتاتوا على ثوب إيمانك حتى يبلى

فهل عرفتهم؟!

والأهم هل ستسمح لهم بالدخول؟!

غائبون في الأثير

○ مشهد (١) ○

المكان: نهار داخلي بصالون منزل بعض الأقارب

الزمان: عيد وفرحة وجو سعادة وبهجة

الحدث: زيارة عائلية ودودة

بعد السلامات والترحيبات والمعايدات بدأت الأصوات تخفت تدريجيا، والضحكات الودودة تتلاشى ولا يقطع الصمت المخيم إلا مجاملات متطايرة تقطع ذلك السرحان المقيم، لقد حدث المعتاد،

لقد دس معظم الحضور وجوههم في شاشات هواتفهم الذكية أو أجهزتهم اللوحية، وبدأت ابتسامات بلا معنى تظهر على وجوههم التي تنعكس عليها أضواء الشاشات المتراقصة بينما تتقافز أصابعهم على لوحات المفاتيح برشاقة يحسدون عليها.

○ مشهد (٢) ○

المكان: ليل داخلي بذلك المطعم الراقي

الزمان: العيد برضه وفرحة وخروج وكدة

الحدث: خروجة لطيفة لمجموعة من الأصدقاء القدامى، فرقتهم الغربة ومشاغل الحياة وتواعدوا لانتهاز فرصة الإجازة السنوية، واستعادة شيء من الأيام الخوالي . .

سلامات وترحيبات وشوية هزار على استعادة ذكريات، وعبارة من نوعية فاكر يوم الرحلة الفلانية وفاكر (ياض) الموقف الفلاني، والمقلب العلاني، وتتعالى الضحكات والقفشات لعدة دقائق، ثم يتقدم النادل ليأخذ الطلبات وتبدأ مرحلة انتظار الطعام حتى يتم إعداده.

بعد قليل كالعادة تتخافت الضحكات والأصوات شيئا فشيئا، اللهم إلا من بعض الحوارات الجانبية المتقطعة، بينما جل الوجوه منكبة على الأجهزة الذكية من جديد، والابتسامة البلاستيكية العجيبة التي تشبه (السمايلي فيس) الشهيرة تعلو الوجوه بلا مبرر واضح.

○ مشهد (٣) ○

المكان: ليل داخلي بمنزل أنيق هادئ

الحدث: الزوج يعود من عمله منهكا يريد أن يتناول لقمة ويستريح من عناء العمل

الزوجة: معلش يا حبيبي النهاردة (تفويتة) عشان ما لحقتش أطبخ

الزوج بنفاد صبر: وليه ما طبختيش يا هانم كان وراكي إيه إن شاء الله

الزوجة وهي تتأمل في شاشة اللاب توب: معلش يا حبيبي أصل الكلام خدنا على الشات أنا وفلانة وعلانة ومالحقتش أعمل أكل، لكن حالا هأخلص بس البوست اللي في إيدي ده، وأقوم بعدها أفتح لك علبة تونة!

الزوج في دهشة ساخطة: تونة؟! طيب أمري لله بس بسرعة من فضلك عشان فيه كام تغريدة في دماغي عاوز أكتبهم أنا كمان، ولا أنا ماليش نفس يعني؟!

أمال فين الأولاد مش سامع لهم حس؟!

الزوجة وهي تضرب بأصابعها على لوحة المفاتيح: كريم قاعد في أودته على البلاي ستيشن، ونسمة مشغولة بالإكس بوكس الجديد اللي جبته لها في عيد ميلادها

الزوج يمط شفتيه بلا مبالاة، ويخرج الهاتف الذكي الضخم من جيبه ويبدأ هو الآخر في تأمله باهتمام، والصمت يخيم من جديد على المكان، لا تقطعه إلا أصوات الإشعارات ونقرات لوحات المفاتيح!

○ مشهد (٤) ○

○ ومشهد (٥) و(٦) و(٧) ... ○

لا تختلف كثيرا عن المشاهد الثلاثة الأولى رغم اختلاف الأمكنة والأزمنة والوجوه ..

المآل النهائي واحد، وهو حالة من الخرس الاجتماعي، ونمط من

التوهان والسرحان العائلي، والبرودة التي تسري تدريجيا في أوصال المحافل الاجتماعية، وتحل محل دفء التواصل الأسري والعلاقات الإنسانية الحقيقية.

حالة من استبدال كل ما سبق بجهاز لوحي متقدم، أو هاتف ذكي، وإغراق في عوالم افتراضية وحياة بديلة، حياة الضحكة فيها عبارة عن حرف (هاء) متكرر؛ ليعطي ال (هههههههه) الشهيرة!

حياة الابتسامة فيها عبارة على قوس مفتوح إلى جواره نقطتين تعلو إحداهما الأخرى لتعطي وجها مصفرا ترتسم عليه ابتسامة بلهاء لا تدري هل هي ابتسامة سخرية أم ضحكة رضا أو تبسم مغضب!

حياة عبر الأثير الحزن فيها عبارة عن إشارة إلكترونية لوجه أصفر حزين، والدمعة فيها إشارة أخرى طريفة والفكرة فيها هي مجرد وسم (هاشتاج) ظريف!

لاب توب، ديسك توب، سمارت فون، تابلت، بي إس بي، بلاي ستيشن، إكس بوكس، رسيفر،

وصلة، إل سي دي، دي في دي، توك شو . . . وخناقات على الهواء وفضايح

وغيره وغيره وغيره

ثم أما بعد . .

ثم ماذا بعد؟ متى سنتكلم؟ متى سنتحاور؟ متى سنعيش خارج الشاشات المتألقة؟

متى سنعود إلى عالمنا الحقيقي، حيث الابتسامة لها بهجتها، والضحكة

لها عذوبتها، والدمعة لها حرارتها، متى سيعود الدفء وتنتهي تلك الحالة من الخرس الاجتماعي الناشيء عن السرطان الإلكتروني المنتشر في أوصال حياتنا؟

يفترض بالتطور التقني والانفتاح التواصلي أن يجعل حياة الناس أكثر سهولة، وليس أن يجعلها أشد جفاء وجفافا، يفترض أن تكون العقول والتعاملات هي الذكية، وليست الهواتف والأجهزة اللوحية هي من تستأثر بالذكاء، وتترك تلك الابتسامات الخاوية مرتسمة على الوجوه بلا معنى،

يفترض أن تكون ضحكاتنا حقيقية، وأحزاننا محسوسة، وأفراحنا ملموسة، وابتساماتنا بالبهجة مغموسة، يفترض أن يظل الواقع الافتراضي افتراضيًّا وجزئيا لا يجاوز حجمه أبدا، ولا يتعاظم ليبتلعنا في محيط إشاراته الإلكترونية وأمواج علاماته الأثيرية، يفترض بنا أن نكون بشرًا، وأن نظل بشرًا!



الرجل السلحفاة

وهناك نمط السلحفائيين أو المتسلحفين

نعم، هو ما انقدح فى ذهنك عندما استحضرت صورة السلحفاة

إنه البطء،

أو هو التثاقل

وإن شئت التكاسل

أو لعله التواني

أو التقاعس

بل هو التراخي

أو التخامل

وهو التأخر

أو حتى التهاون . . .

كل هذه المعانى التى انهمرت على ذهنك حينما تخيلت مشهد حركة السلحفاة البطيئة المتثاقلة التى تبدو حين تحرك قدميها كأنما ترفع أثقالا راسخات وتزحزح صخورًا راسيات!

إنه الإنسان الخامل الذى لا ينصر إن استنصر، ولا ينفر إذا استنفر، أينما توجهه لا يأت بخير

هذا النموذج الثقيل الذي كثرت الآيات المبينة لحاله وخطورة وجوده بين ظهراني الأمة .

أطلقتُ عليه هذا اللقب، مع الاعتذار للسلحفاة التى لا تشترك معه واقعيا إلا فى خاصية البطء الظاهر، لكنه مع ذلك بطء ينسجم مع فطرتها، ومع حكمة خلقتها، بينما هى تسبق صاحبنا بذكرها، واستغراقها في تسبيحها، سابقة للخيرات بإذن الله ربها .

نقف مع هذا النمط من خلال قول ربنا : ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ :

فبينما يأمر الله تعالى المؤمنين بالنفير، وهو سرعة الحركة فى الاستجابة لأمر الله الذى كان فى هذا السياق أمرا بالجهاد، وبينما كان الخطاب جماعيا، والأمر جماعيا، والمطلب الاجتماع وعدم الانفراد، إذ ذكر الله هذا الصنف الكسول بصيغة الإفراد ووصف الإفراد ولفظ الإفراد!

أمر الله المؤمنين أن ينفروا ثبات، أي مجموعات وفرقا متتابعات، أو يخرجوا بكامل عددهم وعدتهم إذا اقتضى البأس ذلك، دون أن يأتي أدنى ذكر - في هذا السياق - للنفير فرادى، وهذا بعد أن يأخذوا حذرهم من مكائد عدوهم .

وفى هذا الإطار الجماعي والحماسي الذى تكاد تسمع فيه صوت نفيرهم، وصدى صيحاتهم الحماسية، وهم مقبلون على تنفيذ أمر الله والاستجابة لاستنفاره، يأتى مشهد ذلك المتسلحف المتباطىء المخذل المتخاذل: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾!.

منكم؟!

هل هذا الصنف موجود بيننا؟!!بين المسلمين دون أن يشعروا؟!

الجواب نعم، هناك بيننا من يبطئ، ويبطئ هنا على قولين لأهل التفسير؛ يبطئ نفسه، ويبطئ غيره، والأرجح أن المعنيين تحتملهما الآية الكريمة .

صاحبنا هذا نموذج للتراخي والتثاقل فى نفسه، والتعويق والإثقال لغيره، كلمنا الله عن تثاقله مرارا، فقال فى سورة التوبة محذرًا من فعله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، وكلمنا عن تعويقه لغيره فى سورة الأحزاب، فقال: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إنه نمط بطيء معوَّق في نفسه، معوِّق لغيره، خطورته على الأمة تكون أحيانا أشد من خطورة أعدائها!

لذا قال الله عن أمثاله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

ويا ليت هذا الصنف العاجز المتخاذل اكتفى بعجزه وتكاسله وتخذيل غيره وتعويقهم وغرُب عن عاملي الأمة بوجهه المتراخى ونفسه المثبطة، لكنه للأسف لم يفعل، بل مد عينيه وبدأ يراقب بخسة عجيبة ما سيؤول إليه واقع لم يشارك فى صنعه، ولم يسهم فى بنائه، فإذا ما وقعت مصيبة كما حدث يوم

أحد مثلا فرح بمقعده خلف المؤمنين، وسرته نجاته وأعجبه تخاذله، وإذا جاء النصر، وحان وقت الغنائم سارع إليه متلهفًا، وقد سال لعابه على عرض من الدنيا قليل.

وأشد ما يثير التقزز في فرحته أنه نسب ذلك لله جل وعلا، واعتبرها نعمة من عنده فقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾!

نكست فطرته الإسلامية، وتشوهت نفسيته المتسلحفة، حتى اعتبر الحرمان من الشهادة فى سبيل الله نعمة من الله!!

في حين أن المفترض بصاحب الفطرة الإيمانية السليمة أن يبكي لحرمانه منها، كما قال الله عن الذين حرموا من غزوة تبوك لعدم وجود الظهر الذى يحملهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

وتزداد دناءة الرجل السلحفاة، ويتجلى قبح نذالته وخسته حينما يتحول الواقع إلى نصر مؤزر بفضل الله فيشهد الغنيمة، وتستشرف نفسه لها، ويسيل لعابه لتحصيلها، فيعد الفوز العظيم فقط فى إحراز ثواب الدنيا فيقول: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾!

ألم تكن تقول من قبل أيها السلحفاة إن البعد عنهم غنيمة، والنجاة مما أصابهم نعمة وفضل؟!

لماذا صارت الأمنية الآن أن تكون معهم فعددت ذلك فوزا عظيما؟؟

الجواب واضح؛ إنها الدنيا التى لا يشغل بالك إلا هي، ولا تشتهي نفسك إلا متاعها، هذا هو نموذج المتكاسل الذى لا يبتغى إلا الغنيمة السهلة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾.

صنف لا يكون معك إلا بعد بدر ينهل من الأنفال أو فى فتح مكة لينال من المغانم، ولا يقربك بل يؤذيك ويعوقك فى يوم مثل يوم أحد!

هذه النفسية البطيئة والنمط المتخاذل المعوق من أبشع الآفات التى تهدد الأمة وتؤخر النصر عنها، نمط السلحفاة.

و كم جاء فى كتاب الله من تحفيز للمؤمنين ألا يكونوا من أولئك المبطئين، كم جاء لفظ السبق والمسارعة والمنافسة فى الخيرات!

و فى ذاك الشأن ما أجمل قول رسولنا صلى الله عليه وسلم: «التؤدة (أي التمهل) خير فى كل شيء إلا فى عمل الآخرة» صحيح الجامع .

أعاذنا الله من تلك النفسية المؤذية الهدامة، ورزقنا بالرواحل الذين قال عنهم: «الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة».

فإياك إياك أن تكون أنت السلحفاة، وكن أنت أنت الراحلة . .



زخرفيون

نمط من الخلق لا يلتفت انتباهه إلا للزخارف المبهرة، ولا ينجذب بصره إلا لزينة براقة أو زخرف لامع، إنهم قوم يقيسون الحق والباطل من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل.

سورة الزخرف تعرض نماذج صارخة لتلك العقليات السطحية والأنماط المادية التي تحكم على الأمور دائما من خلال المظهر الخارجي أو عرض الدنيا الحقير وحسب.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

وهل هذه هي المشكلة؟

هل قضيتكم أنه ليس من زعماء مجتمعكم أو من عظماء ماديتكم السطحية؟

وهل أنتم من تقررون وتقسمون رحمة الله؟

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

نفس المنطق المريض في كل زمان ومكان، منطق الحكم من خلال الظاهر، وحتى هذا المنطق فمنقوص فاسد.

من قال أن المستكبرين المختالين في الأرض بمشيتهم المغرورة وزخرفهم الزائل هم الأعظم والأفضل؟

من قال أن معيار القوة والثراء هو المعيار الوحيد للحكم على الأشخاص؟

إنه كذلك لدى هذا النمط السطحي المستخف، النمط الذي تبهره زينة قارون وقوة عاد وعلو النمرود، النمط الذي يستخفه فرعون ومنطقه المعروض في نفس السورة، إذ ينادي ويقول: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾.

هذا هو ما أرادهم أن ينتبهوا إليه ثم سأله: «أَفَلا تُبْصِرُونَ»؟

ترسيخ للحكم البصري المظهري، والتقييم القائم على أساس الرؤية الخارجية وحسب!

ولذلك كان القياس الذي ظنه منطقيا: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾

لقد قاس على نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل زمان، معيار المظهر الخارجي وزخرف الفعل والقول، ومن يقيس على هذا الأساس يستحق بجدارة أن يتسلط عليه فرعون وأمثاله، فهم ممن قال الله فيهم في السورة نفسها: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

قوم فاسقون بمعيارهم الفاسد وحكمهم المنقوص وتصورهم المريض الذي هيأ لهم ولأمثالهم أنهم يقسمون رحمة ربك، يعطونها لمن أعجبهم، ويمنعونها من حقروه، ولم تبهرهم زينته وتخطف أبصارهم لمعة مكانته.

ولقد نسوا أو تناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجات

وأن: ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

جربان القلب

هو ذلك النمط الذى انتكست فطرته، وانقلبت معاييره، وحادت مفاهيمه، وتبلدت مشاعره الإيمانية حتى صار يفرح بتقصيره وعصيانه بدلا من الحزن والندم، ومثَله في ذلك كمثل الأجرب، الذى لا يريحه إلا ما يؤلم الصحيح المعافى.

إنه لا يرتاح إلا بحك جلده ربما حتى يدميه، ولو صح جلده لتألم لذلك الحك الشديد، لكنه المرض،

وما أقبح ذاك المرض إن كان فى القلب!

نعم قلب المنافق عياذا بالله هو قلب أجرب، لا يسعده إلا تمزيقه بالفجور والعصيان، وعن هؤلاء قال ربنا فى الكاشفة الفاضحة المعروفة باسم سورة التوبة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، سحقا لهم، أبهذا فرحوا، ولهذا ضحكوا، أوهذا ما أحبوا؟ تخلفهم وتوليهم؟!

أوهكذا يتفاوت ميزان الفرح والحزن، وتتباين معايير الضحك والبكاء؟؟!

فمن ضحك لتخاذل وانبطاح، إلى بكاء لفوات بذل وتضحية وعطاء،

وما بين هذا وذاك تتباين قلوب الناس، ترى . .

بأي شيء تفرح قلوبنا، وعلى أي شيء تتتحسر؟

من أي شيء تضحك، وعلى أي شيء تبكى؟؟

أيبكيها ما يُبكى الصادقين، أم يضحكها ما يُضحك المسرفين؟!

هنا المحك، ومربط الفرس، وهذا هو المعيار والمسبار، وتلك هي الكاشفة الفاضحة!



خالف تعرف (ضد التيار)

شذوذ الآراء، وتطرف المواقف، وغرابة الاختيارات، هو أسهل الطرق اليوم لنيل الشهرة وجمع الأتباع والمريدين.

هذا النمط من الأشخاص، وهذه النوعية من الآراء أو الكتابات أو التصريحات تلقى رواجا كبيرا وقبولا هائلا خصوصا فى هذه الأيام، حيث ينال صاحبها أعدادا غفيرة من الأتباع والمعجبين يتزايدون باطراد وكثافة كلما ازدادت الآراء شذوذا وقسوة.

و دون أن يشعر السياسي أو المفكر أو الكاتب أو المنظر -أيا كان اختصاصه- فسيجد نفسه تدريجيا يتحول من قدوة ومتبوع إلى تابع منقاد لتلك النوعية غير الموضوعية من الجمهور البعيد عن التقييم التراكمى المنضبط، خاضعا لرغباتهم وضغوطهم المطالبة بالمزيد والمزيد من الإثارة والمواقف الصاخبة، وبالتدريج يصير صاحب الرأي أسيرًا لتلك الطائفة الأعلى صوتا والأكثر حضورًا، ورغم تمرده الظاهر وتحرره المزعوم فإنه يصير فى النهاية خاضعا لتلك الطائفة حبيسا خلف قضبان إملاءاتها!

ويظهر خضوع صاحب الرأي لأسر تلك الطائفة فى خياراته وآرائه التى تلمح فيها نزعة استرضاء مستمرة لهم وبشكل واضح جلي، وذلك من خلال السباحة الدائمة ضد التيار حتى لو بغير حاجة أو ضرورة.

و تأخذ السباحة ضد التيار بالتدريج خصائص توافق أهواء طائفة «خالف تعرف» من عنف فكري، أو سخرية، واستهجان مستمر، ربما تتطور إلى سوقية فى الطرح، وإسفاف فى الأسلوب، صار لدى البعض من لوازم الثورية والنضال!!

والحقيقة أن السباحة الدائمة ضد التيار لم تكن يوما مذهبًا أو قاعدة، ولا منقبة أو فضيلة إلا فى حالة الفساد المطلق لهذا التيار، أو سوء اختياراته الأبدي والمطلق، وهذا كما قلت ليس الأصل أو القاعدة المطردة، فلا شك أنه ستأتي عليه لحظة ويصيب هذا التيار أو ذاك الحقَّ فى موقف، أو يصح اختياره فى مقام، وحينئذ تكون مخالفته ضربًا من ضروب العناد والكبر والمخالفة لمجرد المخالفة.

الأصوب في تقديري أن يكون خيار السباحة ضد أو مع التيار من خلال التقييم الوقتي لخيار التيار المقصود لحظة السباحة، وهل وافق الحق أم ينبغى أن أسبح ضده وأعارضه لأنه مخالف للحق!؟

بهذا التفصيل يتميز صاحب الرأي والفكر بالموضوعية والحرص على موافقة الحق والصواب، بغض النظر عن مصدره أو قائله، فالحكمة ضالته، والحقيقة بغيته، والصواب هدفه، أنى وجد شيئا منه فهو أولى الناس به، حتى وإن كان مصدره أبغض الناس إليه.

وهذا هو المفكر المخلص والسياسي الصادق والكاتب النزيه الذى لا يأبه برضى الناس أو سخطهم، ولا يشغله إلا مرضاة ربه ومولاه!

هنا فقط يوافقه ويعضد مسيرته الموضوعيون وأصحاب النضج الفكري، وهم - وإن قلوا - فإنهم من يعول عليهم، وعلى أكتافهم تقوم الدعوات

الراسخة، وبسواعدهم تبنى الأعمال الهادفة، وبمثل هؤلاء تنهض الأمم وترقى، وليس بمتتبعى الغرائب، المهللين للشذوذات والعجائب، الباحثين عن البهارات والتوابل، الذين لا همَّ لهم إلا الإثارة، ولا غاية لهم إلا المخالفة.

إن مشجعي هذا النمط أصحاب طبيعة متقلبة غير موضوعية، حادة المزاج، سريعة التغير، لا تتسم بأدنى قدر من الإنصاف، ولا تبحث إلا عن الإثارة وتوابلها، وتلك الطبيعة تجعلهم ينقلبون على أي أحد فى لحظات معدودة، وعند أول منعطف مهما كان قد حاول استرضاءهم من قبل، لأنهم ببساطة جعلوا السباحة ضد التيار خيارهم وهدفهم، وحين يقرر صاحبهم يوما أن يهدأ وأن يبني فسيصبح هو التيار، وسوف تكون السباحة ضده هى الأكثر إثارة، وحينئذ سيذوق من نفس الكأس الذى طالما أذاق غيره منه، وسيجد نفسه يسبح وحيدا بعد أن تركه وسبح ضده أولئك السابحون ضد التيار.



مش عاجبه العجب (الناقم على كل شيء)

وهناك نمط الناقم الساخط على كل شيء، الساخر سخرية مريرة من كل شيء!

كل الآراء عنده سطحية، وكل العاملين في نظره مقصرون، وكل تحليل أجوف، وكل موعظة ركيكة وهروبية منبطحة، وكل محاولة للحل مصيرها الفشل، وكل نكتة قديمة وكل طرفة بايخة

من الآخر: مستحيل تبهره أو تعجبه!

وباختصار كلكم عنده فشلة ولسان حاله الدائم: اسكتوا أيها الفشلة . . .

أيها الفشلة . . .

أيها الفشلة . . .

لا يمكنه تصور إمكانية وجود شخص مهذب وأخلاقه حسنة بدون أن يكون متكلفا أو مزيفا، ولا يستوعب وجود أناس أصحاب رسالة في الحياة يؤمنون بها ومستعدون لبذل أغلى ما عندهم في سبيلها، ولا هو قادر على تقبل فكرة وجود ناجحين في حياتهم ولديهم عقول يفكرون بها مثله، وفي الوقت نفسه ملتزمون بدينهم ومتصالحون مع طريق ربهم.

وبدلا من أن يفكر بشكل إيجابي ويستفيد من جمال الآخرين، أو يكون نجاحهم وأخلاقهم حافزًا له ليصير مثلهم فإنه يلجأ إلى اتهامهم وامتهانهم

والسخرية منهم والاستهزاء بأخلاقهم والتزامهم، كل هذا لأنه ببساطة لا يستطيع ملاحظة الكون إلا من خلال نظارته السوداء ونظرته القبيحة والمقبحة للأشياء، أو ببساطة هو لا يفهم أن المشكلة للأسف فيه هو، وأن الحل يبدأ من عنده

هو ..



اعمل نفسك ميت

من العادات الطريفة لحيوان الأبصوم أو الفأر الجرابي -وهو حيوان ينتمي إلى عائلة الشقبانيات، التي تتميز بوجود كيس أو جيب ملتصق ببطنه يحمل فيه صغاره- أنه يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر!

إنه يلقي بنفسه على الأرض، وينفخ بطنه متوقفا تمامًا عن التنفس، ومتقمصا هيئة الجيفة متى استشعر مخلوقا مفترسا يتربص به، أو خطرا باديا في الأفق يتهدده، مراهنا على طبيعة بعض تلك الحيوانات التي تأبى افتراس الجيف، ولا ترضى إلا بصيد طعامها، لذلك فالأبصوم ببساطة . . .

بيعمل نفسه ميت!

يشبه هذا السلوك ما أورده بعض الرحالة عن أهل بعض القبائل البدائية ممن يسكنون الأحراش والمناطق التي تمتلىء بالكواسر والضواري، حيث يتصنعوا الموت إذا بدت لهم بعض تلك السباع عزيزة النفس التي يعلم عنها أهل تلك الغابات أنها لا تأكل الجيف، وتعاف الموتى، وتأنف نفوسها من إتيان الجثث الهامدة.

من هنا يرقدون في أماكنهم ويحبسون أنفاسهم ولا يحركون ساكنا حتى يمر السبع بكبرياء مرفوع الرأس لا يعيرهم انتباها.

لعل تلك العادات والحيل هي أصل ذلك الإفيه الشهير للمرحوم علاء

ولي الدين، أثناء تلقيه الضربات الثقيلة من بعض شريري الفيلم مفتولي العضلات، فيقول لرفيقه بصوت مرتعش: اعمل نفسك ميت اعمل نفسك ميت.

لكن في الحقيقة لم تعد قاعدة «اعمل نفسك ميت»، مجرد إفيه ضاحك في فيلم كوميدي أو سخرية عابرة من عدم قدرة البعض على مواجهة مخاوفهم، ولكنها صارت أصلا ومنهجا متبعا يعيش نمط من البشر على أساسه ويحيون في ظلاله.

أولئك الذين يحلو لهم صمت القبور حين يلزم الكلام، ويروق لهم رقود الموتى وسكون المتوفين حين يستلزم الأمر بيانا أو يتعين عليهم صدعا وبلاغا.

اعمل نفسك ميت . . هو شعار كل متعصب أعمى الهوى عينيه عن رؤية عيب متبوعه.

اعمل نفسك ميت هو خيار كل منحاز بعيدٍ عن الإنصاف والتجرد حين يصدر ممن يتعصب له أو لهم نفس الخلل أو الخطأ الذي طالما ملأ الأرض صياحا واعتراضا من قبل لما رآه في غيره

اعمل نفسك ميت هو سلوك كل عنيد مستكبر مستعل قال الله عن مثله ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾

اعمل نفسك ميت هو منهج من جحدوا بالحق واستيقنته أنفسهم، حتى إذا قيل لهم اتقوا الله وأنصفوا أخذتهم العزة بالإثم، ولم تسمع منهم إلا صمتا إن لم تسمع مكابرة وغيّا!

اعمل نفسك ميت هو سبيل أصحاب نفسية الضباع التي لا تقرب إلا الكسير لتنقض عليه وتفترسه، ولا تأتي إلا الميتة فتنهشها بينما تراها أجبن المخلوقات في مواجهة صاحب البأس الذي ما إن يحمِّر لها العينين ويزمجر لها بالوعيد حتى تخنس وتنزوي مرمقة إياه من بعيد والذل والهوان يقطر من نظراتها.

اعمل نفسك ميت هو خيار كل متناقض كان يتسلى بالصدع بالحق في وجه من يراه ضعيفا قد أمن عقوبته فاستأسد وأرغى وأزبد، فلما بدت الضراء وتكشفت البأساء خنس وكتم صوته، وقصف قلمه، وابتلع لسانه، ولم يستطع استعماله في الجهر بنفس الحق حين صار للحق ثمن وحين أصبح الصدع به مكلفا.

إن نكير المرء السابق يضع عليه مسؤولية أخلاقية، خصوصا حين يجبن عن مثله مع وجود نفس المبررات فقط لأنه خائف!

والخوف شعور إنساني، منه ما هو جبلي فطري، فليس كل خوف جبن وليس كل خائف جبانا رعديدا: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾

من القائلان؟!

من اللذان خافا؟

إنهما نبيان مكلمان، أحدهما رسول من أولي العزم ومن أقوى الخلق في الحق،

نعم.. لقد خاف موسى وخاف هارون وخاف غيرهما من الصالحين، لكن خوفهم لم يثنهم عن قولة حق وإقدام صدق.

فقط حين يكسر الخوف همتك، ويخرس لسانك، ويقمع صوتك،

يكون ذلك هو الجبن والخور، الخوف شعور معتبر خصوصا ما كان منه جبليا، لكنه إن عطل مروءة الإنسان وأكسبه جبن الضباع جنبا إلى جنب مع خستها ودناءة صنيعها مع الضعيف؛ فحينئذ لا يكون الخوف معتبرا ولا مقدرًا، هنا يبرز شعار حيوان الأبصوم من جديد ليكون الخيار الأوحد لهذا النمط شعار: اعمل نفسك ميت!



أسرى الإعلانات

هل شاهدت إعلانات التلفزيون من قبل؟!

بالتأكيد . .

ومن لم يفعل؟!

الكل بالطبع شاهدها يوما ولو عَرَضا، هل سبق أن شعرت يوما بعد مشاهدة إعلان ما أنك تريد شراء شيء لم تشعر قط باحتياجك إليه قبل ذلك؟!

تلك هي ببساطة فلسفة الإعلانات، فلسفة صناعة الوهم واصطناع مشكلة أو أزمة، أو المبالغة في افتعال احتياج غير موجود لتحريك دوافع الشراء لدى المتلقي.

تأمل مثلا في إعلانات شبكات المحمول وكيف أنها تلخص احتياجات الناس في (الرغي)، وتجعل من عروضها ودقائقها المجانية شيئا عظيما مبهرا ينبغي للمرء أن تتهلل له أساريره ويسارع لشراء مزيد ومزيد من الخطوط وكروت الشحن.

لاحظ أيضا إعلانات الأطعمة والحلويات والمشروبات الغازية، وانظر إلى سمات السعادة والانتعاش والفرحة الظاهرة على وجوه من يلتهمون هذا (الساندوتش)، أو يتلذذون بتلك الشيكولاتة، أو يستمتعون بـ(الحاجة

الساقعة)، وانظر إلى حالة اللهفة التي يصنعونها، والتي تهيىء للمشاهد أن منتهى السعادة في هذه القضمة وغاية السرور في تلك الرشفة!

أما عن إعلانات مساحيق الغسيل فحدث ولا حرج، انظر دائما إلى حالة (ست البيت) التي تستعمل المسحوق المنافس، وكيف أنها في حالة يرثى لها، بينما الحزن العميق والأسى الدامس يرتسم على وجهها فإن مشكلة حياتها المعقدة هي تلك البقعة العنيدة التي تقاوم الغسيل!!

ثم لا تلبث تلك الحالة أن تزول، ويزول معها كل العبوس والحزن حين تستمع لنصيحة جارتها المبتهجة المبتسمة طوال الوقت حيث أنها تستعمل المسحوق الذي سد جميع احتياجاتها وحلَّ كل مشاكل حياتها الشاقة المعقدة.

وثمة فارق كبير بين وجود الحاجة وبين اصطناعها وادعاء وجودها، ذلك الفارق هو ما تقوم عليه فلسفة الإعلانات التي يُعرِّفها البعض بأنها فن خلق احتياجات غير موجودة أو غير حقيقية، وتحويلها من خلال الصورة الجذابة أو العرض الأنيق إلى احتياجات أساسية وعاجلة، مع الإيهام بوجود مشكلة والمبالغة في تضخيمها.

أسلوب إعلاني متعارف عليه، وقد يكون مقبولا كنوع من أنواع الترويج و(أكل العيش)، وما دام المستهلك قد قبله فهو حر ولسنا أوصياء على أحد.

لكن ما ينبغي أن ينتبه إليه الإنسان هو المنهج والطريقة التي ينتهجها كثير ممن حوله، وتعد من أهم الوسائل التي استعملها الشيطان ويستعملها لإضلال بني آدم.

إن بداية المنهج الشيطاني كانت تكمن دائمًا في ذلك الإيهام والتغيير

المستمر لتوصيف الأشياء، مع غرس التململ من الشرع وتصويره على أنه أصل المشكلة، والحائل بين المرء وبين تحقيق أهدافه وآماله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

لقد اختلق الشيطان هنا مشكلة غير حقيقية، وزين شهوة معينة، ثم ربط وصول سيدنا آدم وزوجه إلى تلك الغاية المفتعلة بالتخلص من التشريع الذي أمرهما الله به.

ولقد كان في سبيل ذلك مستعدا للقسم وقادرا على أن يتلبس بثياب الناصح الحريص على المصلحة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

ولقد صور الأمر الشرعي على أنه السد المنيع الذي يفصل المرء عن بغيته، والحائل الرئيسي بين الإنسان وبين مطالبه وطموحاته التي بدأ في تغييرها، وتغيير أولوياتها، وترتيبها، بل هو في الحقيقة أعاد تصنيع تلك المطالب والأهداف.

فمن قال أصلا أن مطلب التحول لملكين أو الخلود كان من ضمن أهداف سيدنا آدم وزوجه؟!

إنهما يعيشان بالفعل في جنة يأكلان منها رغدا حيثما شاءا، فما الذي طرح فكرة التحول أو الخلود أصلا؟

إنها نفس النظرية الإعلانية، نظرية صناعة الوهم، واختلاق الاحتياجات، واصطناع المطالب، وإبراز الأطماع التي ربما لم يُنتبه إليها ولم تكن مطروحة من قبل.

بالتالي يصير الوصول إلى تلك الغايات هو الهدف العاجل، ويصبح التحرر من أي حوائل تقف بين المرء وبين تلك الأهداف ضروريا، ومن ثم

تتحول فكرة الالتزام بالشرع إلى قيود يسعى الإنسان إلى التفلت منها تمهيدًا بعد ذلك لرفضها، وربما كراهيتها، لأنها سبب مشاكله أو الحائل بينه وبين احتياجاته.

ستظهر بعد حين حقيقة ذلك الوهم والخداع بمجرد أن يمد الإنسان يده ويقطف ثمرة الشجرة المحرمة فلا يستسيغ طعمها، ويدرك أنها لم تكن كما تصور: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾

لكن البداية تظل دوما في الإيهام والتلبيس في توصيف المشاكل والحلول، وطمس الفوارق

بين ما يحتاجه الناس حقا وبين ما يراد لهم أن يتصوروا احتياجهم إليه.



التسليعيون

التسليع أو الـ Commodification

مصطلح انشغل به بعض منظري الحضارة الغربية في العقود الأخيرة بعد أن انتبهوا في لحظات حضارية فارقة إلى تلك الحقيقة المفزعة.

حقيقة أن رأسماليتهم المفرطة قد أغرقتهم في آلية تسليع أي شيء وكل شيء، حتى الإنسان ومشاعره ورغباته الوجدانية وعلاقاته الشعورية بمن حوله تم إدخالها إلى ماكينة التسليع العملاقة لتخرج في النهاية سلعا جافة جامدة تباع وتشترى!

حب الأم وبرها أصبح له «يوم احتفالي ثابت في السنة» مقترن بهدية، كذلك حب الزوجة والزوج، وأيضا عيد الأب، وذلك الأخير لم يتم تصديره بنجاح لبلادنا، طبعا كل هذه الاحتفالات مرتبطة بأيام محددة وبفواتير شراء ومواسم تنتفع بها كبرى الشركات التجارية.

التخلص من هذا الإرث الرأسمالي الذي اعتنقوه بشكل «لا شعوري» يعد فحوى دعوات بدأت تظهر هناك مؤخرًا حين اكتشفوا أنه قد آل في النهاية إلى «تسليع» للعواطف الانسانية؛ من أجل رواج سوق التجارة والمصالح المادية . .

بزنس يعني!

قبل أن يسارع البعض لقائمة الاتهامات المعتادة في وجه أية محاولة لتأمل مآلات المعتاد والخروج من أسر المألوف، أرجو من هؤلاء بعيد الأم أن يسألوا أنفسهم بعض الأسئلة التأسيسية:

هل استمر الأمر على مراده الكلاسيكي الأول بإحياء تلك المشاعر الإنسانية؟ أم أنه قد انحرف تدريجيًّا عن هذا المراد، وصار مجرد روتين سنوي تغلب عليه المادية البحتة؟

هل ظلت تلك المناسبات تمثل إحياءً لقيم البر والمحبة وتكون وقودًا لها سائر العام؟ أم أنها تحولت دون شعور إلى إرهاق معنوي ومادي سببه الإغراق في «السلعية» التي تتحدد على أساس قيمتها المادية درجات المحبة ومعايير الاهتمام والتجاهل أو التقدير والإهمال؟

هل أثرت تلك المناسبات المستحدثة بشكل إيجابي على ما بعدها وما قبلها من الأيام (العادية)؟ أم أنها جعلت كثيرا منا يركن قبلها إلى اقترابها، ويكتفي بعدها بكونه قد أدى حقها؟

فتجده يؤجل كثيرا من واجباته «العاطفية والوجدانية» تجاه الطرف الآخر، سواء كانت أمًّا أو زوجة أو قريب أو عزيز، لمجرد شعوره بأن هناك مناسبة قادمة قريبا، ومن خلالها سوف نصلح أو نعالج هذا التقصير عن طريق الهدية الثمينة، ثم يكتفي فيما بعد المناسبة بأنه قد أدى ما عليه، وجاب الهدية كتر ألف خيره!

وهل ساهم كل ما سبق في اختزال وتقليص حيز العاطفة والمشاعر الأسرية، فأصبحت القاعدة هى الاستثناء، بأن صار منحنى المشاعر ومسار الإحسان موسميا محدودا بينما أمرنا ربنا جل وعلا بأن يصاحبنا في حياتنا

كلها وسائر أيامنا وأوقاتنا وأفعالنا كبرت أو صغرت؟

هل هذا المنحنى والمسار الثابت الذي يفترض أن يكون دائما ومستقرا ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ هل أصبح بحاجة إلى مناسبة استثنائية أو احتفالية «موسمية»، لها مسمى ويوم وتاريخ محدد وطقوس معينة لا بد من وجودها لكي يتم تفعيل تلك القيم والأصول وتذكرها، ومن دونها تكون الرتابة الحسية والجفاء الشعوري لشهور طويلة انتظارا للموسم من جديد؟

أسئلة تحتاج منا إلى إجابات صريحة، والتفات إلى حقيقة مآلات الموسمية والسلعية التي باتت تسيطر على مجتمعاتنا.

إجابات لن أسعى لفرضها عليك عزيزي القارىء، فقط أريد منك أن تغلق عينيك وتتصور بصدق حياتك من دون تواكل أو ركون لتلك المواسم.

وحينئذ ستستطيع أن تجيب بكل بساطة عن حقيقة ما يحدث، وهل كانت مآلاته صحية على علاقاتنا وحياتنا الاجتماعية أم أننا بالفعل قد سقطنا في فخ التسليع والمادية وصارت حياتنا ومشاعرنا عبارة عن مزادات موسمية!؟



فوبيا التجارة بالدين

يصعب جدًّا على من تعودوا العيش في ظلال المادية واستمرأوا الحياة بين جدران النفعية الضيقة إدراك وجود أناس لا يفعلون الأشياء لأجل مصلحة عاجلة، أو أجر دنيوي ومتاع زائل، يصعب عليهم جدا أن يقبلوا الاعتراف بأن هناك من يقوم بعمل، أو يتكلم بكلمة، أو يتخذ موقفا، لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة الله، ولا يقدمون على قول أو فعل إلا طلبًا لمثوبته، ورجاءً في جزائه وأجره، وطمعًا في جنته.

يصعب عليهم جدا فهم هذه النوايا والأهداف، لذلك تجدهم دائما يعجبون ويدهشون، والظن يسيئون، ودوما بتشكك يسألون: ليبييه؟!!

من هنا تأتي تلك الفوبيا، فوبيا التجارة بالدين، وابتداء أقول ولا أستحيي من ذلك القول: نعم هناك تجارة بالدين، وهذا ليس أمرا حديثا، وليس قاصرًا على دين بعينه، ولقد ذكره ربنا في كتابه، ولا ينكر وجود تلك المتاجرة إلا جاهل أو جاحد.

يقول الله جل وعلا في سورة آل عمران ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وهذه حالة تجارة واضحة، واستفادة من الدين وعهده وأيمانه مقابل ثمن قليل، رصدها كتاب الله وجعل عليها وعيدا في الآخرة.

أيضا في نفس السورة قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ وهذه حالة أخرى اختار أصحابها أن يتاجروا بما معهم من كتاب مقابل الثمن القليل كالعادة، واقترن بتلك المتاجرة إلقاء لما معهم من العلم خلف الظهور، وكتمان العلم، وترك البيان، فبئس ما يشترون إذن، فتلك التجارة الخاسرة آخرا وإن ربحت ثمنا قليلا عاجلا، موجودة ومرصودة ولا يمكن إنكارها، ولا شك أنه دائما يوجد وسيوجد من يتخذ الدين مهنة، والقربات مصدرا للمنفعة والاستغلال.

وفي الحديث الصحيح: «**بَشِّرْ هذه الأُمةَ بِالسَّناءِ والدِّينِ والرِّفعةِ والنَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ فمَنْ عَمِلَ مِنهمْ عَمَلَ الآخرةِ للدُّنْيا لَمْ يَكُنْ له في الآخرةِ من نَصيبٍ**» صحيح الجامع

لكن هل هذا هو الأصل؟ هل مطلوب منا أن نسيء الظن في كل من عمل عملا ظاهره الصلاح، ونقول أنه إنما يتاجر به وله أغراض خبيثة من ورائه، أو يبتغي به أهدافا سياسية ومآرب حزبية؟!

الحقيقة أن هذا من أبشع الظلم وأشنعه، ويعد من الرجم بالغيب إن أُطلق هكذا بغير دليل ثابت، وقرائن واضحة، الله جل وعلا يقول في آل عمران أيضا: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

هذا هو العدل الرباني والقسطاس القرآني المستقيم، كما أن هناك من هم بالدين متاجرون فهناك من لا يقبل ذلك ولا يشتري بآيات الله ثمنا قليلا.

هم أيضا يتاجرون لكن تجارتهم مختلفة تماما، إنها تجارة مع الله، تجارة لن تبور ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾

هؤلاء موجودون وكذلك الآخرون المنتفعون المستغلون، لا داعي إذن لتلك الفوبيا التي تجعل نمطا من الناس لا يتصور أن أحدا يقدم على خير إلا لأجل أهداف دنيوية ورغبات خفية ومؤامرات دولية، الأمر أبسط من ذلك، فقط يحتاج إلى بعض من حسن الظن.



الهاربون من الحرية

لم أكن يوما من هواة اقتناء وتربية الحيوانات الأليفة . .

لم يستهوني ذلك صغيرا ولا بالطبع كبيرا

وهل أنا قد أديت ما عليّ في تربية نفسي وأبنائي لآتي بمخلوق جديد أربيه؟!

الحقيقة لم أكن راغبا في ذلك ولا مستعدا له

لكن مرض ابنتي الحبيبة ثم العملية الجراحية القاسية التي أجريت لها دفعاني لتغيير ذلك القرار والموافقة أخيرا على إلحاحها هي وأخيها لاقتناء مخلوق ما وتحمل مسؤوليته

حسنا إذًا

تريدان طائرا في قفص؟

جدكما العزيز الذي يهوى تدليلكما قد أهداكما واحدا؟

تسميانه (بغبغان) وتصران على أنه يتكلم أحيانا

لا بأس . .

لن أستمر في الاعتراض رغم عدم استحساني لفكرة القفص ورغم أنني أوقن أنها بضعة أيام على أقصى تقدير ثم تملان الأمر وتزهدان فيه ولن يتحمل مسؤولية الطائر المسكين إلا العبد لله

ولقد كان ما توقعت

لم يمض أسبوع إلا وقد صار الطائر في مسؤوليتي بشكل كامل

الولد انشغل بدراسته والصغيرة بلعبها وعرائسها ومعركة تماثلها للشفاء وسيرها على قدميها من جديد

ولم يعد يطعم الطائر أو يسقيه أو ينظف قفصه إلا أنا

والعجيب أني نجحت في ذلك إلى حد ما ولشهر ونصف بلا كلل!!

لكنني رجل مشغول للغاية

وكثير النسيان بشكل مستفز

والطائر هو من سيدفع الثمن في النهاية

- يا ولاد فيه واحدة ست دخلت النار في قطة حبستها فلم تطعمها ولم تتركها تبحث عن رزقها في الأرض

يا ولاد أنا ما عنديش استعداد أدخل النار في طائر

يا ولاد إحنا نعتقه لوجه الله أحسن

ترتطم الأقدام بالأرض في خيبة أمل ويتصايح الطفلان معترضين:

- هنطير البغبغان يا بابا

ده احنا ما صدقنا بقى عندنا بغبغان غلباوي بنص لسان

- يا ولاد ده لا بغبغان ولا حتى بربع لسان

يا ولاد نتركه يتحرر ويقرر مصيره ويسعى في أرض الله بدل ما نتحاسب على إهماله أو ظلمه

- خلاص ...

اللي تشوفه يا بابا

قالها الطفلان بتبرم مكتوم فآثرت ألا أزيد إيلامهما بإخراجه أمامهما لذا اخترت وقتا في الصباح الباكر قبل استيقاظهما وخرجت إلى الشرفة وفتحت للطائر باب القفص

هيا اخرج

لماذا لا تتحرك

لماذا لا تستعمل جناحيك

أغفلت عن حقيقتك؟

أنسيت أنك طائر؟

لا حياة لمن تنادي

الطائر مستقر تماما في القفص

ظننت في البداية أنه لم يلحظ ذلك الباب المفتوح على مصرعيه

يبدو أنه طائر محدود الذكاء

فلأتركه برهة إذًا لعله يلاحظ أن الباب قد فتح وأن فرصة التحرر سانحة

ذهبت لبعض شأني ثم عدت لأجد الطائر يقف على باب القفص دون أن يجرؤ على الخروج

يخرج منقاره أحيانا

يُدلي ذيله خارج القفص ويتراقص به من آن إلى آخر

يغرد تغريدات غير مفهومة ثم يلج القفص من جديد

مالك أيها المخلوق غريب الأطوار؟

ما خطبك؟

أهو زهد في آلحرية؟؟

أم خوف مما بعدها؟

أم تراك قد ألفت حياة الدعة والرزق الجاهز الذي يصلك حتى بابك؟

أورزق جاهز في قفص أحب إليك من سعيٍ وكدٍّ في سماء مفتوحة وآفاق رحبة؟

ما أعجب حالك!

يمضي الوقت ولا توجد أي بوادر للخروج

يبدو أنه مُصرٌّ على البقاء

من الواضح أن تلك القضبان لا تمثل له أي مشكلة ما دام الطعام والشراب مكفول له

قد باع حريته وجمد جناحيه عن طيب خاطر واستبدل كل ذلك بكسرات خبز وبعض الحبوب والماء والدفء الآمن

أفأكون أحرص عليه من نفسه؟

أفأطرده قصرا من باب مفتوح يأبى أن يعبره؟

أفأجبره على طيران يرفضه؟

وكيف أقنعه بشيء يبدو أنه قد طُمس في نفسه؟

كيف أقنعه أنه لم يخلق لهذا القفص؟

كيف أقنعه أنه طائر؟

هنيئا لكما يا صغيراي

لقد قرر الطائر أن يرضي رغبتكما الطفولية في امتلاكه وأدار ظهره لباب القفص المفتوح وقرر أن يمكث هنالك . . . .

خلف قضبان القفص



مجرد تمثيلية

إزااااي؟!

مش ممكن . . .

مش معقول . .

مستحيل . .

هكذا كان رد فعل صغيري حينما أكدت له أن كل ما يشاهده هذا مجرد تمثيلية متقنة

لكن الذهول كان الشعور المسيطر عليه وهو لا يكاد يصدقني من شدة الاستغراب

معقول المعركة الشرسة دي مجرد تمثيل؟

معقول الصرخات والخناقات والقفزات والركلات دي كلها مجرد خدعة

أيوة يا يا حبيبي والله خدعة

رياضة مفتعلة وغير حقيقية

تلك الرياضة العنيفة التي يعشق متابعتها كثير من المراهقين وربما غير المراهقين ويدمنون مشاهدة مبارياتها المثيرة على المقاهي الشعبية وعبر قنوات الوصلة التي يتخصص بعضها في عرض تلك المبارايات والتحديات بشكل منتظم

كثير من هؤلاء المتابعين لا يعلمون حقيقة مهمة حول تلك المباريات المثيرة خصوصا صغار السن منهم والذين تبهرهم الأضواء الصاخبة والتحديات الغاضبة بين مشاهير تلك الرياضة وتجعلهم يغفلون عن تلك الحقيقة

حقيقة أن هذه الرياضة عبارة عن تمثيلية كبيرة ومتقنة

تمثيلية تديرها مافيا مراهنات خفية تتحكم في مآلات المباريات بشكل شبه كامل وتحدد من ينتصر ومن يهزم ومن ينال اللقب ومن يفقده

ليس هذا فحسب فالتمثيلية المحكمة لا تقتصر على نتائج المباريات والبطولات ولكنها أيضا تصل إلى تفاصيل اللعبة نفسها حيث تكون الضربات مدروسة لكي تبدو أقسى بكثير من حقيقتها ويتشارك الضارب والمضروب في إخراج الضربات بهذا الشكل الاستعراضي المثير

فهذه القفزة الخيالية التي انتهى فيها كوع المصارع الطائر على رقبة منافسه كفيلة بتهشيمه لو كانت حقيقية

وتلك الركلة القاسية كانت كافية لجعله يعيش على مقعد متحرك لبقية حياته وهذه اللكمات المتوالية كانت كفيلة بجعل وجه المصارع المضروب (شوارع) لو أنها كانت حقيقية أيضا

لكنها ليست كذلك

وأغلب الناس يعلمون هذا ويشاهدون فقط للمتعة والإثارة تماما كما في أفلام السينما التي يعلم الجميع انها تمثيل لكنهم مع ذلك ينفقون الأموال والأوقات لمشاهدتها ويذرفون دمعات التأثر أثناء تلك المشاهدة

أغلب الناس وليس كلهم

لا تندهش عزيزي القارئ المثقف الذي تعد تلك المعلومة لديه من البديهيات فهناك نمط من الناس يصدق أن مصارعة المحترفين حقيقية

وهناك من يريد أن يصدق

يريد أن يصدق لتكتمل المتعة ويتم الوهم لذلك فهو يرفض تماما أن يعترف بتلك الحقيقة الشهيرة والبديهية

حقيقة أنها مجرد تمثيلية معروف من سيفوز فيها ومن سيخسر في النهاية

وأن لكل دوره المرسوم بعناية

حتى (الخناقات) واللعنات والبذاءات التي يلقيها كل منهم على الآخر أغلبها سيناريو مرسوم ومحكم لإتمام الحبكة وسبك الخدعة

صحيح أنه ككل عمل تمثيلي أحيانا التمثيل بيقلب بجد وأحيانا السلاح بيطول لكن هذه استثناءات لا ينبني عليها حكم وتظل القصة في جلها -والحكم للغالب- هي محض تمثيلية ترفيهية واضحة

المشكلة ليست في كل ما سبق

المشكلة الحقيقية في نمط هؤلاء المساكين الذين يصرون على شراء الوهم في كل مرة والمراهنة عليه

المشكلة فيمن يصرون دوما على صم آذانهم وغض أبصارهم عن الحقائق والإصرار كل مرة على حرق أعصابهم وأحيانا المخاطرة بأموالهم لأجل المراهنة على تلك التمثيليات رغم تأكدهم أنها تمثيليات

وهذه المشكلة ليست في أنهم لا يعلمون . .

المشكلة أنهم لا يريدون أن يعلموا وإذا علموا لا يريدون أن يصدقوا وإذا صدقوا لا يقبلون الاعتراف

الاعتراف بأن كل هذا كان وسيظل في النهاية



أخرجوهم من قريتكم

- أخرجوهم من قريتكم

لماذا؟

ماذا فعلوا؟

ما الجرم الذي اقترفوه؟!

ما الخطيئة التي تلبسوا بها؟!

إنهم أناس يتطهرون . . .

هكذا فقط؟!

يتطهرون!!

أتلك هي مشكلتهم وهذه هي جريمتهم وذاك وحسب هو ما تنقمون عليهم؟

نعم

هكذا كانت الإجابة

ولقد ودت العاهرة لو أن كل النساء زواني

ذلك هو المناط وتلك هي الحقيقة الواقعية المؤلمة

حقيقة أن انقلاب المعايير وتحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق لابد

أن يؤدي لهذه النتيجة

لابد أن يؤدي إلى إخراج آل لوط من القرية

ومن كل قرية

يُخَوَّن فيها الأمين ويُؤتَمَن فيها الخائن ويُكَذَّب فيها الصادق ويُصَدَّق فيها الكاذب وينطق الرويبضة

بهذه الكلمات الجامعة وصف رسول الله ﷺ تلك الحالة التي تنقلب فيها المعايير وتتصدع القيم وتنهار المبادىء وتستحق تلك السنوات ذلك اللقب الذي أطلقه عليها النبي

لقب السنوات الخداعات

وهكذا نرى مصداق كلماته يوميا ونشهد حقيقتها صارخة جلية من حولنا وتنضح بها التجارب الإنسانية السابقة واللاحقة ترفع ذلك المبدأ المعكوس والمنكوس لذلك النمط من الخلق

مبدأ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون

والحقيقة التي ينبغي أن ندركها أن بداية انهيار أي تجمع بشري تكون بتصدع القيم التي قام عليها ذلك التجمع

لكن الأمر لا يحدث بغتة ولا تنقلب تلك المعايير بين عشية وضحاها

الأمر يستغرق وقتا بلا شك

والانهيار يسبقه تصدعات وتشققات في جدر تلك القيم والمبادىء

ثم تتسع تلك الشقوق تدريجيا حتى تصير النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها

ثم ينكس الجدار وينهار بناء القيم بعد حين

إن الطريق من كون الخطأ خطئا إلى كونه أمرا طبيعيا أو عاديا بل وربما مستحبا ليس طريقا قصيرا أو سريعا لكنه يمر بدروب التوارث ومسالك التطبيع التدريجي مع ذلك الخطأ

ولقد ظهر ذلك جليا في آية من سورة الأعراف حيث سبق وصف القوم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وتمت شرعنته وتسويغه بل وتزيينه

ربما تطلب الأمر عقودا طويلة وأجيالا تلو أجيال حتى صار الخطأ في النهاية دينا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾

هنا كان لابد من البيان القاطع ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

إن التطبيع والتصالح مع الخطأ وتوارثه الأعمى قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة

أن تتحول الفاحشة إلى طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة

أشياء كثيرة نتعامل معها اليوم بشكل عادي وطبيعي كانت بالأمس أمورا مستقبحة مستنكرة

قيم وأخلاق كانت طبيعية وغير متكلفة صارت اليوم نادرة وشاذة وصار ينظر للداعين إليها باستهجان ودهشة ويكأنهم يغردون خارج السرب أو يؤذنون في مالطة

أمور كان بعضنا لا يتخيل -مجرد تخيل- أن يشهدها صار اليوم يقترفها بكل أريحية بل وينكر على من لم يزل على عهده الأول ومبادئه القديمة

أناس كانوا على حال ثم صاروا إلى نقيضه فلا تدري حقا هل يعرفون تلك الوجوه التي يطالعونها في مراياهم أم تراهم ينكرونها وتنكرهم

ثم ماذا بعد؟!

ماذا يبقى لنا بعد أن تذهب قيمنا ومبادئنا؟!

وإلى ماذا سيؤول حالنا وقد تصدعت أصولنا وبدأت الشقوق تتسع؟!

ترى هل سننتبه إلى تصدعها مبكرا أم سنتركها تنخر في جدر مبادئنا وأصولنا حتى تنكسها وتقلبها رأسا على عقب ويصير الشعار بصورة أو بأخرى في النهاية هو أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون



أي خبز .. وأي حياة ..

في شوارع باريس وطرقاتها الغاضبة تعالت الصيحات والهتافات الساخطة

لقد بلغ السيل الزبى ووصل الأمر إلى منتهاه . .

النصر يقترب ويلوح في الأفق.

لقد سقط سجن الباستيل رمز الطغيان الفرنسي وعنوان قهر البلاط للرعية

لم يعد بين الجماهير الغاضبة وبين قصر فرساي الشهير خارج حدود باريس إلا أمتار معدودات

لكن ماذا يريدون؟!

هكذا تساءلت «ماري» ببراءة ساذجة

- أوحقا لا تعرفين؟!

إنهم يريدون الخبز

- كل هذه الضجة لأن الخبز غير متوفر؟!

ولماذا الإصرار على الخبز إذًا

فليأكلوا كعكا أو بسكويتا أو حتى جاتوه!!

هؤلاء الرعاع لديهم حقا تعنتات وتحكمات عجيبة!!

هكذا ببلاهة كان رد «ماري أنطوانيت» على مطلب الفلاحين في قصة شهيرة من قصص عديدة نسجت حول آخر ملكات فرنسا والتي قيل أن هذه الكلمات المستهترة كانت طريقها إلى أن تستقر رقبتها بعد فترة قصيرة تحت نصل المقصلة التي أطاحت برأسها ومعه الملكية الفرنسية

ولقد قيل أيضا أن هذه الرواية تحمل رمزية وخيالا تطوعت بصياغته قريحة «جان جاك روسو» الذي تنسب إليه الرواية لبيان مدى انفصال البلاط الفرنسي عن فهم هموم الشعب الفقير

قصة تلخص ما لا يدركه المنعزلون عن هموم الناس ومشاعرهم ومن يظنون أن المشكلة فقط تنحصر في خبز وجاتوه . .

الخبز مهم بلا شك

تلك حقيقة واقعة لا ينكرها عاقل

وهل يحيا أحد بدون الخبز؟!

طبعا الخبز هنا كناية عن الحد الأدنى من الطعام الذي يقيم أود الإنسان وإلا فلا شك أن الإنسان قد يستعيض عن الخبز بما هو أشهى وألذ

لكن يظل الخبز هو العلامة والمثال . .

لقمة العيش . .

كسرة من رغيف محترق الأطراف تقي الفقير وطأة الجوع بغموس أو من غير غموس

لن يموت من الجوع من يجد تلك الكسرة وبحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه

نعم .. بها لن يموت

لكن هل بها فقط يحيا؟!

هذا هو السؤال ..

الحقيقة أنه سيحيا

لكن أي حياة؟!

تلك هي المعضلة

ربما يحيا الإنسان بتلك اللقيمات

وربما يتنازل عن كرامته وحريته وحقوقه وأحيانا مبادئه لأجل أن يوفرها لنفسه أو لأبنائه

وغالبا سينجح في هذا

على الأقل في بلادنا التي لم تصل بفضل الله إلى حد المجاعة

سينجح بإذن الله في توفير كسرات الخبز ولقيمات العيش فما فوقها وسيمر اليوم وتمضي الليلة ولن يموت من الجوع

لكن هل هو حيٌّ فعلا؟!

هل تلك اللقيمات المغمسة بعصير الهوان ودموع الظلم وإدام الذل وحساء الخوف هي حقا لقيمات تحيي؟!

وهل هذه هي الحياة التي تريدها الشعوب؟!

تلك اللقيمات الكسيرة ربما تُحيِي البدن لكن بإدام الظلم وغموس

الهوان والذل فإنها في النهاية ستميت الروح وتقتل الإباء وتأد العزة والكرامة

لم يكن شعار ثورتنا هو الخبز فقط

ولم تصدع حناجرنا بالهتاف ضد الظالم لأجل لقمة عيش وحسب

لقد هتفنا وصدعنا: عيش . .

حرية . .

عدالة إجتماعية . .

كرامة إنسانية . .

وتلك كانت عبقرية الثورة

لم تكن كالثورة الفرنسية تطلب الخبز بشكل مصمت كما أشار لذلك سير هربرت جورج ويلز فى كتابه «معالم من تاريخ الإنسانية»

ولم تكن قضيتنا هي بطوننا وحسب

بل كانت قيما متكاملة أقرها الوحي المنزل قبل مئات الأعوام

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾

ليس الطعام فقط هو المنة بل في الحياة أشياء أخرى

في الحياة أشياء بخلاف الطعام والشراب والمادة التي ينغمس فيها الغافلون الذين شبههم الله بالأنعام

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾

هناك نمط من الناس يصر على الانغماس في مثل تلك المادية المفرطة والإغراق في لفت أنظار الناس إليها وإشغالهم بها حتى يصير مثلهم في

النهاية كمثل أقوام ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾

أي حياة . .

أي خبز به يحيا الإنسان

وبمثله من العلف يحيا الحيوان

لكن هل يسألون أنفسهم ما صفة تلك الحياة وخصائصها؟ وبما يغمسون ذلك الخبز؟

ليس مهما

المهم أن يكون خبزا وتكون حياة والسلام . .

أي خبز . .

وأي حياة . .



وهو ده الفيل

- إوصف لنا الفيل

ما إن سمع ذلك الضرير تلك الجملة حتى مد يده يتحسس ذلك الفيل الضخم القابع إلى جواره فكان أول ما لمسته يده ذيل الفيل فقال بثقة متناهية : الفيل مخلوق أفعواني رفيع يشبه الحبل المرن!

مد الأعمى الثاني يده ليصفه هو الآخر فارتطمت يده بقدم الفيل فهب مخالفا للضرير الأول وقال: لا . . بل الفيل مخلوق اسطواني راسخ كالعمود الصلب ذو جلد سميك مشعر وهو ده الفيل وليس ما تزعم

صاح كفيف ثالث معترضا بينما يمسك بخرطوم الفيل وقال بدهشة: ماذا تقولان؟! الفيل كائن أنبوبي مجوف وبه تجاعيد عميقة وهو ده الفيل وليس ما تقولا ن

- كلا . . . بل هو مخلوق عاجي مصمت ذو ملمس أملس ناعم وطرف مدبب حاد وهو ده الفيل وليسا ما تفترون .

هكذا صاح رابعهم بثقة منقطعة النظير وهو يتشبث بناب الفيل العاجي

تطور الأمر إلى احتداد ومراء وربما وصل للشجار والكل مصر على وصفه للفيل وتناسوا جميعا تلك الحقيقة البسيطة

حقيقة أن الفيل ليس شيئا من هذا وأنه في الوقت نفسه = كل هذا

ليس عيبا أن تعجز الحواس أحيانا عن إدراك الحقيقة كاملة وربما يكون لهؤلاء العميان عذرهم في ذلك المثال الصيني الشهير فذلك هو ما بلغته حواسهم وأدركته غرائزهم القاصرة نظرا لأنهم عميان لم يستطيعوا النظر لذلك المخلوق

لكن تعيبهم بلا شك تلك الثقة الزائدة وذلك التسرع الحاسم الذي تميز به وصفهم للفيل

وليس ذنب الفيل أن الأبصار كليلة وأن النظر مفقود لكن الذنب ذنب من تناسى تلك الحقيقة وتعامل كأنه يدرك كل شىء ويحيط علما بكل شىء وأنه قد وصل إلى عمق الحقيقة لمجرد أنه أمسك بجزء منها فاختزل كل ما تبقى في ذلك الجزء الذي أمسك به

وتلك هي مشكلتنا الأزلية

الاختزال المتسرع

في لحظات يتم الحكم على الشيء بمجرد الاطلاع على جزء منه أو ملامسة أحد وجوهه وجوانبه

مثال على ذلك تصورنا عن مصر

فكما سارع العميان جازمين بوصف الفيل وقائلين بكل ثقة: هو ده الفيل يسارع بعضنا أيضا قائلين بحسم مبهر هي دي مصر

قد وقع النظر السوداوي على متحرش حقير . . . هيا بسرعة قلها: هي دي مصر

آخر وقعت عيناه على فساد أو ظلم فلتخرج الكلمة المعتادة . . . هي دي مصر

واسطة، محسوبية، رشوة، إهمال، جهل، فقر وهي دي مصر

وعلى النقيض ها هي عين المتفائل الرومانسي تقع على عطاء وبذل وخير مرسل . . . الله أكبر هي دي مصر طبعا

دفء ومودة وتكافل . . أيوة طبعا هي دي مصر

جدعنة ورجولة وثورة ومطالبة بالحق . . . هو ده الكلام وهي دي مصر

وهكذا . . .

على حسب النظارة التي ترتديها والجزء الذي قررت أن تمسك به من جسد الفيل . . عذرا أقصد من جسد مصر ستصفها

سيراها البعض واحة دافئة تمتلىء بالأصالة

وسيراها آخرون مستنقع ظلم وفساد وتحرش وانحلال وجهل وسيسأل كالعادة كيف نبت في واديها الطيب كل هذا القدر من الأوغاد

وسيرى البعض الشعب المتدين بطبعه ويتغاضى عن شواهد كثيرة قد تقدح في ذلك الطبع المزعوم وسيصر آخرون أنها أم الدنيا دون أن يسأل نفسه لماذا وكيف صارت للدنيا أما ومتى قررت الدنيا أن تترك أمها في ذيل الأمم

كل هذا ليس مهما

المهم أن يرى كل شيء كما يريد أو كما قرر أن يراه بما يوافق طبيعته النفسية ومزاجه التقييمي

المشكلة أنه ليس أعمى ولا ضعيف البصر لكنه لا يحب أن يراها إلا هكذا

والمشكلة الأخطر أنه يصر أن الأشياء هكذا ولابد أن يراها الجميع هكذا

فقط لأنه قرر إن هي دي مصر؟؟؟؟ كما قرر كل أعمى إن هو ده الفيل



فُوت علينا بُكرة!!

تلك العبارة التقليدية العتيدة التي تلخص بكلماتها الثلاثة نمط حياة ذلك الموظف البيروقراطي المقدِّس للروتين، والمتكاسل دوما عن إنجاز مصالح المواطنين في اليوم نفسه

فُوت علينا بُكرة!!

بُكرة .... هي كلمة السر ومفتاح تلك الشخصية المتنطعة التي هي في حقيقة الأمر تقبع في أعماق كلٍ منا بنسب مختلفة

- غدا سأتغير ...
- غدا سأكون إنسانا رائعا ..
- غدا سأبدأ بداية جديدة ومختلفة تماما ..
- غدا سأُقلع عن كل تلك العادات السيئة التي تلازمني ..
- غدا سأحل كل مشكلاتي وسأصلح كل أخطائي وأعوض ما فاتني ...
- غدا سأُنزِل من وزني الزائد وسأمارس الرياضة وأتبع حمية غذائية منضبطة ..

غدا سأذاكر ... غدا سأصلي ... غدا سألتزم ... غدا سأتوب ... غدا سـ .. سـ ... سـ ...

دائما غدا . .

هذا هو الشرط

غدا وليس أبدا اليوم

وغدا هذا لا يأتي قط!!

لقد صار (غدا) لدى البعض سجنا كبيرا؛

سجنا قضبانه التسويف وأسواره الشاهقة ينافس ارتفاعها فقط طول أمله وبعد مسافة أمانيه

والحقيقة أن التحرر من هذا السجن ليس ترفا اختياريا أو مسألة تحتمل الأخذ والرد

إنها قضية حياة . . .

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩، ١٠٠]

* ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]

* ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]

* ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]

* ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]

* ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ [إبراهيم: ٤٤]

* ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]

* ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤]

* ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٧]

مجموعة كبيرة من الآيات تشترك كلها في ترسيخ هذا المعنى المحوري وتلك الحقيقة المتغافل عنها

حقيقة ندم المسوِّفين وتحسرهم على تسويفهم

إنها آيات تبين بشكل قاطع أن ذلك السجن الذي اختار المسوفون المكث خلف جدرانه لم ينفعهم بشيء وأن غالب تحسرهم لما يأتي الغد الحقيقي سيكون على تضييعهم الفرصة حين كانت سانحة؛

فرصة التحرر من هذا السجن التسويفي البغيض

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

هكذا كان دائما فحوى الرد على ندمهم وكذلك كانت الإجابة شبه الموحدة على تحسراتهم وطلبهم الفرصة بعد فوات الأوان

قد عمّرتم طويلا ومكثتم في الأرض سنين عددا وذُكّرتم وأُنذرتم وكان

كل غدٍ يمر عليكم بمثابة فرصة جديدة أصررتم على تأجيلها كل مرة حتى لم يعد هناك غدٌ في الدنيا وجاءت الأخرى فلم يعد ينفعكم الندم ولم يعد هناك (سوف) وغدا المزعوم الذي طالما تحججتم به لم يعد له وجود

غدكم الذي لا يأتي أبدا

إنها مشكلة حقيقية نعاني منها جميعا بأقدار متفاوتة، وعلى جميع المستويات والمجالات

مشكلة تظهر على صنوف متباينة من البشر ما بين عاصٍ مسوِّف يُرجيء أمر توبته لأجل غير مسمىً، وطالب متكاسل يعلق آمال عريضة على أوهام اجتهاد سيهبط عليه فجأة، وموظف مماطل يدمن تعطيل مصالح الناس لـ (بُكرة) المزعوم، وسياسي (ملاوع) يسرف في وعود وردية وأحلام مستقبلية موعدها دائما في ذلك الغد الذي لا يأتي أبدا

وعلى قدر تمكن أحدنا من تجاوز تلك القضبان التسويفية = على قدر نجاحه في تحقيق تلك الآمال والطموحات وقدرته على إثبات ذاته وإنجازه لشيء خلال تلك الحياة القصيرة

فقط إن كسّر تلك القضبان واعتلى تلك الأسوار

قضبان سوف وأسوار (غدًا)

غدا الذي لا يأتي أبدا



البعد الثالث

هل سمعت من قبل عن «البعد الثالث»؟

تلك التقنية التي دخلت إلى عالم السينما -ومؤخرا إلى شاشات التلفاز- منذ أعوام

فكرة الصورة المجسمة أو ما عُرف بالشاشة ثلاثية الأبعاد (3D)

هي تقنية طورتها شركة RealD وهي شركة أمريكية مقرها ولاية كاليفورنيا

الشركة اقتبست الفكرة من طريقة رؤية العين البشرية للأشياء حيث ترى كل عين جزءا من الصورة وترسل إلى الشبكية ثم يقوم المخ بجمع الصورة بطريقة تظهرها في شكلها النهائي المجسم

تفاصيل طبية وفيزيائية كثيرة لا يتسع المقام لشرحها تخرج بعدها صورة المخلوقات من حولك بشكلها الذي تعرفه

المهم أن صناع السينما والتلفاز التفتوا إلى ذلك الابتكار اللطيف وقرروا الاستفادة منه للحصول على صورة أفضل وأقرب إلى الواقع

الواقع الذي يحمل أكثر من بعد وليس بعدا واحدا ولا اثنين ولا حتى ثلاثة أبعاد

لقد التفت صناع الترفيه لذلك بينما يصر البعض على عدم الانتباه لتلك

الحقيقة ومن ثم يتعاملون مع الحياة بمنطق البعد الواحد

عُمرك شفت إنسان مسطح؟

مالوش سُمك!!

زي الورقة كدة

الورقة التي تتكون من طول وعرض و.... حسب

بالطبع لا ...

هناك بعد ثالث وهو الارتفاع أو العمق والسُمك

وهناك بعد رابع أشار إليه ألبرت أينشتين وهو الزمان

هذه الأبعاد الأربعة هي الأبعاد المحسوسة والتي يسهل على أي أحد فهمها وتخيلها ومؤخرا يجتهد العلماء لإثبات مزيد من الأبعاد التي تعد افتراضية غير محسوسة أحصاها بعضهم من خلال ما يعرف بنظرية الأوتار بأحد عشر بعدا والبعض يزعم اليوم أنهم ستة عشر بعدا وربما أكثر

باختصار وبصرف النظر عن التعقيد الفيزيائي الذي قد تحمله السطور السابقة ما أريد قوله أن الموضوع كبير والكون أعقد كثيرا مما نتصور

والإنسان جزء من هذا الكون

وهو مخلوق ذو عدة أبعاد ...

طول وعرض وارتفاع ..

روح وعقل ووجدان ..

ماضٍ وحاضر وأحلام ..

قيم ومباديء وأخلاق ..

آراء ومواقف وأفكار . .

اختزال كل ذلك في موقف واحد أو رأي واحد أو خيار واحد أو ذنب واحد وخطأ واحد، أو حتى في بضعة آراء ومواقف وخيارات وذنوب يُحكم عليه من خلالها حكما قطعيا وتُتناسي معها كل أبعاده الأخرى هو ببساطة غبنٌ شديد وقصور في التقييم ونظرة أحادية مسطحة لا ينتهجها منصف

في صحيح البخاري أن رجلًا على عهدِ النبيِّ ﷺ كان قد أقيم عليه حد الخمر أكثر من مرة

أتوا به إلى رسول الله ﷺ يوما يوما فأمَرَ بِهِ فجُلِدَ، فقال رجلٌ مِنَ القَومِ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، ما أكثَرَ ما يُؤتَى بهِ!

بمنطق البعد الواحد والاختزال المعاصر سيُعد الرجل فاجرا فاسقا وستغفل أي أبعاد أخرى في شخصيته وحياته

لكن الأمر لدى النبي لم يكن على هذا النحو

لقد قال النبيُّ ﷺ ردا على من لعنوه: لا تَلْعَنُوه، فواللهِ ما عَلِمْتُ إلَّا أنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه.

لم يمنعه ذنبه (المتكرر) من حب الله ورسوله ولم يمنع النبي ذلك الذنب من أن ينصفه والأهم أن يلفت الانتباه إلى أن هناك أبعادا متعددة ينبغي النظر إليها عند التقييم

ومثل ذلك ثناؤه على توبة المرأة الغامدية التي أقيم عليها حد الزنا وثناؤه على توبة ماعز الذي أقيم عليه نفس الحد وأيضا شهد النبي ﷺ أنه قد تاب توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم

تكرر ذلك المعنى العميق في كلام النبي ﷺ حتى تقرر . .

فتارة يرغب في إعذار أهل الفضل وذوي الهيئات إن زلوا وأخطأوا فيقول: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم»

وتارة أخرى يذكر الأزواج إن كرهوا خلقا من أخلاق شريك حياتهم أن هناك أبعادا أخرى فيقول: إن كره منها خلقا رضي منها آخر

ويمر رَجُلٌ عَلَى النَّبيّ فَيقول لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٌ: «**مَا رَأْيُكَ في هَذَا؟**»، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا واللهِ حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ. فَيسَكَتَ رسولُ الله ﷺ ثُمَّ يمر رَجُلٌ آخَرُ، فَيقولَ لَهُ رسولُ الله ﷺ: «**مَا رَأْيُكَ في هَذَا؟**» فَيرد: هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَولِهِ.

فَيعلنها رسول الله ﷺ عميقة خالدة: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**»

الأمر إذا ليس بسطحية المظهر أو ابشكل الخارجي

أليس هو القائل في الحديث المتفق عليه بالصحيحين: «**إِنَّهُ لَيَأتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ العَظِيمُ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ**».

وفي الوقت نفسه هو القائل: «**رُبَّ أَشْعَثَ أغبرَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**». رواه مسلم.

الحكم على الشخص إذًا ليس بالبساطة ولا السطحية التي يتصورها البعض

صحيح أن هناك مواقف فاصلة

وأن هناك خيارات محورية قاطعة

وآراء مفصلية حاسمة حازمة

لكن حتى مع هذا لا يملك أحد أن يقطع الأمل في الشخص وإن صدر الحكم عليه

في الدنيا فليس لك من الأمر شيء في المآل والخاتمة والآخرة

فالحمد لله الذي يزننا بأعمالنا

كل أعمالنا

الحمد لله أن لم يجعل حسابنا في يد مخلوق أحادي النظرة متعجل الحكم لا يرى الناس ولا الحياة إلا موقفا واحدا وذنبا واحدا وبعدا واحدا وينسى دائما أن الحياة . . . أبعاد



الساخرون من الأمل

هل سخرت من الأمل اليوم

هل سخرت من الأمل و(اتريقت) على المؤملين وامتهنت العاملين اليوم؟

هل نشرت اليأس ووزعت الإحباط على من حولك اليوم؟

هل سببت الجميع ولعنت الظروف واحتقرت البلاد وازدريت العباد اليوم؟

هل ردّدت كثيرا فكرة الهجرة ودعوت الناس لها عبر مواقع التواصل بعد وصلة تيئيس من البلد ومن أي فائدة ترتجى

منها

أنشطة مريحة للغاية هي بلا شك . .

نعم . . الحقيقة التي يعلمها الجميع أن اليأس شعور مريح لأهله ولو مؤقتا

إحساس بالاسترخاء سيعم روحك كلما سخرت من فكرة الأمل وممن يحاولون بثها وشعور باللامبالاة سيخيم عليك كلما رددت عبارات الإحباط والندم على كونك فكرت يوما في التغيير وحاولت أن تكون جزءًا من الحل

ستجد تسكينا مؤقتا كلما سببت البلاد ولعنت العباد وستحصل على

خدر لذيذ كلما نشرت ثقافة الهجرة والهرب وقررت إقناع نفسك إن (مافيش فايدة) والبلد دي ضايعة ضايعة ومن الحماقة أن تتعب نفسك فيها ولأجل إصلاحها

وبعد فترة من راحة اليأس وخدر الإحباط ولذة سب ولعن الظروف والأشخاص سيملأ نفسك شعور بالاستعلاء والعظمة والتفرد كلما احتقرت هذا المكان الذي لم يفهمك، وأولئك الحمقى الذين لم يقدروا مواهبك، ولم يستمتعوا بنعمة وجودك بينهم ومعاصرتهم لشخصك النابغ

ثم ماذا بعد؟

ماذا تريد بكل ذلك؟!

واقعي أنت ما شاء الله عليك ووصلت لما لم يصل له أحد

برضه وماذا بعد؟

ما الذي استفدته بقرارات اليأس والإحباط واحتقار الجميع؟

تريد أنت ترحل؟!

حقك ولا أحد يملك منعك إن توفرت لك الفرصة التي تراها مناسبة

لكن هل يُفترض أن يُجبر الجميع على قرارك؟

وهل الحل الذي تطرحه من خلال صراخك المستمر وعويلك في منشوراتك على مواقع التواصل ويأسك وتيئيسك = هو أن نرحل جميعا و(نهج) من البلد كلنا نمشي ونقلع عن محاولات الإصلاح والتغيير للأفضل؟!

لن أكرر على مسامعك الكلام المعتاد من نوعية (أهاجر وأسيبك لمين)

فالحقيقة أنه بخلاف كون هذا النمط من العبارات صار مكررا ولم يعد يؤثر كثيرا فإن الواقع يقول أن هناك كثيرين يتنازعون عليها وكلهم يدعي أنه أحق بها وأولى فقضية لمين دي ليست معضلة كبيرة

لكن مشكلتي هي لماذا؟

لماذا قررت أن تنقل يأسك لغيرك وتعمم قرارك بالرحيل لتشارك فيه الجميع وأنت تعلم أن هذا غير منطقي ولا واقعي؟

لن يرحل الجميع ولا يتصور أن ييأس الجميع أليس كذلك؟

ولو افترضنا أنك تخاطب من يشبهونك بهذا الخطاب فالأصل أن المرء يعتقد أن من يشبهونه فكرا أو انتماء هم أقرب للحق والصواب وإلا ما انتمى إليهم وتشبه بهم . .

فهل تريد أن تيئس من تراهم أفضل وأقرب للحق أم تريد أن توقف أي محاولة إصلاح قد يكونون هم في اعتقادك الأقدر عليها؟

وهل توقف نبي الله يوسف عن مسار الإصلاح والنفع المتعدي وهو داخل السجن مظلوم ومضطهد أم أنه سارع بتقديم الخير ونفع الناس حين طلب منه ذلك ودون أن يعمم عقابه أو يشترط لنفسه شيئا؟

أظن أن الإجابة معروفة ولا تخفى عليك

من تخاطب إذًا وما مبتغاك بخطاب التيئيس وقطع الأمل؟

أم أنك في الحقيقة تكلم نفسك؟

تحاول إقناعها بخيار الراحة والحلول السهلة وتعلي صوتك بهذا لأنك

ببساطة لا تريد أن تشعر أنك وحدك . .

ورغم أنك تعلم في قرارة نفسك أن الهروب ليس حلا وإن (مش هينفع) الكل يستسلم ويرحل وإن عدم مواجهة الواقع ومشاكله لن يغير شيئا وأن صياحك المستمر بالهجرة أو رمي طوبة هذا البلد ليس طرحا وأنه لا توجد بلد يرحل منها كل أهلها أو ييأسوا من إصلاحها وتغييرها ويتركوها لتغرق بمن فيها؛ فإنك مع كل ذلك مصمم على المضي في طريق نشر الإحباط وتيئيس الناس

وماذا لو أن هناك من قرروا ألا يقطعوا الأمل ورفضوا أن ييأسوا من روح الله وفضلوا المكث فيها ومكابدة الصعاب لإصلاحها

ماذا لو أنهم رفضوا الهروب مثلك أو حتى لم يقدورا عليه فقرروا البقاء واختاروا شرف المحاولة وأداء ما عليهم والإعذار لربهم

مالك ومالهم؟

عاوز منهم إيه يا أخي؟

لماذا تيأسهم وتكسر مجاديفهم؟

سيادتك مصمم تتناسى أن الأمل في الله لا ينقطع وأن اليأس ليس مجرد خيانة كما يقولون بل ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾

مصمم تتناسى كل هذا وتكمل في قرارك المريح وخمولك اللذيذ . . براحتك

لكن ما رأيك أن تدع فكرة وجوب كون الكل مثلك؟

ما رأيك أن تترك من ليسوا مثلك في حالهم وتكف عن تثبيط هممهم

وتوهين عزائمهم وزعزعة ثقتهم

ما رأيك أن تحتفظ بإحباطك لنفسك وتدخر يأسك المريح لعلك تحتاجه قريبا لأن الإقبال عليه متزايد هذه الأيام وشكله (هيشح)

ما رأيك أن تلحق طيارتك أو باخرتك أو قطارك وتترك من قرروا المحاولة ليحاولوا ويجتهدوا ويكفيهم شرف المحاولة

وما أدراك . . .

مش جايز يا أخي

جايز يقدروا يغيروا ويصلحوا

وحينئذ لعلك تتمنى أن تكون معهم أو على الأقل تكون ممن نشر الأمل بينهم وليس ممن سخروا منه . .



الرأي والرأي ... نفسه

﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾

هكذا قال قوم ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حين جاءهم بما لم يعجبهم

كنت مرجو النفع يؤمل فيك العقل الراجح والفكر السديد

كنت محمودا موقرا يُقتدى بأخلاقك وتُقدر أقوالك

كنت . . .

في الماضي

أما اليوم قد فقدت مكانتك بيننا بعد أن جرؤت أن تختلف معنا وتقول بخلاف ما توارثناه عن آبائنا وسادتنا وكبرائنا

فلتفقد مكانتك وليدنو قدرك إذًا أو فلتكف عما تقول

أسلوب يحمل بداخله ترهيبا وترغيبا

التذكير بالمكانة السابقة والترهيب من خلال التهديد بنزعها والترغيب الضمني باستعادة تلك المكانة وربما زيادتها إذا استجاب ولم يخالف التيار

عبارات كثيرا ما يصدرها أصحاب هذا الأسلوب من نوعية

«سقطت من نظرنا»، «صدمنا فيك»، «فقدت مكانك» إلى آخر تلك العبارات التي يكون الغرض الأساسي منها تخويف من يقول الحق الذي

يدين به وإسكاته أو ضمه لركب هؤلاء ليكون في النهاية مجرد صدىً لأصواتهم

تماما كما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب ﵇ حين قالوا: ﴿يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾

استهزاء وسخرية يحملان تذكيرا بسابق العهد وسالف المكانة

أنت يا شعيب!!

أنت يا من كنت فينا حليما رشيدا

أنت يا من عُرفت بحسن الأخلاق ورجاحة العقل ومكارم الصفات يصدر عنك هذا القول

لم يكن الأمر هنا قاصرا على السخرية وحسب كما قال القرطبي والبغوي والرازي ورجحه الشيخ الشعراوي ﵀ بل كان يحمل ذلك التذكير بهذا المقام الذي كان له بينهم والمزايدة عليه

المقام الذي يوشك أن يفقده لأنه خالفهم وتجرأ أن يتكلم بغير قولهم ويختار ما يباين خياراتهم

وبالفعل لم يمض كثير من الوقت حتى تغيرت اللهجة وزال الاحترام ورحلت المكانة

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾

في لحظات صار ذلك الذي وصفوه بالحليم الرشيد يتكلم في نظرهم

كلاما غير مفهوم وصار ضعيفا فيهم ولم يعد عزيزا بينهم بل وهددوه ضمنيا بالرجم

لماذا كل هذا؟!

لماذا تحول الأمر هكذا مع الأنبياء ختاما بالنبي محمد صلي الله عليه وسلم الذي كان يلقب بين قومه بالصادق الأمين فلما قال ما لم يوافق الهوى ولم يشابه ما يقولونه إذا به يُرمى بالكذب والسحر والكهانة ويكون أول من يتوعده عمه تبت يداه

لأنهم اجترأوا على أن يجهروا بما دانوا لربهم أنه الحق

لأنهم حطموا التصورات السائدة وقرروا أن يصدعوا بما اعتقدوه وإن خالف عموم الناس أو ضايقهم

طبعا الأمر في الأمثلة التي ضربتها في باب العقائد لكنه في شأن الرأي أدهى وأمر

إنه الرأي والرأي نفسه

هذا هو ملخص ما يريده كثير من الناس اليوم ومآل جل حواراتهم -إن تحاوروا أصلا- وهذه هي خلاصة توجهاتهم

طالما أنك تشبهني ورأيك مثل رأيي وقناعاتك تطابق قناعاتي فأهلا بك وسهلا وعلى الرحب والسعة وحبيبي وصاحبي وتاج رأسي كمان

أما إذا فكرت يوما مجرد تفكير أن تخالفني أو أن تخرج عن النسق الذي قررته لك في ذهني فتبا لك سائر اليوم والأيام القادمة ولتسقط عنك أي فضيلة وليزل عنك أي حق وليقال لك: أنت شرنا وابن شرنا كما قالت يهود

لعبد الله بن سلام حين خالفهم وقد كانوا يصفونه قبلها بخيرهم وابن خيرهم وأعلمهم وابن أعلمهم

هو قولنا وحسب

لا يوجد تقريبا اليوم ما يسمى بالرأي والرأي الآخر أو مواجهة الفكر بالفكر والاختلاف بالحوار أو رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب

بل لا يوجد شيء أصلا اسمه رأي غيري خطأ (كدة حاف) بل رأي غيري خطيئة وإجرام وخيانة وربما كفر وزندقة ومروق وباقي القائمة المعروفة والجاهزة ليُرمى بها صاحب النصيب الذي قرر أن يكون له رأي آخر

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

نفس منطق فرعون الذي لا يكتفي بفرض رأيه وقراره وخياره ولكنه يهدد من يجرؤ على خلافه ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾

تقطيع وتصليب وتعذيب

لماذا؟!

ألم تقل منذ قليل أنهم إذًا لمن المقربين؟!

ألأنهم سجدوا لرب العالمين؟!

نفس الطريقة ونفس الأسلوب الذي يواجه به المختلفون حينما يسود

التسلط والرغبة في فرض الرأي والإلزام بالقول والفعل وربما التهديد بزوال المكانة أو حتى الأذى إذا فكر المرء أن يجهر باختلافه ويصدع بما يراه حقا

فهل أثرت تلك الطريقة فيمن ذكرت

هل أثنتهم أو ثبطتم من عزيمتهم؟

هل جعلوا لها أي اعتبار؟

الجواب لا

صالح قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

وشعيب قَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ونبينا قال لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه

والسحرة قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

ملخص الإجابات التي أجابها حملة الحق دائما كانت = محال

محال على مخلص يطلب رضا الخالق على بينة منه أن يتأثر بالتهديد بزوال رضا المخلوق

محال على صادق أن يستبدل رحمة الخالق برجاء المخلوق

محال أن يستبدل مكانته عند الخالق بمكانة عند المخلوق

لذلك أجابوهم دوما بالرفض وثبتوا على مبدئهم فهم يعلمون أن الرجاء الحقيقي والمكانة المهمة ليست عندهم ولكنها فقط عنده

عند الله



سور النيش العظيم

- هتشتروا نيش في سفرة جهازك إن شاء الله؟

هكذا سألت صديقي المقبل على الزواج

- طبعا هنشتري نيش يا عم الحمد لله الخير كتير وربنا فارجها من وسع

- ما شاء الله ربنا يزيد ويبارك بس سؤال آخر يا صديقي

هتشتريه ليه؟

صمت صديقي طويلا وبدأ يفكر في عمق ثم مط شفتيه بلا مبالاة وتبسم قائلا: عادي يا عم هنشتري نيش زي ما الناس كلها بتشتري نيش

هذه ببساطة هي حقيقة كثير مما نفعله

كثر الكلام والمزاح مؤخرا حول ظاهرة النيش وظننت أن صديقي وغيره سيتأثرون بتلك السخريات المنتشرة حول هذا الموضوع ومدلولاته لكن يبدو أن الأمر أقوى مما كنت أتصور

إنها سلطة الثقافة الغالبة

اللي زي الناس

النمطية الخانقة

الكتالوج

النيش نموذج بسيط لهذه النمطية والكتالوج الذي يحكم حياتنا

قطعة من الأثاث لابد أن تكون ذات واجهة شفافة لتظهر ما وراءها من الأطباق الصيني الفاخرة وأطقم الشاي والكؤوس اللامعة والفضيات الثمينة

لا . . . ليست المهمة تخزينية بحتة فهناك قطعة أخرى من السفرة غالبا ما تقوم بهذا الدور على أكمل وجه وهناك قطعا مثيلة في المطبخ

بالإضافة إلى حقيقة علمية أخرى وهي أن أغلب ما في النيش لا يستخدم مطلقا وأحيانا يتزوج العروسان وتمر بهما الشهور والأعوام وينجبا ثم يشيخا ويموتا دون أن يفتح النيش العظيم إلا لتلميع وتنظيف الأشياء الأسطورية القابعة في صمت خلف زجاجه العتيد

ويا ويل الابن أو الحفيد الذي سيجرؤ يوما ويقترب من سور النيش العظيم ليطالع تلك المنطقة المحرمة

حينئذ ستلتهمه النظرات الحارقة ويسمره في مكانه صياح الأم أو الجدة فقد تجرأ على قدس الأقداس وسر الأسرار المنزلية

وكل ذلك لماذا

إنه الكتالوج ومنطق: زي ما الكتاب بيقول

الكتالوج الذي نقدسه في حياتنا ويدفعنا دفعا لجل تصرفاتنا

الكتالوج الذي يفرض على شابين يبدءان حياتهما سويا أن يتكلفا ويتحملا كل تلك الضغوط المجتمعية التي لا يعتبر النيش أقساها وربما لا يقارن بباقي العادات التي يمليها كتالوج الزواج العتيق وقائمة متطلباته الأسطورية

نفس الكتالوج الذي يجعل المرأة المسكينة (تمقق) عينيها بالساعات (للف) المحشي بأنواعه المختلفة

ولماذا؟!

ما الهدف من هذا التعذيب وتضييع الأوقات؟!

وهل وضع المكونات الخاصة بالمحشي على هيئة طبقات مثلا لن يوفي بالغرض ولن يؤدي إلى إلى نفس الطعم أو على الأقل إلى طعم قريب منه؟!

أم أنها النمطية مرة أخرى والتقليد العقيم لسلطة لواقع المحيط

سلطة الواقع الذي يملي على المرأة المسكينة أن تكون ماهرة بالمحشي

قس على ذلك كل كتالوجات حياتنا

كتالوجات الطالب المسكين الذي لابد أن يتم حشو مخه منذ نعومة أظفاره بكم هائل من المعلومات التي لن يفيده أغلبها كما يتم حشو حقيبته بأثقال من الكتب والكراسات ينبغي أن تقصم ظهره الصغير

ومثلها كتالوجات التنسيق واختيار الكلية التي يفرضها مجموعه وليست ميوله ومهاراته ومواهبه

ومثلها كتالوجات الشهادات والمؤهلات التي عليه أن يبحث عنها على قدم وساق لا لشيء غالبا إلا لأنه هذا هو ما يمليه الكتالوج رغم أنه يعلم حقيقة كون جل تلك الشهادات والمؤهلات لا يعترف بها في أي دولة متقدمة سيفاجأ إذا فكر أن يذهب إليها يوما أن عليه إلقاء كل ما تلك المؤهلات العتيدة عرض الحائط والبدء من جديد

لكنه مع ذلك سيسير على القضبان وفق توجيهات كتالوج التعليم العقيم

وسائر كتالوجات العادات البالية والتقاليد العجيبة التي نقوم بها دون تفكير أو تساؤل عن حقيقة تلك الأشياء وضرورتها ولزوم السير على خطواتها المرسومة بعناية

كتالوجات ضيقت علينا حياتنا وصعبت عيشنا وأحيطت بها أسوار شاهقة تنافس في ارتفاعها سور النيش العظيم أو سور الصين العظيم مش فارقة كتير



قد ترجع أحيانا إلى الخلف

«عقارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الخلف»

عبارة أنيقة هي أليس كذلك؟!

أنيقة ولها وقع محبب مفعم بالأمل والتفاؤل وسائر تلك المعاني الجميلة

يحلو لكثير من الناس ترديد هذه العبارة الأنيقة خصوصا في إطار الحديث عن المكتسبات والتقدم الذي تحققه الشعوب والأفراد في مراحل معينة كالثورات أو الانتصارات الكبرى والمنعطفات العظيمة

مراحل قد تغلب عليها زهوة الفرحة بتحقيق إنجازات ونجاحات أو آمال وطموحات وأمنيات كثيرا ما تورث حماسة مفرطة تجعل البعض يهوون طمأنة أنفسهم ومريديهم بهذا المثال والتشبيه بعقارب الساعة التي تسير دوما في اتجاه واحد

حسنا . . .

عقارب الساعة فعلا لا ترجع إلى الوراء «بإرادتها» ولا تسير عكس الاتجاه «لوحدها»!

حتى لو تعطلت أو نضبت بطارياتها فإنها قد تؤخِّر وتتباطأ أو ربما تتوقف كليةً لكنها - فيما نعلم - لا تعكس دورتها «من تلقاء نفسها»

نعم . . . أقرُّ لك بهذا

إلا أن ذلك لا يحدث فقط في وجود هذا الشرط الذي كان ينبغي أن تتضمنه تلك العبارة المبشرة المفعمة بالتفاؤل

وحدها . . .

من تلقاء نفسها . .

لكن من قال أنها يستحيل أن ترجع مطلقا؟

إنها ترجع بكل بساطة بفعل فاعل

بمجرد أن تتحكم بتلك (البكرة) المتصلة بذلك الترس الذي يسيطر على حركة عقارب أي ساعة حائط أو يد أو حتى ساعة «بيج بين» الشهيرة أو بمجرد إمساكك بتلك العقارب والسيطرة عليها فستستطيع بكل سهولة إرجاعها إلى الخلف ووضعهم عند الرقم الذي تفضله أو تنتزعهم بالكلية وتلقي بهم عرض الحائط إن شئت

هكذا يفعل (الساعاتي) وكذلك يفعل أي إنسان يريد ضبط ساعته أو حتى تدميرها إن بدا له ذلك لأي سبب

مؤثر خارجي تتوافر لديه الرغبة والقدرة على تحريك تلك العقارب وستتحرك بكل أريحية ويُسر في كل الاتجاهات

لا توجد أي مشكلة في ذلك ولا توجد ساعة كبرت أو صغرت في الكون كله -فيما نعلم- يستحيل في حقها ذلك التراجع أو انعكاس الاتجاه

نعم سيظل الوقت كما هو في حقيقته ولن يغير هذا من طبيعة النواميس المحيطة لكن ما شأن ذلك بتلك الساعة وعقاربها تحديدا

الساعة نفسها ترجع وتتراجع كما يحلو لصاحبها المسيطر على مؤشرها

حينما يتضح هذا المعنى سيستقيم المثال ويصح التشبيه ويستفيق الحالم من غفوته ليدرك أن عقارب البشر أيضا ترجع أحيانا إلى الخلف

على مستوى الأفراد وعلى مستوى الأمم يحدث هذا التراجع

طالما وُجد الدافع وحضرت الشهوة ووُجد الانتهازيون والمنتفعون برجوعها وطالما توفرت لديهم القدرة على تحريك الأمور وتُرك لهم الحبل على الغارب وغفل الناس عن حقيقة تمكن هؤلاء المنتفعين من عقارب الأمم والشعوب ولم ينتبهوا إلى كون أولئك الانتهازيين يمسكون بتلابيبها فإنهم بكل بساطة سيفعلون بها ما بدا لهم

سيؤخرونها ويرجعونها إلى الخلف وربما يحطمونها تحطيما

التاريخ قديمه وحديثه يشهد ويذخر بما لا يحصى عدده من النماذج التي رجعت فيها عقارب الأمم والأفراد إلى الخلف . .

نماذج لأمم تراجعت في مختلف الجوانب وعلى جميع الأصعدة والمستويات سواءً على المستوى الفكري والثقافي أو على المستوى الاجتماعي والأخلاقي أو على المستوى الحقوقي والحرياتي وطبعا على المستوى الديني والسياسي والاقتصادي

ونماذج لأفراد انتكسوا وغيروا وبدلوا واختاروا لأنفسهم أسوأ ختام

إذًا فكل أنواع العقارب قد ترجع

ومنها -كما بينت- عقارب البشر أفرادا وأمما فإنها ترجع أيضا إذا ما توفرت للبعض إرادة التراجع والقدرة عليه ووكلهم الله لأنفسهم وأهواءهم وتسلط عليهم سفهاؤهم

ربما لا تسير عقارب الأمم على نفس النسق بحذافيره وربما لا يعيد تاريخها نفسه بتفاصيله

لكن المحصلة أنها قد ترجع وتتراجع وتنعكس حركتها وتسوء أوضاعها ولا يوجد أي مانع مطلق ينفي حدوث ذلك أو على الأقل احتمالية وقوعه

المشكلة فيمن يصر على ترداد الشعارات المطمئنة بلا تفكير ولا نظر وتأمل «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»

هكذا حذر نبينا ﷺ وكذلك نبه أمته

ولطالما سأل ربه الثبات وتعوذ من السلب بعد العطاء ومن الحور بعد الكور وكذلك دعا الصالحون ربهم فقالوا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

المسألة إذًا ممكنة شرعا والاحتمال قائم دينا وعرفا . .

ولقد احتشدت في القرآن والسنة نماذج لأقوام انتكسوا وغيروا وبدلوا وساء ختامهم بعد حسن ابتدائهم ولعل نداء المنافقين على المؤمنين يوم القيامة يعد من أوضح الأمثلة القرآنية لتلك الحقيقة

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾

فيرد المؤمنون: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

إنه إذًا الغرور والاغترار بالأماني والشعارات الأنيقة الفارغة التي يظن أصحابها أنهم سيقنعون الناس بكونهم مجرد آلات تسير على قضبان صلبة ووفق روتين محدد واتجاه ثابت كعقارب الساعة

تلك العقارب التي هي أيضا أحيانا . . . . ترجع إلى الخلف

أنا لسة هاقرأ كل ده؟؟

- يا راجل كبر مخك .. هو أنا لسة هأقرأ كل ده؟!!

تثير تلك العبارة دوما شجنا في نفسي حتى حين يقولها أو يكتبها البعض على سبيل المزاح

شجنا يعيدني إلى لحظة قديمة طالما حن القلب إليها

تلك اللحظة التي كنا نخفي أثناءها (الألغاز) داخل كتاب المدرسة ونعمل نفسنا بنذاكر والحقيقة أننا كنا نلتهم سطور الرواية التهاما

أبناء جيل الثمانينات وأوائل تسعينات القرن الماضي يذكرون جيدا تلك الحيلة التي تورط فيها كثير منهم

إنهم قراء جيلنا ممن نشأوا قبل التوك شو والمواقع التواصلية

أولئك الذين كانت تسليتهم الأساسية روايات الجيب التي كان ثمنها يقل كثيرا عن جنيه واحد وكان يحلو لهم تسميتها بالألغاز وتورط كثير منهم في عملية إخفائها داخل الكتاب المدرسي متظاهرا بالمذاكرة بينما هو يحبس أنفاسه متابعا أحداث الرواية المثيرة أو يخبئها تحت البطانية ليطالع سطورها بشغف على ضوء الوناسة بعد أن يخلد والداه إلى النوم

مَن مِن أبناء هذا الجيل لا يتذكر تختخ ونوسة ولوزة ومحب وعاطف المغامرون الخمسة

من منا لا يتذكر المقدم ممدوح بطل المكتب رقم ١٩ وعماد وعلا بطلي ع2x وبالطبع أدهم صبري ومنى توفيق وقدري البدين ونور الدين محمود

من لا يتذكر العجوز رفعت إسماعيل والخيالية عبير وغيرهم من أبطال وبطلات (الألغاز)

أبطال ما قبل ثقافة التيك أواي

أبطال ما قبل الفضائيات والتوك شو والفيس بوك والبلاي ستيشن والسمارت فون والتابليت واللاب توب والإكس بوكس

يتطور الأمر تدريجيا ويتغير الأبطال حين يبدأ الجامعي المثقف بمطالعة روايات أعمق وكتب أكثر نضجا وتبدأ الطبيعة الأيديولوجية تتشكل وتغير توجهات المطالعة لديه فمنهم من يكاد يلتهم الصحف التهاما ومنهم من يركز مطالعته على الكتب الدينية ومنهم من يقرر التوجه للكتب التراثية والتاريخية أو يصرف بصره تجاه المؤلفات السياسية والفكرية ومنهم من ينشغل بالأدب العالمي والقراءات الفلسفية

لكن يظل الكتاب هو البطل المشترك حين كانت القراءة يوما ثابتا في حياتنا على اختلاف مشاربها وتنوعاتها وتطورها عبر المراحل العمرية المختلفة

وعلى الرغم من الكثير من المآخذ والانتقادات التي ربما نأخذها على محتوى بعض تلك الكتب والمصنفات إلا أن وجود الكتاب بتنوعاته المختلفة كان يعطي عمقا مختلفا لتصوراتنا واختلافاتنا

أين كل ذلك الآن؟

أو على الأقل أين بدائله المعاصرة؟

ما الذي يقرأه أطفالنا وشبابنا اليوم؟

لا شك أنهم يقرأون فلا يوجد على ما أعتقد من لا يلاحظ هذا الكم من الوجوه الشاردة والأعين المنهمكة في مطالعة الأجهزة المحمولة في كل مكان حولنا

نعم الشباب يقرأون

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ما الذي يقرأونه؟

وهل مطالعة الفيس بوك لساعات طويلة وقضاء الأوقات في دردشات (الشات) أو خناقات تويتر أو متابعة إعجابات الصور السيلفي التي التقطها لنفسه يعد قراءة ويبني حالة من الثراء الثقافي والمعرفي؟

هل الاكتفاء ببضعة سطور لمنشور (بوست) على هذه الصفحة أو تلك لا يلبث قارئه أن يمل بمجرد أن يزيد المنشور عن سطرين أو ثلاثة ليسارع بكتابة التعليق العتيد: يا راجل كبر مخك هو أنا لسة هأقرأ كل ده؟

هل هذه النفسية المتسرعة التي لا تصبر على دقائق من المطالعة ستكبر لتكون يوما قيادة فكرية عميقة أو عقلية قادرة على التغيير والتأثير في واقعها المحيط

وهل ما يقرأونه يعد فعلا قراءة؟!

طبقا للتقرير العربي الأول للتنمية الثقافية والذي صدر عام **٢٠٠٧** وشاركت في رعايته المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا فإن دوافع استخدام الإنترنت لدى المواطن العربي يأتي فيها دافع الترفيه أولًا بنسبة **٤٦٪** بينما دافع التماس المعلومات يبلغ **٢٦٪** على أقصى تقدير

يعني حتى عبر عالم الإنترنت تأثيرنا محدود للغاية واستخدام شبابنا له

يعد بشكل غالب غير مفيد حيث لا يشكل مجموع عدد المواقع العربية على الشبكة العنكبوتية نسبة ٠,٠٢٦ % من إجمالي عدد المواقع العالمية.

أما لو ذهبنا لإحصائيات الكتب فإن النتيجة ستكون أشد إيلاما والأرقام ستسبب حزنا أكبر على حالنا الذي خلاصته أننا لم نعد نكتب ولا حتى . . . نقرأ

فطبقا لنفس التقرير السابق إجمالي عدد الكتب التي نشرت في العالم العربي كله في ذاك العام بلغت ما يقارب ٢٨ ألف كتاب بمعدل كتاب لكل لكل ١٢ ألف مواطن عربي، بينما هناك كتاب لكل خمسمائة مواطن إنجليزي، وكتاب لكل تسعمائة مواطن ألماني!!

وطبقا لنفس التقرير فإن معدل القراءة في العالم العربي لا يتجاوز ٤٪ من معدل القراءة في إنجلترا.

وفي احصائيات أخرى لمؤسسة الفكر العربي يدل واقع النشر بالعالم العربي على حالة ثقافية مزرية فما تنتجه الدول العربية من كتب يبلغ ١,١٪ فقط من معدّل الإنتاج العالمي للكتاب

وحسب إحصائية اليونسكو فإن الدول العربية مجتمعة أنتجت ٦,٥٠٠ كتاب عام ١٩٩١، بالمقارنة مع ١٠٢,٠٠٠ كتاب في أمريكا الشمالية، و٤٢,٠٠٠ كتاب في أمريكا اللاتينية والكاريبي ولقد تضاعف هذا العدد في السنوات الأخيرة ليصير ما تصدره الولايات المتحدة وحدها = ما يزيد على ٢٩٠ ألف كتاب جديد سنويًا

(تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣، النسخة الإنجليزية، ص ٧٧).

ووفقا للتقرير السابق أيضا فإن المعطيات التي يوردها حول الترجمة إلى

اللغة العربية تبين بأن الدول العربية ككل هي أدنى القائمة، إذْ قال التقرير إن اليابان تترجم حوالي **٣٠** مليون صفحة سنويًا. في حين أن ما يُترجم سنويًا في العالم العربي، هو حوالي خُمس ما يترجم في اليونان. والحصيلة الكلية لما ترجم إلى العربية منذ عصر المأمون إلى العصر الحالي **١٠,٠٠٠** كتاب وهي تساوي ما تترجمه أسبانيا في سنة واحدة

وتبين مقارنة أعداد الكتب المترجمة إلى اللغة العربية مع لغات أخرى سِعةَ الهوة بين العالم والعربي بمجمله وبين أية دولة في العالم، ففي النصف الأول من ثمانينات القرن العشرين، كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون، على مدى خمس سنوات هو **٤,٤** كتاب (أقل من كتاب لكل مليون عربي في السنة) بينما في هنغاريا كان الرقم **٥١٩**، وفي أسبانيا **٩٢٠**.

وتشير بعض الدراسات إلى أن عدد الكتب المؤلفة سنويًا للطفل العربي لا تزيد عن متوسط **٤٠٠** كتاب سنويا بينما هناك **١٣٢٦٠** كتابًا في السنة للطفل الأمريكي و**٣٨٣٧** كتابًا للطفل البريطاني و**٢١١٨** كتابًا للطفل الفرنسي، **١٤٥٨** كتابًا للطفل الروسي

هذا هو للأسف واقع أمة إقرأ بالنسبة للقراءة والمعرفة

واقع آثرت ألا أذكر جميع إحصائياته خشية التطويل لكنها بإختصار تؤدي إلى تلك النتيجة المؤسفة حتى على مستوى التسلية التي لا يحلو لنا تقليد الغرب فيها إلا بالمنطق الاستهلاكي السطحي بينما شبابهم حين يتسلون فإنهم أيضا يقرأون وتتكون لديهم منذ الصغر حالة من الألفة والارتباط مع الكتاب حتى أن مبيعات أحد أجزاء رواية هاري بوتر بلغت **١٠** مليون نسخة

في اليوم الأول لصدورها وهي بالمناسبة رواية ضخمة تحتاج لساعات طويلة لقراءتها

لقد انتقلت ثقافة (التيك أواي) من بطوننا إلى عقولنا حتى صرنا نتعامل مع المعرفة كما نتعامل مع الوجبة الخفيفة

وهذا حال من يتناولون تلك الوجبة أصلا

فما بالك عزيزي القاريء بمن يأبى تناولها أساسا ولا يرى لها قيمة ويكتفي فقط بالتحسر على الحال الذي وصلت إليه أمتنا دون أن يفكر للحظة أنه جزء من المشكلة فقد قرر أن ببساطة أن يستريح بأن يبدأ الكلام بتلك العبارة الحاسمة والتساؤل الذي ينهي الأمر مبكرا

عبارة: يا راجل كبر مخك .. هو أنا لسة هأقرأ كل ده؟!!



فلكلورية العبادة

خرجت من بيتي مسرعا، لم تتبق إلا دقائق معدودات ويؤذن للمغرب، سيكون إحراجا شديدا حين أصل متأخرا لتلك العزومة العائلية على الإفطار . .

انطلقت بالسيارة مسرعا وممنيا نفسي بسرعة الوصول حيث خلو الشوارع في رمضان ساعة الإفطار أمر طبيعي ومعتاد، لكن ما أن انطلقت حتى اكتشفت أن هناك ما لم أضعه في الحسبان . .

أهل الخير، مفَطِّرو الصائمين، كلما قطعت السيارة أمتارا أوقفها رجل وقور يحمل أكواب العصير المثلج ويصر أن تفطر عليه، أو مجموعة من الأطفال والصبية يحملون علب التمر، ويسارعون إلى نافذة السيارة لإعطائك تمرًا تكسر به صيامك، أو شابًا يافعا يحمل أكياسا تحوي وجبات بسيطة، فلعلك مسافر أو ستطيل قيادة السيارة، فتحتاج إلى وجبة تصبرك على الجوع حتى تصل،

هذا بخلاف عشرات من موائد الرحمن طوال الطريق، بعضها ضخم فخم وبعضها بسيط صغير وما على المحسنين من سبيل، تنوعات كثيرة طوال الطريق، مختلف أصناف البشر تجدهم طوال الرحلة، منهم الكبير والصغير ومنهم الشاب (الستايل) الذي يرتدي أحدث الموديلات ويصفف شعره بعناية

بالغة ومنهم من تبدو عليه آثار رقة الحال أو على الأقل توسطه.

حرص وجو محبب من المسارعة إلى الخيرات والتنافس على المعروف، أشكال متعددة وانتماءات وتوجهات مختلفة، يظهر بعضها من خلال السمت والشكل، كلها ذابت في تلك اللحظات في إطار واحد، اتفقوا عليه جميعا دون ترتيب، كلهم يريد الثواب وعمل الخير كما نحسبهم، وجلهم يتفننون بشكل ملفت في تجويد هذا الخير لتسهيل إفطارك . .

بعضهم يسارع إليك بالعصير المعلب، وآخرون يقفون في منتصف الطريق بمبردات عملاقة تحوي عصائر طازجة، اجتهد هو وأهل بيته في تجهيزها لك لتفطر بالهناء والشفاء، تصحبك الدعوات،

ربما إن لم تقف قذف أحدهم التمر أو علب العصير داخل السيارة المسرعة.

أسرعت بالسيارة وقد انتبهت على آذان المغرب يتردد عبر المآذن، ليذكرني أنني قد انصرفت لتلك الخواطر وتأمل تلك الظاهرة ونسيت أني متأخر على موعدي جدا، هنا فوجئت بكيس تمر يرتطم بوجهي وأنا أحث السير متعجلا، وكاد يحدث ما لا يحمد عقباه لكن ربنا ستر!

طبعا في الظروف العادية كان من الممكن أن أغضب بشدة نظرا لهذا التصرف الذي كان من الممكن أن يؤدي إلى حادث لا قدر الله، لكن في الحقيقة لم أجد ذلك الغضب بالعكس، هذا الحرص من ذلك الطفل الذي ألقى الكيس، وذلك الجو المحبب من المسارعة إلى الخيرات والتنافس على المعروف أزال عني كل استياء سببه ذلك التصرف المباغت، هؤلاء جميعا بإذن الله لا يريدون إلا الخير، هؤلاء جميعا ما حركهم في ظني إلا حديث

«من فطَّر صائمًا كان له مثلُ أجرِه غيرَ أنه لا ينقصَ من أجرِ الصائمِ شيئًا»

حقا إنه شيء لافت للنظر!

هذا الجو الرمضاني الجميل، وتلك الظواهر المفرحة التي تنم عن بقاء الخير وتجذره في القلوب، وكل هؤلاء الذين وقفوا في الشوارع، والذين أنفقوا من أموالهم وجهدهم في شراء الطعام والتمر أو إقامة موائد الرحمن، تحركوا بدافع من ذلك الحديث أو غيره من آيات وأحاديث الإنفاق وبذل الخير، إذًا فالأحاديث تحرك وتدفع للخير لهذه الدرجة!

حينما وصلت بخواطري لتلك النقطة كنت قد بلغت بغيتي، ووصلت بيت أقاربي الذي فيه العزومة، لكن الوصول وتناول الطعام بين زحام الأهل والأحباب لم يقطع سيل الخواطر والأسئلة التي ترد على ذهني . .

لماذا هذه الحماسة في رمضان وحسب؟!

لماذا لا نجد هذا الاندفاع إلى الخيرات بنفس الدرجة في غيره؟!

لماذا لا نجد هذا التفاعل الرائع مع أحاديث الفضائل وابتغاء الثواب من الله إلا في رمضان؟

أسئلة أرقتني وشرد في أمرها ذهني أثناء (العزومة) وبعدها.

-هتصلي فين ليلة القدر يا دكتور

قطع هذا السؤال حبل أفكاري من جديد، فالتفتُّ لأجد أحد الأقارب يسأل متبسما، شرحت له بتبسيط قضية التماس ليلة القدر في العشر الأواخر جميعًا، وعدم استحباب (التنشين) على ليلة بعينها، وأن هدي النبي كان الاجتهاد في سائر ليالي العشر، وأن (التنشين) لو كان مطلوبًا فلماذا كانت الحكمة من الإخفاء وعدم التصريح بها بشكل حاسم . . إلخ

لكن سؤاله نفسه جر مشاهد أخرى إلى ذهني تنافس مشاهد المسارعة إلى تفطير الصائمين التي شغلتني، مشاهد التزاحم ليلة السابع والعشرين على المساجد، خصوصًا المشهورة منها، والتي تحظى بقراء ذوي أصوات عذبة مؤثرة.

مشاهد تتكرر سنويا وتشير هي ومشاهد الإفطار إلى مسألة ينبغي التنبه لها، مسألة فلكلورية الطاعة، والفلكلور هو التراث الشعبي أو مجموع التقاليد الشعبيَّة الناشئة من العادات الخاصّة بثقافة بلدٍ ما، لكنها تَظل عادات موسمية ربما تأخذ أحيانا الطابع الاحتفالي (الكرنفالي) نتيجة لتضافر الناس عليها في نفس التوقيت.

إن تتحول العبادة دون أن نشعر إلى طقوس شعبية موسمية بدافع من الاعتياد والجو الاحتفالي الجمعي مما ينبغي الحذر منه.

ليس اتهاما للنية، ولا تقليلا من شأن تلك القربات العظيمة التي أسأل الله أن يتقبل من أصحابها،

وليس أيضا دعوة للتوقف عنها، ولكنها دعوة للمزيد، دعوة لمراجعة الهدف، ودعوة للنظر في ماهية الطاعة، وهل تحولت دون أن نشعر لمهرجانات سنوية أو عادات موسمية!؟

إن رمضان فرصة سانحة لاستغلال هذا التشجيع على الخير وتثبيته، والنظر الصحيح لرمضان أن يكون مبعث تغيير، ومبتدأ لحياة مختلفة، ومحضنا تدريبيا يعين المرء على ما هو آت، وقد أثبت لنفسه أنه يستطيع، فلا حجة للترك بعد ذلك.

هذا الاندفاع الجميل إلى الإنفاق نحتاجه أكثر في غير رمضان، حين

يقل العطاء، ولا يجد الفقير نفس الحماسة في إطعامه وأداء حقه.

هذا الامتلاء للمساجد الشهيرة ليلة السابع والعشرين من رمضان تحتاجه مساجد تشكو طوال العام من الخواء والهجران، وهذا الامتثال لأحاديث النبي وتطبيقها بحماس ينبغي أن يوجه للمداومة، ونفس النبي قال: أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل!

لنحرص إذًا ألا تتحول طاعاتنا دون أن نشعر إلى نمط من المهرجانات الاحتفالية والعبادات الفلكلورية الموسمية، ولتظل العبادة والطاعة والقربى حية في قلوبنا طوال العام.



العظامي

ويعتبر العظامي من أكثر الأنماط والنماذج المشوهة التي نشاهدها اليوم، والعظامي في اللغة هو الذي يقوم على عظام الآخرين، وهو ضد العصامي الذي يرتفع بعد فضل الله ببذله وكده وإحسانه، وليس بفعلِ وبذلِ غيره.

وقديما كان العظاميون يعتمدون على صيت آبائهم وأمجاد أجدادهم، أما اليوم فهم يعتمدون على صيت سادتهم وكبرائهم ومتبوعيهم، فبهم يفتخرون، وبأمجادهم على الخلق يتيهون ويباهون، وإذا سألتهم عن أنفسهم وما قدموا ويقدمون تجدهم للأسف .. لا يردون!

فالحقيقة أن العظامي هو كائن طفيلي متسلق لا يمكنه الصعود إلا على أكتاف الآخرين، فإن لم يجد أكتافًا تحمله طوعا بحث عن عظام يهشمها ليصنع منها سلمًا لمجده الزائف، ويتحول تدريجيا إلى مخلوق مؤذٍ، مدمر لمن حوله، نهم لنهشهم والعلو فوق جثثهم بشكل قريب من النمط القادم وهو الرممي!



الرممي

ثم هناك ذلك النمط الرممي الذي يشبه في سلوكه تلك المخلوقات الرممية التي تحلل أجساد الموتى وتتغذى على جيفهم،هذا النمط أيضا لا يتعيش إلا على لحوم الآخرين، ولا يستمد قوته إلا من خلال امتصاصه لأرواح أفكارهم وبذلهم.

ذلك الإنسان الذي تقوم فكرته على تجهيل الآخرين، وتزدهر قيمته بازدرائهم والتحقير من شأنهم، بضاعته الأساسية هي بيان نقصهم، وسلعته الوحيدة هي تسفيههم، والقيمة الرئيسية التي يقدمها لمستمعه أو قارئه قائمة على رسالة ضمنية أنه فقط من يعلم ويفهم ويدرك بواطن الأمور، هو الأوسع اطلاعا والأعمق ثقافة وعلما والأكثر إدراكا ووعيا، إنه الأروع بلا منازع!

لكنه لا يستطيع أن يصرح بذلك لبقايا حياء مستتر، فيرسل هذه الرسائل ذات المغزى من خلال التحقير الدائم للآخرين، وبيان خفتهم أو تفاهتهم بالنسبة لعمقه الرهيب، وذكائه المهيب، وفطنته الشاسعة، وثقافته الواسعة، ودهائه الفظيع!

وقد يلجأ أحيانا أصحاب تلك الطريقة وذلك النمط إلى تصورات متوهمة في عقولهم، ولوازم لا يحتملها الكلام، لكي تكون فرصة سانحة لنهش من يعدونهم من البلهاء السذج، وإرسال رسالتهم المتكبرة في الوقت

نفسه والتي فحواها: اتبعوني فأنا الذكي الأعظم، والمثقف الأكبر، والعميق الأوحد الذي لا يشق له غبار!

نمط وصولي، وقيم متسلقة لا تبزغ ولا تعلو إلا على سلم من عظام الآخرين، ومجد زائف ما أشبهه بحياة البكتريا مصاصة دماء لا تحيا إلا اقتياتا على أرواح الآخرين، والتجرع حتى الثمالة من دماء أفكارهم وبذلهم.



المتكلمون إلى أنفسهم

الإنسان يكلم نفسه!!

تلك حقيقة واقعة، ليس شرطا أن يكون كلاما باللسان، لكنه حديث النفس الداخلي الذي لا يخلو منه إنسان، أسئلة وإجابات تطرح، آمال وأحلام تتشكل، أحزان وذكريات تسترجع، أفكار وخطرات، لمحات ولفتات، صرخات وهمسات، تمر جميعها بالذهن، ولا يخلو منها يوم من أيام عمر الإنسان القصير، مشاعر متباينة تضطرم داخل النفس، غضب وفرح، كره وحب، وأحيانا حقد وغل وحسد!!

خليط رهيب من كل ما سبق من الكلمات والعبارات، تتشاجر أحيانا، وتتضافر أحيانا أخرى، وتتجمل أحيانا، وتكذب على بعضها، وقد تتراشق وتتكشَّف فاضحة نفسها أمام نفسها، لكنها في النهاية تظل داخل صدور لا يعلم ذاتها إلا الله.

ويظل اضطرامها داخل النفس عاملا مهمًّا من عوامل إكمال الحياة.

نعم ..

هذا الحديث يعتبر في الحقيقة من أهم وسائل العون واستمرار المسير في رحلة العيش، تخيل لو أنها كانت نفسًا صامتة لا تتحدث ولا تتجاوب ولا تلوم أو حتى تبرر، حينئذ لن تكون نفس إنسان، ستكون في تلك الحالة نفسا

مصمتة، ويكون صاحبها أشبه بـ(الروبوت) أو الإنسان الآلي، وليست هذه هي النفس المطمئنة التي ذكرت في القرآن، بل هي نفس متحجرة جامدة.

أو تخيل العكس . .

نفس متجبرة متسلطة تبرز كل عيب، و(تبروِزُه) في إطار ظاهر، وتجلد صاحبها عليه باستمرار موجهة إليه شتى أنواع الإهانات والبذاءات، إنها حينئذ نفس كئيبة مدمرة.

وليست هذه هي النفس اللوامة المحمودة، بل هي نفس جلادة سادية، تهوى العذاب والتعذيب،

لكن أغلب الأنفس ليست كذلك . .

أغلب الأنفس تحدث نفسها حديثًا مختلفا، تستطيع معه العيش والتعايش مع نقصها وزللها وخطئها، فإن لم تتعاظم جدا فيكون حديثها مع نفسها كله تعظيمًا ومدحًا وتمجيدًا، كما في حال الأنفس المغرورة المتكبرة لأولئك الذين يرون أنفسهم هدية ينبغي على البشرية أن تفرح بكل سكنة من سكناتهم، وتسعد بكل حركة تصدر منهم، فإن جل النفوس الباقية تصل في مرحلة ما إلى التبرير أو التسويغ أو التمرير لما تفعله من أخطاء أو خطايا!

حتى لو صارحت نفسها بالخطأ، ولامت نفسها عليه، وربما تابت عنه (وتلك هي النفس الصالحة اللوامة)، فإنها في النهاية لا بد أن تعبر، وأن تتجاوز ذلك الخطأ أو الخطيئة لتكمل الحياة، فتحدث نفسها حينئذ بالرجاء والأمل في الرحمة، وربما تزين أحيانا ما حدث بدعاوى الاضطرار والضعف الإنساني، أو تستدعي نماذج المخطئين من هنا أو هناك لترى نفسها مثلهم أو أفضل حالا منهم، المهم أنها ستصل إلى اتفاق في هذا

الحوار الداخلي يجعلها تكمل.

ربما يكون اتفاقا سديدا موفقا، يذهب بها إلى راحة النفس الصالحة المطمئنة، وربما تكون اتفاقيات مبنية على الكذب والتجمل الذي تلجأ إليه كما قلنا لتستطيع الإكمال، المحصلة النهائية أن الكل يتحدث مع نفسه ويحاورها، ويصل معها إلى اتفاق ما، وهذا الحوار لا يسمعه أو يعلمه أحد غيره إلا الله، لكن حينما تتجاوز تلك المفردات حاجز الصدور، وتخرج إلى الملأ لتتفاعل مع بعضها البعض عيانا بيانًا فإن ذلك مؤشر خطير، بل ربما يعده البعض نوعا من الجنون!

تخيل واحد ماشي يكلم نفسه، يتشاجر معها، يلومها ويبوخها، فترد نفسه عليه بتقريع مقابل، صوتهما يعلو على بعضهما البعض، الخناقة تشتد بينه وبين نفسه، ثم يعود فيمدحها ويثني عليها ويمجد أفعالها أو يبررها ويسوغها!

ماذا ستقول حينئذ عنه؟

جن جنونه، فقد عقله، أعصابه أنهكت وخرج عن شعوره، وربما كل ذلك!

للأسف هذا النموذج الجنوني هو الغالب على نمط العمل العام هذه الأيام، الكل تقريبا يكلمون أنفسهم، يخاطبون قواعدهم، لا تكاد تجد أحدا يخاطب إلا أتباعه، أو أحدًا يسمع إلا موافقيه، ولا أحد تقريبا مستعد لتغيير رأيه، أو خلع النظارة التي يزوده بها متبوعه، ويحرص تمام الحرص على أن يظل مرتديا إياها لا يرى الدنيا إلا من خلال عدساتها!

لست أعني واحدة من تلك النظارات التي نعرفها اليوم سواءً الطبية منها

أو الشمسية، إنما أعني تلك النظارة التي يرتديها المرء فتصبغ حياته ورؤيته وفهمه بلونها، فلا يرى الأشياء إلا من خلالها، ولا يحكم على الأمور إلا بقتامتها التي تحجب عنه تفاصيل وحقائق واضحات بينات لكل من لم يرتديها.

تلك النظارة التي تتعاظم وتتضخم أحيانا لتتحول دون أن يشعر مرتديها إلى سجن كبير، لا يرى الدنيا إلا من خلال نافذته الضيقة التي يقبع أسيرًا خلف قضبانها الباردة.

وأسر الأفكار كثيرًا ما يكون أشد إحكاما من أسر الأسوار، ولربما تكون قضبان الجهل والتأول أصلب ألف مرة من قضبان السجون.

لكن سجين الفكرة ربما لا يدرك أبدًا أنه سجين!

بل قد يظل حبيسا خلف قضبان تلك الأفكار التى تتملكه، دون أن يدرك -ربما لأعوام- أنه كان ينظر إلى الدنيا من خلال نافذة زنزانة تلك الفكرة، أو من خلف زجاج نظارتها المعتمة، ويصم أذنيه إلا عن صوت من ألبسه إياها .. صوت نفسه!

وقد تملك بعض الأفكار والتصورات والمشاعر على المرء حياته، فلا يتصور العيش إلا من خلالها، ولا يمكنه التنفس إلا فى أعماقها، حتى إذا هبت عليه نفحة من نسيم مختلف، حبس أنفاسه خشية أن يختنق، حتى لو كان هذا نسيما عليلا نظيفًا، يكفي أنه مختلف كي لا أستنشقه، كذلك فعل قوم نوح، وضعوا أصابعهم في آذانهم ورفضوا أن يسمعوا، واستغشوا ثيابهم وأبوا أن يروا، وأصروا واستكبروا استكبارا!

وكذلك فعل الضُّلال في كل زمان ومكان حينما جاءتهم رسلهم

بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، ورفضوا أن يفتحوا الأبواب والنوافذ ليدخل الضياء إلى القلوب والعقول، أو يخلعوا النظارات ليروا الدنيا بألوانها الطبيعية.

والحقيقية . . لو أن أحدهم أقدم وقرر يوما أن يفعل، فيخلع النظارة، ليرى الحياة بلونها الحقيقي، فسيدرك حينئذ الفارق الهائل بين وضوح الصورة ونقاوتها بدون النظارة التي لونت حياته دون أن يشعر، حين كان حبيسا خلف زجاجها القاتم، وقابعًا بين أسوار سجنها المظلم، الذى لم يفترض ولو للحظة أنه صواب يحتمل الخطأ، وأن غيره خطأ يحتمل الصواب.

لكن كثير من الناس للأسف يستسلمون لذلك الأسر، ويصرون على ارتداء تلك النظارات التي تلون أحكامهم، والسماعات التي تسيطر على تقديراتهم لكل شيء، نظارات الحب الوردية التي تزين كل سوءة وتجمل كل قبيح، أو نظارات الكراهية السوداء الداكنة التي تنفي كل فضل، وتنسب كل شر لم يُنظر إليه بتلك النظارة القاتمة . .

نظارات التعصب وسماعات الهوى، نظارات الشهوة وسماعات الشبهة . .

وما أكثر النظارات وما أشد سماكة السماعات!

فى حافلة تزدحم بمجموعة متباينة من الأشخاص من مختلف الجنسيات، والأعراق، والألوان؛ كانت رحلة عودتى إلى مخيمات مِنى؛ بعد أداء طواف الإفاضة وسعي الحج منذ عدة أعوام.

جاء مجلسي فى تلك الحافلة إلى جوار مجموعة من الحجاج الصينيين،

وحاج نيجيري، وآخر عراقي.

ظل الأخوة الصينيون طوال الطريق يتكلمون معي فى حماسة بالغة، ويحاولون بإصرار عجيب إفهامى شيئا ما لم أدرك ماهيته إلى اليوم!!

وأنا أحاول إقناعهم -دون جدوى- أنى لا أفقه حرفًا من لغتهم؛ بينما يُلح علينا «التبَّاع» اليمني كي نساعده فى إفهامهم قيمة الأجرة التى حاولنا جاهدين أنا والأخ العراقى والأخ النيجيرى بيانها لهم بلا فائدة . .

استمر الحوار المحتدم، والصياح المتبادل لأكثر من ساعتين حتى وصلنا إلى أرض مِنى؛ ولم يفهم أي منا الآخر.

يومها تذكرت تلك المقولة العبقرية التى تُذكر حين يعجز كل طرف عن فهم الآخر، فيُطلق على حوارهم «حوار الطرشان»!

تلك الصورة الهزلية لمجموعة من الصُم الذين يكلم كل منهم الآخر بحماسة شديدة تبدو أماراتها على قسماتهم، وتدفع كلا منهم للصياح بأعلى صوت ممكن فى أذن محاوره، الذي لا تغادر اللامبالاة وجهه؛ حتى إذا جاء دوره ليتكلم؛ صاح بحماسة لا تقل عن حماسة الأول، الذى تنتقل إليه على الفور حالة اللامبالاة إياها، وهو معذور؛ فإنه ببساطة لا يسمع!!

لا يسمع إلا جهة بعينها، فهمه ليس منضبطا إلا على موجة واحدة، موجة موافقيه، نفسه تكلمه ويكلمها وحسب . .

نفس الأحداث، ونفس الممارسات، ونفس المواقف تجدها في رواية بصياغة، وفى رواية أخرى بصياغة مضادة تماما.

لا بدَّ في كل حادث أو موقف أو خيار أن تكون هناك رواية ورواية مضادة، ترددها القواعد، ويقنعون أنفسهم من خلالها أنهم دوما مظلومون

مضطهدون ملائكة في مقابل شياطين!

فهذا الحزب يخاطب قواعده، ويقنعهم أن قراراته لا مثيل لها، وأنه هو الحزب الأعظم في تاريخ البشرية، وأنه الحريص الوحيد على مقدرات البلاد، والقارىء الفريد لمناطات الاضطرار والحاجة والمتاح والممكن، وأنه هو المحافظ على الشريعة في كل حال، والحاقن الأوحد للدماء!

ومن يفهم تلك التوجيهات العكاشية اللوذعية التي تصدع كل مساء محذرة من الماسونية الإرهابية، ومن يتحمل صرخات تلك المذيعة العصبية، أو نرفزات وبذاءات زوجها السوقية، أو لا يمل من هدوء أخيه المحنك، إلا أتباعهم ومعجبوهم على أريكتهم الوثيرة، التي على ظهرها المريح يقبلون، ويتحملون كل ذلك، ويفهمون ويدركون مغزاها ومدلولها!

فالرسائل موجهة لهم هم، وهم وحدهم . .

ومن آن إلى آخر، وعبر الأثير، سيرسل المغرد سؤاله الشهير الذي يثبت به أتباعه المخلصين قائلا: هل هناك دولة؟! وسيدركون جميعًا المغزى، ويهللون ويرددون صيحات الإعجاب بتلك السنين الضوئية التي يسبق الجميع بها، ولن يكون ثمة فرق لديهم بعده حتى لو ظل حبيس التغريدات، وكأن شيئا لم يتغير، وكأن ثورة لم تقم!

حتى من هم أصحاب قضية عادلة كثير منهم للأسف يخاطب نفسه وحسب . .

إذ لا يتصور مطلقا أن قناعة مخلوق ستتغير، أو سيتم تصحيح فكرة أو وعي أو الترسيخ لمبدأ أو حق، حين يقال في ختام تلك التوعية أو الدعوة أو النصيحة كلمات من نوعية: هز ديلك، أو اشرب برسيم، أو بصب اللعنات

على المنصوح والمدعو، وحين تنصح بتغيير الخطاب لتنجح التوعية وتظهر عدالة القضية؛ تجد حقيقة أن الخطاب ليس توعية ولا يحزنون، وأن الأمر في كثير من الأحيان ما هو إلا حديث نفس لتثبيت القواعد، أما الآخرون ففي نظرهم لا فائدة أصلا منهم، وكأنهم قد حكموا بمآلهم ومصيرهم . .

الكل في النهاية -إلا من رحم الله- يسقي أتباعه ومؤيديه جرعة التثبيت، ويعطيهم الرواية التي تناسبهم، والاجابة التي تجعلهم ينامون مرتاحي البال بعد أن يحفظوا تلك الإجابة التي لقنتها لهم أنفسهم -أقصد فئتهم أو نوعهم أو فصيلهم أو حزبهم- ثم يضعونها (كوبي وبيست) عند خصومهم ومخالفيهم، غيرَ أنَّ خصومَهم لن يقرأوها لأنهم يرتدون نظارات من لون آخر، وهم أيضا مضبوطون على موجة معينة لكن مختلفة، ولا بدَّ لكي تكلمهم أن يكون ذلك من خلال تلك الموجة، وتعطيه الرواية التي يصح معها أن تقول أنه يكلم نفسه ونفسه ترد عليه!

بذلك تثبت القواعد، نعم . .

لكن كل قاعدة تظل على جزيرتها المنفصلة التي تتباعد باستمرار عن الجزر الأخرى، وتتقطع باستمرار مع هذا التباعد، كل خطوط التواصل المحتملة، وكل فريق يستعمل نفس الحالة أو الموقف فى نصرة فكرته، وزيادة درجة العتمة على زجاج النظارات الداكنة التي يسيطر بها على رؤية أتباعه ومريديه وموافقيه، أو مضاعفة سمك السماعة التي تعزل سمع مؤيديه ومحبيه.

ورغم أن الصوت عالٍ إلا أنه من النادر أن تجد أحدا يسمع أو يعقل في كل تلك الضوضاء، اللهم إلا من مصدر واحد فقط في النهاية . . نفسه تكلمه ويكلمها!

متعصب

قال: أيُّ رجلٍ فيكم عبد اللهِ بنُ سَلامٍ؟

قالوا: أعلَمُنا، وابنُ أعلَمِنا، وأخيَرُنا، وابنُ أخيَرِنا

قال: أفرأيتُم إن أسلَم عبد اللهِ بن سلام؟؟

قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك!

فخرَج عبد اللهِ بن سلام إليهم فقال: أشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

فقالوا: هو شرُّنا، وابنُ شرِّنا، ووقَعوا فيه!!

كان هذا نص حوار دار بين النبي ﷺ وبين أحبار اليهود عندما دعاهم بعد إسلام عبد الله بن سلام!

ذلك الحبر الذي كان له بينهم شأن ومكانة كبيرة ظهرت في كلامهم عنه قبل أن يكتشفوا إسلامه، بيد أن تلك المكانة قد تهاوت في لحظات بمعول التعصب، حتى صار فجأة شرَّهم وابن شرِّهم.

وكذلك التعصب في كل زمان ومكان.

في لحظة يُسقط أي مخلوق، الذي ما إن يختلف مع ما يتعصب له المرء حتى يصير احترامه وتقديره له في خبر كان.

وهذا ما كان من أحبار اليهود الذين تغيروا على ذلك الرجل الذي كانوا يثنون عليه قبل قليل!

ورغم أن المنطق يقول أنه لا مانع من بعض الأخذ والرد والإقناع بالحسنى الذي يحتاجه أي مدعو، خصوصًا إن كان يعتقد بشدة ما هو عليه، إلا أن ما يدعو للدهشة هو ذلك الانهيار الكامل في نظرتهم للرجل، والتي كان من المفترض أن يسبقه حتى بعض النقاش، وربما الاستغراب لفعله، وسؤاله عن دوافعه وأسبابه، أو حتى مناظرته، فهو ليس نكرة بينهم بشهادتهم أنفسهم، ولا بد أن لديه ما يقوله.

لكن شيئا من هذا لم يحدث .. لقد صدر الحكم في لحظة، ونقضوا سابق رأيهم مباشرة، ووقعوا فيه، بل حتى في أبيه لأنه خالف ما هم عليه!!

إنه التعصب، ذلك المرض العضال الذي يستشري في نفوس الكثيرين دون أن يشعروا، لذا دعني يا صديقي أسألك وأسأل نفسي معك بعض الأسئلة الكاشفة، ودعنا نحاول معا الإجابة عنها بصدق لعلنا نعرف هل أنت من أهل هذا النمط أم لا ..

هل تشعر بالغضب حين تسمع أو تقرأ رأيا يخالف رأيك أو وجهة نظر مغايرة لما أنت مقتنع به؟

هل هذا الغضب دائمٌ في كل خلاف، أم أنه يختلف حسب نوع الخلاف وطبيعته؟

وهل كل الخلاف في نظرك أمر عقدي دونه الرقاب أم أنك ممن يفرقون بين أنواع الخلاف؟

وهل تسيء الظن بمخالفك، وتتسابق إلى ذهنك قائمة اتهامات لنيته

وقصده، وتبدأ في محاسبته عليها، وقد ترسخ لديك أنها دوافعه المؤكدة لهذا الرأي أو الاختيار؟

هل تلاحظ تغيرَ رأيك في الشخص، أو حتى تغير صدرك نحوه حين يخالفك، حتى لو كنت من قبل محبا له؟

وإن كنت كذلك فبعد كم مخالفة تتغير نحوه؟

وهل مخالفة واحدة تكفيك أم أن حكمك تراكمي متزن؟

هل «استسهلت» وحكمت على مخالفك وصنفته فور اختلافه معك، أم أنك ناقشته وتبينت منطقه قبل إطلاق حكمك عليه؟

وهل تدخل النقاش فقط بغرض إقناع مخالفك، أم يكون لديك احتمال ولو يسير أن تغير رأيك بعد الحوار؟

هل تغضب لأشخاص بأعيانهم دون غيرهم؟

وهل يختلف تقييمك ونظرتك للفعل وتقبله إذا صدر عمن تؤيدهم بخلاف ما إذا صدر بحذافيره عمن تخالفهم؟

هل تتذكر متى كانت آخر مرة رأيت فيها أن من تؤيدهم أخطأوا؟ وهل أنكرت عليهم حينها وعاملتهم كما تعامل مخالفيك الآخرين، أم أن رد فعلك اختلف و«طنشت»؟

هل من طبيعتك إبدال رأيك بالكامل تماشيا مع رأي من تؤيدهم كلما تبدل رأيهم أو تراجعوا عن مواقفهم التي كنتَ تدافع عنها منذ برهة لتعود وتبرر مواقفهم الجديدة؟

وهل تتخلى عن خلقك وأدبك فى الحوار وتخلعهما على عتبة الخلاف

في الرأي، لتستبيح وصف مخالفك بكل منقصة؟

إن كانت الإجابة بـ «لا» على كل ما سبق أو أغلبه فهنيئا لك، أنت متجرد منصف باحث عن الحق ملتزم بحدوده وآدابه وقيم الوصول إليه.

لكن إن كانت الإجابة بـ «نعم» فللأسف أنت في مشكلة كبيرة!

إن دلالة وجود تلك الأفعال التي تضمنتها الأسئلة في تصرفاتك تشي بوضوح أنك لا تطيق الاختلاف، وأنك تقدم سوء الظن في مخالفيك، ولا تضع اعتبارا قط لكونهم قد يكونون على حق، أو على الأقل طالبين للحق، وتشي أيضا أنك توالي وتعادي على أشخاص معينين، وتعرف الحق بهم ومن خلالهم، وتغلق عقلك وقلبك عن غيرهم.

باختصار تشي أنك متعصب يا صديقي، أقولها لك هكذا وعلى بلاطة.

إن كانت إجابتك على تلك الأسئلة بالإيجاب، وتقع في تلك الأمور التي تضمنتها أو بعضها، فللأسف الشديد أنت متعصب أو على الأقل فيك شيء من التعصب.

والتعصب يا عزيزي مرض خطير، ينبغي أن تدرك بشاعته لكي تستطيع التخلص منه، يكفي أنه يورث نوعا من أنواع العمى والصمم.

نعم عمى وصمم، ولعلك سمعت بحديث «حبك للشيء يعمي ويصم»، وهو على ما فيه من ضعف في الإسناد إلا أن صحة معناه تترسخ لدى كثير من الناس يوما بعد يوم.

تترسخ ونحن نشهد تلك الأمور التي سألت نفسي وإياك عنها في تلك الأسئلة التي قدمت بها للمقال، والتي صار بها الحب والاتباع عصبية مقيتة، تُعمي الأبصار عن رؤية أي حقيقة مخالفة، وتصم الآذان عن سماع أي رأي مغاير.

ذلك العمى والصمم عرَض بسيط ومبدئي لذلك المرض العضال، مرض «التعصب»، الذي لا يستشري في جسد أمة إلا وهنت، وتمزقت أطرافها، وصارت إلى ضعف وانتكاس فكري وحضاري محتوم، وربما يؤدي إلى كوارث أكبر حين تترجم تلك العصبية إلى كراهية وتنازع وفُرقة.

وبداية العلاج لأي مرض أن يعرف المريض أنه مريض، وأن يستشعر حاجته للعلاج، وتلك هي أولى خطوات الإصلاح.

أن يعترف المرء بوجود مشكلة، ومن ثم يكون راغبا في التعامل معها وعلاجها، وإلا ظل على تعصبه الذي يجعله في النهاية يخسر الجميع، إلا النذر البسير ممن قرروا موافقته على طول الخط.

نعم يا عزيزي ستخسر كثيرا إن أصررت على تعصبك، إذ لا يعقل أبدًا يا عزيزي كلما اختلفت مع متبوعك -غير المعصوم- أو انتقدته أن أتحول فى لحظات إلى عدوك اللدود، وخصمك البغيض، وأن أقع فريسة سبابك واتهامك وتصنيفك الجائر، وأن تسقط فورا كل فضيلة أو سابق مودة بيننا، لمجرد أنني اختلفت أو حتى يا سيدي لو اعتبرتها أنني أخطأت.

ولا يُعقل أيضا أن يكون هدفي من كل موقف تبنيته مخالفا لقائدك أو متبوعك تشويهه، أو تتبع زلاته وإبرازها كما يتبادر إلى ذهنك دوما وربما إلى لسانك.

يحق لك بالطبع أن تدافع عن وجهة نظر متبوعك ما دمت مقتنعًا بها، لكن ما لا يحق لك بحال من الأحوال أن تنتقص من خالفه، أو فند رأيه، فتتهم نيته، أو تسبه وتمتهن كرامته، وتتحول دون أن تشعر إلى رجل شرطة يسعى للإمساك بالمخالفين باعتبار اختلافهم مع من يؤيدهم جريمة أو تهمة لا تغتفر.

عليك يا صديقي المنضوى تحت جماعة أو حزب، أو المتبع لقائد، أن تفرق بين من يختلف بأدب ودون تجريح، وبين من يسب ويهين.

بين من يقارع حجة بحجة وينقد رأيا ويفنده -وإن كان نقده لاذعا- وبين من يلتفت لشخص صاحب الرأي نفسه ويتفرغ لامتهانه وتشويهه.

فإن وجدت من يهين متبوعك، وينتقص من عينه أو شخصيته -وليس رأيه- فحق لك حينئذ أن ترد غيبته إن كنت ترى تجاوزًا فى حقه واعتداءً على عرضه.

لكن أن تجد نقدًا وتفنيدًا لرأي متبوعيك، أو تساؤلات واستفسارت حول مواقفهم وخياراتهم، فتتداخل أنت لتسب وتشتم!

هذا ببساطة يا عزيزى لا يقال عنه إلا بلطجة فكرية، وتعصب أعمى.

فارق كبير يا صديقي بين من ينقد بأدب، ويختلف برقي، ويقوّم من يراه أخطأ، وبين من يشوه ويسيء ويهين مخالفيه، أو يختلف لمجرد الاختلاف، وليس من حق مخلوق أن يتهم نية الخلق، أو يزعم ضمنيًا اطلاعه على غيب دوافعهم، وأسباب اختلافهم، ومن ثم يصنفهم، ويحكم عليهم، ويسيء لذواتهم وأشخاصهم.

وينبغي أن تسأل نفسك يا صديقي عدة أسئلة قبل اتباعك لإنسان أو مجموعة من البشر فى حزب أو جماعة، هل اتباعك لهم أعمى؟؟

وإن كنت قد قررت أن يكون اتباعك له أو لهم ملزما لك فهل هو ملزم لغيرك؟؟

وهل متبوعك هذا منزه عن الخطأ ولا يعتريه النقص والزلل؟؟

وهل صارت قناعتك به مبررًا أن تعلو به فوق البشر بحيث لا تتصور أن الحق جانَبَه، وصادف غيره ولو فى بعض المسائل؟

و إن كنت أنت يا صديقي قد قررت وارتضيت أن يكون اتباعك لحزبك أو جماعتك أو قيادتك ملزما لك فهل هو ملزم لغيرك؟

ما شأني أنا كمخالف لك بخيارك هذا؟ ولماذا تريد أن تفرضه علي باتهام نيتي أو تشويهي حين أختلف معهم؟

دعني يا صديقي أجيبك أو أذكرك بالجواب الذي ربما تكون قد نسيته في زحام نضالك المقدس -في نظرك- ضد مخالفيك.

إن جماعتك أو حزبك أو قادتك ليسوا معصومين، ومن الممكن أن يخطئوا أو يسيئوا، ومن يختلف معهم أو يرى خطأهم ويردهم أو يفند مواقفهم وخياراتهم، بل ولربما رفضها ورأى مذمتها، ليس بالضرورة حاقدا أو خائنا، وطالما يختلف بأدب فعليك أنت أيضا أن تجادله بالحسنى، بل بالتي هى أحسن.

ينبغى عليك يا عزيزي أن تدرك أن متبوعك طالما أخرج رأيًا من بين شفتيه، وجهر به وطرحه على الملأ مجاوزا أسوار عقله، فقد صار قوله عرضة للنقد والقبول والرفض والتفنيد والأخذ والرد.

ويفترض أن متبوعك أو قائدك يفهم ذلك جيدًا، ولئن ظن يومًا أن رأيه منزه مقدس، لا ينبغى لأحد رده، ولا يسع أحدًا رفضه، فإنه قطعا لا يستحق أن يتصدى للعمل العام. فهو بذلك من أهل تلك القاعدة الفرعونية التي يبدو للأسف أن الأجيال تتوارثها في بلادنا!

قاعدة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

قاعدة التعصب في كل زمان ومكان، عافنا الله وإياك من التعصب والمتعصبين!

الفهرس

